الكتاب : مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم الرسي عليه السلام
المؤلف : الإمام القاسم الرسي عليه السلام

يقال لهم: أخبرونا عن القرآن كله ليس لأحد ينظر في كتاب الله، ولا يحتج به إلا الأئمة، ولا يتدبر إلا هم ؟

فإن قالوا : نعم.

فقل لهم: فَلِمَ يتعلم الناس كتاب الله وهم لا يتدبرونه ؟ وكيف وقد أكذب الله قولكم بقوله تبارك وتعالى :؟أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ [محمد: 24]. أَفَتَرَى هذا قول الله للأئمة ؟!

فإن قالوا: نعم.

فقل: أفلا ترون أن الله قد عاب أئمتكم إذ تركوا تدبر كتاب الله، وعابهم فقال :؟أم على قلوب أقفالها؟ !

فإن قالوا: ليس هذا في الأئمة، وإنما هذا في العوام: أن ينظروا في كتاب الله ويتدبرون فيه.

يقال لهم : أفلا ترون أن الله ألزم العباد النظر في كتابه، وقد قال تبارك وتعالى :؟نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؟ [البقرة: 101]. أو ليس عابهم لما تركوا النظر في كتابه، ومعرفة ما أمرهم به، ونهاهم عنه، ومعرفة الأولياء من الأعداء، فَلَمَّا تركوه عابهم بذلك ! وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما رويتم وروينا : (أيها الناس خلفت فيكم الثقلين فتمسكوا بهما لا تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتي) . وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (أيها الناس قد كُذِبَ على الأنبياء الذين كانوا من قبلي، وسيكذب علي من بعدي، فما أتاكم فاعرضوه على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله فهو مني، وإن لم يوافق كتاب الله فليس مني) فكيف يدعونا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويأمرنا بشيء ليس لنا فيه النظر ؟ لقوله: (اعرضوه على كتاب الله) . وقوله صلى الله عليه وعلى آله: (تمسكوا بالثقلين) فإن كان الإمساك بالقرآن هو القراءة، فقد قرأه جميع أهل الأهواء، فهم ممن حفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتمسكوا بكتاب الله. فإن زعموا أنه لا يكون التمسك إلا النظر فيه، والقيام بما فيه، والعمل به، فقد أطلقوا للخلق ينظرون فيه، ويعرفون الحق من الباطل، وقد وجدنا كتاب الله مكذبا لجميع دعواكم.

(401/1)

ثم قالت الروافض: إن الإمامة وراثة يرث ابن عن أب، وتأولوا كتاب الله، وزعموا أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.

فإن كان الأمر على ما وصفت الروافض، أفليس الابن أولى بالأب من الأخ، وأحق بالوراثة ؟ وأقرب رحما ؟ لأن الابن من الأب، والأخ ليس من الأخ أفليس على مذهب قولكم: أن الحسن بن الحسن أولى بأبيه من الحسين ؟! أو ليس لا يرث الحسين مع الحسن بن الحسن ؟! لقول الله تبارك وتعالى :؟إن امرؤ هلك ليس له ولد؟ [النساء: 176]. أو ليس إذا كان الولد قطع ميراث الأخ والعم ؟! أو ليس الحسن بن الحسن قطع ميراث الحسين بن علي من الحسن ؟! إذا كانت الإمامة على ما وصفتم من الوراثة.

فإن زعموا أن حسينا أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقعد من حسن بن حسن.

يقال لهم: أو ليس قد خرج الأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي بن أبي طالب بعد موته ؟ وخرج من علي إلى الحسن، وكان يجب على الحسين طاعة حسن، والأمر للحسن دون الحسين، ويخرج من الحسن إلى الحسن، أو ليس ابن الحسن أولى بالحسن من حسين ؟

فإن زعموا أن الحسن والحسين هما مشتركان في هذا الأمر، وورثا عليا جميعا، فقد تركوا قولهم، ودعواهم بالوصية، إذا كانا مشتركين في هذا الأمر، فمن قام به فهو صاحبه.

فإن زعموا أنه ليس للحسين أن يقوم في وقت حسن، فقد قطعوا الأمر من الحسين في زمان الحسن، لأن طاعة حسن واجبة على حسين، وقد حاز الأمر الحسن دون الحسين، وورثه ابنه الحسن بن الحسن.

(402/1)

فإن قالوا : لا يرث حسنُ بن حسن رسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . وحسين قائم ؛ لأن الحسين أقعد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمن كان أقرب برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وأقعد فهو أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقوله :؟وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله؟ [الأنفال:75]. وإنما هذه الآية يعني بها أرحام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم). وحسين أقرب رحما برسول الله عليه السلام من حسن بن حسن .

يقال لهم : قد بطلت دعواكم في صاحبكم، لأنه ليس في جميع آل أبي طالب أبعد رحما من صاحبكم، لا يلحق برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا بثمانية آباء، وصاحبكم التاسع، وفي ولد فاطمة من هو أقرب برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه، من ليس بينه وبين النبي إلا أربعة آباء، أوليس هذا أقرب رحما، وأقرب قرابة برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، (من الذي زعمتم، فليس لصاحبكم مع هذا أمر ولا نهي ؛ لأن هذا أقرب قرابة برسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم). وأقعد، فهذا أبطل لدعواكم .
فإن زعمت الروافض أن الحسن بن الحسن كان صبيا، وحسين بالغ، ولا يكون إمام المسلمين إلا بالغا، فصدقتم. يقال لهم أخبرونا عن صاحبكم علي بن موسى حين مات، أليس كان ابنه ابن أربع سنين أو ثلاث ؟ وابنه محمد حين مات كان ابنه صغيرا ؟ فَلِمَ نصبتم الأطفال إذا لم يجز لطفل أن يكون إمام المسلمين ؟! هذا يبطل دعواكم، ويدخلكم فيما عِبتُم !!

(403/1)

وزعمتم أنه لا يصلح حسن بن حسن أن يكون إماما لأنه طفل صغير، ثم نصبتم الأطفال، وزعمتم أنهم أئمة، وهما أصغر سنا من حسن بن حسن وكيفَ – ويْحَكُم – يكون طفل إمام المسلمين ؟!
وليس في سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، ولا حكم الإسلام أن يصلى خلف طفل، ولا تؤكل ذبيحته، ولا تقبل شهادته، ولا يجوز بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه، ولا يُؤمن على ماله، فمن لم يُؤمن على هذه الأشياء، ولا تأمنه على ألف درهم أو أقل أو أكثر، فكيف يأمنه الله على أحكام دينه، ودماء عباده، وفروجهم ؟! ويقيمه مقام الأنبياء ؟! لقوله تبارك وتعالى :؟حجة بالغة؟. فلا تكون الحجة لله في أرضه إلا عند بلوغه .
وقوله تبارك وتعالى في الأطفال اليتامى :؟حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم؟ [النساء:6]. فيا عجبا ممن لم يأمنه الله على ماله إلا عند بلوغه فكيف يأمنه على خلافته !؟
وقد رويتم ورويتا أن جعفر بن أبي طالب جلس بين يدي النجاشي فقرأ آية من الإنجيل ففهمها جعفر فضحك، فغضب النجاشي ! فقال: يا جعفر أبكتاب الله تهزأ ؟! والله إن الله أنزل على موسى في التوراة، وعلى داود في الزبور، وعلى عيسى في الإنجيل، وعلى نبيئك في القرآن (أن إذا ولي الخلائقَ الأطفالُ نزلت عليهم من السماء لعنة، أو أفرغت عليهم من السماء لعنة) فكيف – وَيْحَكُم – يكون الطفل إمام المسلمين .
وإن زعمت الروافض بأن يحيى بن زكريا كان صبيا وكان نبيئا !
يقال لهم: أحكمُ الأنبياء وحكمُ الأئمة واحد ؟
فإن قالوا : نعم .

(404/1)

يقال لهم : فَبِمَ بان الأنبياء من غيرهم ؟ إلا أن الأنبياء أعطوا ما لم يُعط غيرهم من الأئمة، وأعطي الأئمة ما بانوا به من سواهم من الخلائق. مع أن يحيى بن زكريا لم يُرسل إلى أحد من خلق الله، وكان نبيا ولم يكن مرسلا، ولم يل أحكام الأمة، وكانت الأحكام إلى غيره . إلى زكريا . مع أن يحيى دعاءُ زكريا إذ قال :؟فهب لي من لدنك وليا؟ [مريم: 5]. وقال :؟وزكريا إذ نادى ربه قال رب لاتذرني فردا وأنت خير الوارثين؟ [الأنبياء: 89]. وقال :؟رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء؟ [آل عمران: 38]. فوهب الله يحيى إجابة لزكرياء، وكان في وقت يحيى الحجةُ زكرياءَ.

فإن زعمت الروافض أن عيسى بن مريم تكلم في المهد صبيا .

يقال لهم: أفتزعمون أن عيسى بن مريم، وصاحبكم شيء واحد ؟! ألا ترى أن الله يُعجِّب به خلقه، وأخبرهم بقدرته إذ قال :؟ويكلم الناس في المهد وكهلا. ؟ [آل عمران:46]. وقال تبارك وتعالى :؟وجعلنا ابن مريم وأمه آية؟ [المؤمنون: 50]. لأنه لم يكن في ولد آدم خلقٌ مثله، خُلق من غير أب، ولم يقل: إن صاحبكم آية منه مع أنه يستبين من صاحبكم للناس خلاف ما استبان من عيسى ويحيى وهما نبيان، فتحتجون علينا بحجة الأنبياء، وتساوون أصحابكم بالأنبياء، ونرى أفاعيلهم خلاف أفاعيل الأنبياء، إذ أخذوا التَّقيَّة من المخلوقين دينا، وهذا يحيى بن زكرياء لم يخف غير الله، ولم يُدارِ في دينه، استبقاء على بدنه، حتى قتل صلى الله عليه، ومع أن يحيى لم يلبس اللَّيِّن، ولم يأكل الطيب، وكان باكيا آثار الدموع بخديه، حتى مضى إلى الله، صلى الله عليه وسلم.

(405/1)

وهذا عيسى بن مريم تكلم في المهد صبيا، لم يحبس كلامه تقية على نفسه، وكان يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فينفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله، وكان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وكان يحيي الموتى بإذن الله، وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، لم يتق أحدا من خلق الله ولم يراقبه، وكانوا يقولون: ساحر مجنون كذاب كاهن . فلم يسعه كتمان ما جعل الله فيه بما عاين من تكذيب الخلق له، مع أن فعل عيسى بان من فعل صاحبكم .

وليس كل الأنبياء وَلُوا حكم الأمة، وإنما كان بعضهم نبي نفسه، وبعضهم نبي أهله، وبعضهم نبي أهل بيته، وبعضهم نبي قرابته، وبعضهم نبي قومه .

وليس حكم الأنبياء كحكم غيرهم ممن دونهم، مع أنه قد مضت سنة بني إسرآئيل، وهذه سنة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فإن زعموا أن السنة لم تزل من لدن آدم إلى يومنا هذا، فقد كذَّبوا كتاب الله، لقول الله تبارك وتعالى :؟لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا؟ [المائدة: 48]. وقد حرم الله على بني إسرآئيل الصيد يوم السبت،

وأُحل لنا، وقد حرم الله عليهم الشحم وأُحل لنا، لقول الله سبحانه :؟ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم؟ [آل عمران: 50]. أفلا ترى أن عيسى حلّل لأمته الذي حرم موسى على أمته.

(406/1)

فإن زعموا واحتجوا بقول الله :؟سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا؟ [الإسراء: 77]. ثم قال :؟ولن تجد لسنة الله تبديلا؟ [الأحزاب: 62] أي: بالدعوة ؛ لأن دعوة الأنبياء واحدة ؛ لأن كلهم دعوا إلى طاعة الله ونهوا عن معصيته، غير أن في الشرائع لكل أمة شريعة، وأُحل لأمة ما حُرم على غيرها، محنة من الله وامتحانا، مع أن الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم الصفوة بعد الصفوة، لذلك ورث حسين الإمامة، لأنه كان خير أهل زمانه، مع ما كان فيه من الدلائل في نفسه، والآثار من نبيه، وإجماع الأمة على أنه خير أهل زمانه، وهو وأخوه (سيدا شباب أهل الجنة)، فهل يكون لأحد أن يتقدم على من هو خير منه ؟! فالإمامة لا تكون إلا لخير أهل الأرض، يستبين للناس فضله وزهده وعلمه، وإنما الإمامة نُقْلَة وصفوة وخيرة، ولم تزل كذلك من لدن آدم، تنقل من صفوة إلى صفوة.

ولو أن النبوة والإمامة كانت وراثة لم تخرج (من اليمن إلى غيرها، إذ كان هود نبيا، كان يحيز الأمر في ولده، فلم يخرج) الأمر منه إلى غيره، لكن إنما هي صفوة بعد صفوة، كذلك يصطفي الله من كل قوم خيرهم، فاصطفى من اليمن هودا وصالحا وشعيبا.

فإن زعم زاعم أن هودا وصالحا وشعيبا من ولد إبراهيم. يقال لهم: ألا ترون أن الله قص علينا خبرهم، ثم قال في كتابه، عن قول صالح لقومه :؟واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله؟ [الأعراف: 74]. هذا من قبل إبراهيم .

(407/1)

ثم اصطفى الله من الأعاجم إبراهيم خليله، فجرت النبوة والخلافة والإمامة في ولده، ثم جرت من ولده في ولد إسحاق، ثم اصطفى من ولد إسحاق يعقوب، ثم اصطفى من ولد يعقوب يوسف، ثم اصطفى من ولد إسحاق أيوب، وهو من غير ولد يعقوب، ثم جرت الصفوة في ولد يعقوب، حتى انتهت الصفوة إلى موسى بن عمران، ولم يكن موسى من يوسف، ثم جرت الصفوة في يوشع بن نون، وكان يوشع خير أهل زمانه، ثم جرت الصفوة في ولد هارون، وإنما تنتقل الصفوة من بطن إلى

بطن من بني إسرآئيل حتى انتهت الصفوة إلى عيسى بن مريم.
ثم جرت الإمامة والزعامة فيمن تبع عيسى بن مريم، حتى انتهت كرامة نبوة ا لله إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى جميع النبيين، فانتقلت من ولد إسحاق إلى ولد إسماعيل، وجرى الأمر والصفوة في ولد إسماعيل، إذ صار الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وجرى الأمر في ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصفوة بعد الصفوة.

(408/1)

[صفة الإمام]

وانما الصفوة لا تكون إلا في أخير أهل زمانه، وأكثرهم اجتهادا، وأكثرهم تعبدا، وأطوعهم لله، وأعرفهم بحلال الله وحرامه، وأقومهم بحق الله، وأزهدهم في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأشوقهم للقاء الله .

فهذه صفة الإمام. فمن استبان منه هذه الخصال فقد وجبت طاعته على الخلائق.

فتفهموا وانظروا هل كان بيننا وبينكم اختلاف في علي بن أبي طالب ؟! ثم من بعده في الحسن بن علي ؟! أو هل اختلفنا من بعده في الحسين بن علي ؟ أو هل اختلفنا في محمد بن علي ؟ أو هل ظهر منهم رغبة في الدنيا، أو طلب أموال الناس ؟ أو هل بخلوا بما عندهم ؟ أو هل اتخذوا القصور والمراكب والخدم والأتباع ؟ أليس قد مضوا إلى الله على البصيرة ؟!

فلو أردنا أن نجحد الحق لجحدناهم من بعد الحسين بن علي، فصيرناه في أهل بيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عامة، ولكن اتبعنا الحق حيث أمرنا الله باتباعهم، وأقررنا بالفضل لمن جعل الله فيه الفضل، فلم نر فيهم من طلب الأخماس من التجارة، ولا مِن صانعٍ، ولا مِن زارعٍ، ولا من حَّمال يحمل على رأسه، ولم يستأثر بما جعل الله لأهل بيت نبيهم على أهل بيت نبيئهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ففي دون هذا التَّفهُّم.

فإن زعمت الروافض أن ذا في صاحبنا بما وصفتم من الدلائل الإمامة والزهد والفضل.

يقال لهم: مالنا لا نرى ما تصفون ؟

فإن قالوا: إنه في دار تقية.

فيقال لهم: أفتظهر منكم معصية الله على التقية ؟ فإن قالوا : نعم.

(409/1)

يقال لهم: فهل ظهر من أحد من الأنبياء أو الأئمة أو الدعاة إلى الله مثل علي والحسن والحسين، أو علي بن الحسين، أو محمد بن علي، أو غيرهم ممن دعا إلى الله، الذين لم نختلف فيهم إذ كانوا أئمة ؟ وجعل الله فيهم ذلك، أو هل طلبوا ما ليس لهم من أموال الناس غيرهم ؟ أو هل أظهروا المعصية بالتقية ؟ استبقاء على أنفسهم ومخافة على دمائهم ؟ أو ليس صبروا على أمر الله ؟ وقاموا بحق الله، حتى قُتل بعضهم، ونُشر بعضهم، وأُحرق بعضهم، وأغلي بعضهم في القدور، ودُفن بعضهم أحياء، وغُرِّق بعضهم في البحار، وسُمِّر بعضهم بالمسامير، وعُذبوا بألوان العذاب ؟! فما كان يمنعهم أن يظهروا التقية فينجوا من أعداء الله، إذا كانت التقية من المخلوقين دينا على ما وصفتم ؟! وقد قال تبارك وتعالى :؟ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار؟ [هود: 113]. وهل الركون إليه إلا الاتباع له على ما يريد، وتصديقه من وجهة ما يقول، وسكناه معه في داره على غير منابذة، وهو على غير الدعاء إلى الله وطلب الجهاد، وقد قال الله تبارك وتعالى يُصَبِّر المؤمنين على ما يصيبهم فيه سبحانه :؟وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين؟ [آل عمران: 146]. وقال :؟يحكم بها النبيئون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا؟ [المائدة: 44]. ثم قال :؟وإياي فاتقون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون؟ [البقرة:41 – 42]. وقال تبارك وتعالى :؟إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم؟ [البقرة: 159 – 160]. فكيف يجوز لأحد من الأئمة يكتم الحق، ويظهر من نفسه

(410/1)

خلاف ما يعلم ؟ أو ليس من رأى فعله من المستضعفين اقتدى به، لما يعاينون من ظاهر فعله، فهم مصيبون إذ غاب عن المستضعفين الناصر ؛ إذا اقتدى بالإمام.

فإن قلتم: نعم. فقد وجب لمن خالفكم الإيمان. وإن قلتم: إن الذي رأيتم من الإمام هو التقية، والذي أخبركم خلاف الحق، والحق ما تقولون، وإنما كتَمْتُم الحق تقية منكم، أ فليس تدعونا إلى أن نصدقكم على ما قلتم ونكذبه فيما قال لنا ؟ فأنتم إذن أولى بالصدق منه، وأنتم أئمة إذ تأمروننا أن نقتدي بما تقولون، ونترك ما قال .

فإن زعمتم أنه على الحق، وقد رأى الناس خلاف ما تقولون، ورووا منه خلاف ما تنسبون، وسمعوا منه خلاف ما تدعون، فاقتدُوا به إذ زعمتم بأنه إمام افترضت طاعته ! أو ليس يجب على الناس أن يطيعوه فيما يأمرهم، ويمتنعوا عما ينهاهم، ثم تكلفون الناس أن يتبعوا قولكم، ويتركوا قوله، فأنتم إذاً

الذين افترض الله طاعتكم، وأنتم الصادقون ليس هو !
ثم زعمتم أنه إمام مفترض الطاعة، أفليس على مذهب قولكم هو إمام هدى وإمام ضلالة، إذ هداكم وأضل غيركم آخرين، حين أفتاكم بالحق، وأفتى غيركم بالباطل، وعلمكم حكم الله، وعلم غيركم خلاف حكم الله ؟
وكيف وقد قال تبارك وتعالى :؟ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون؟ [المائدة: 44].
أفتَرَى جميع الحكمين سواء، حكم ما أخبرك، وحكم ما أخبر غيرك ؟ هما جميعا من حكم الله، وهما حكمان متضآدان، إلا أن تقولوا: إنه حجة على بعض دون بعض، لناس مخصوصين، وليس حجة على الآخرين.

(411/1)

[الحجة الغائبة]
فإن زعمتم أنه حجة على الكل، فالواجب عليه أن يهديهم أجمعين، ويدلهم ويبصرهم، ويعرفهم بنفسه.
وكيف يكون حجة يحجب نفسه من الناس، ولا يبين لهم ؟! أرأيتم إذا وقفوا بين يدي الله بم يحتج عليهم ؟ أبما دعاهم فعصوه ؟ أم بما بيَّن لهم فخالفوه ؟ أو بما حجبهم نفسه فجهلوه ؟ فكيف تثبت له عليهم حجة، ولم تبلغهم حججه، ولم يعرفوا اسمه، ولم يُعرِّف بنفسه.
فإن زعمتم بأن له أن يكتم، لأن الله قال في محكم كتابه :؟رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه؟ [فاطر : 28]. وهو قال لهم:؟رجل؟ ولم يكن الرجل بحجة، لأن الحجج فيما مضى أنبياء وأوصياء الأنبياء، وهذا رجل مؤمن أثنى الله عليه، ولم يكن بنبي ولا حجة.
فإن زعموا أن صاحبنا يكتم كما كتم المؤمن.
يقال لهم: أو ليس زعمتم أن صاحبكم حجة، وهل للمؤمنين أن يبينوا بَيَّن الحجج، يسع المؤمن أن يكتم، ولا يسع الحجة أن يكتم ؟! مع أن مؤمن آل فرعون كتم الإيمان قبل أن يبين الله لخلقه، فلما بَيَّن الله لخلقه لم يسعه الكتمان بعد البيان، مع أنه كان في عبدة الأوثان، وفي دار من يدعي الربوبية من دون الله، ويجحد رب العالمين، وصاحبكم في دار الإقرار والمعرفة، وتصديق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن جهلوا الأحكام والشرائع، فليس لأحد أن يكتم العلم من طالبه بعد بيان الأنبياء، وليس الحجة حجة إلا من احتج على خلق الله، ولم يُلبِّس دين الله.
فإن زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتم حين ظهر.

(412/1)

يقال لهم : ومتى كتم رسول الله صلى الله عليه ؟ أوليس قال الله لنبيئه :؟يا أيها المدثر قم فأنذر؟ [المدثر: 1 – 2]. وقال رسول الله صلى الله عليه آله وسلم وهو مستند إلى الكعبة، والناس يومئذ مشركون جهال، عبدة أوثان، فقال: ؟يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا؟ [الأعراف: 158]. لم يتق أحدا من خلقه، فاحتمل الأذى، وصدع بأمر الله، وقام بحق الله، واحتج على خلق الله، وصبر على ما أصابه، حتى أبلغ صلى الله عليه وآله وسلم السامع والعاصي، والخاص والعام، والأبيض والأسود، فمرة يرمون ساقيه، وأخرى يرمونه، ويتشاورون في قتله، فثبتت حجته على الخلق.
فإن زعمتم أن الأئمة يقومون مقام الأنبياء، فالواجب عليهم أن يحتملوا الأذى كما احتمله الأنبياء.

(413/1)

[صفة الإمام]

ولا يكون حجة إلا داعيا إلى الله مجتهدا، زاهدا فيما في أيديكم، عالما بحلال الله وحرامه، أقوم خلق الله، وأبصره بدينه، وأرأفه بالرعية، وأقومه لدين الله، أمين الله في أرضه، صادق اللسان، سخي النفس، راغبا فيما عند الله، زاهدا في الدنيا، مشتاقا إلى لقاء الله.
فإن زعموا: أن هذا في صاحبهم.
يقال لهم: أوليس إظهار التقية استبقاء على نفسه من الموت، ورغبة في دار الدنيا، على أن يُترك فيها، ولا يُفطن له فيقتل ؟ فليس هذا الزهد، ولا الرغبة، إذ أظهر من نفسه خلاف ما يعلم من الحق.
فسبحان الله ما أبين تكذيب دعواكم! وأبطل قولكم! وعبث ما أنتم فيه ! إذ نرى فيكم ضعفاء فقراء محاويج، من شيخ ضعيف، أو أرملة ضعيفة، أو يتيم طفل، أو مديون مغموم، أو غريب محتاج إلى النكاح، أو فقير محتاج لا حيلة له، ولا مبيت عنده، وزعمتم أنه يعرف مكانكم، ويرى أفاعيلكم، ويعلم حالكم، أو ليس عليه أن يغيِّر حالكم، ويفرِّج على مغمومكم، ويقضي عن مديونكم ؟! إذ زعمتم أنه قام مقام النبيئين.

(414/1)

وقد قال الله تبارك وتعالى :؟وكان بالمؤمنين رحيما؟ [الأحزاب: 43]. فكان صلى الله عليه وآله وسلم يعطي ضعفاء أمته حتى يستأثرهم على نفسه وعياله، وقد قال الله تبارك وتعالى في أهل بيته صلى الله عليه وعليهم وسلم :؟ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا؟ [الإنسان: 8] . فلم يبخلوا بطعامهم على الأسير، وهو كافر، واستأثروا على أنفسهم. فكيف كان ينبغي لصاحبكم أن يستأثر

بالمال على المستضعفين الفقراء من أصحابه ؟ وقد قال الله سبحانه في أهل بيت نبيئه صلى الله عليه وعليهم :؟ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون؟ [الحشر:9، التغابن: 16]. وقد قال في المؤمنين :؟محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم؟ [الفتح: 29]، فقد وصف المؤمنين بالرحمة بعضهم لبعض، فكيف يسع حجة الله، إذ كان حجة على ما وصفتم أن يستغل الألوف، ويأخذ خمس أموالكم، ويُوَكِّل في كل بلاد لقبض الأموال، ولا يُفرِّج على أحد من خلق الله، ولا يقسمها في الفقراء والمساكين ؟! فلم يُر منه صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ قال الله سبحانه :؟وكان بالمؤمنين رحيما؟ [الأحزاب: 43]. ؟بالمؤمنين رؤوف رحيم؟ [التوبة: 128]. ولم يُر منه صفة المؤمنين من أصحاب النبي عليه السلام إذ قال الله فيهم :؟رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا؟ [الفتح: 29]. ؟وينصرون الله ورسوله؟ [الحشر : 2].

فلا يرى فيه أن يفرج على أحد من فقراء المؤمنين إن ظلم أو قتل، ولم يُر فيه النَّصْبُ حربا لأعداء الله، ولا يسير فيما يسخط الأعداء، ولم ير قط إلا طلب أخذ الأموال من غير أن يقسمها في المستضعفين! فكيف يسعنا أن نقول فيه : هو حجة، وليس يرى فيه صفة الحجج ؟!

(415/1)

وأما قولكم : إنه يعلم ما نفعل، ويعلم ما بسرائرنا، ونحن نرى فيكم شُرَّاب الخمور، ونرى فيكم الزنا واللواط، وأخذ أموال الناس، وظلم العباد، والتقاطع والجفاء، والمسير بغير ما أمر الله والقتل! وزعمتم بأنه يعلم منكم هذه الخصال، إذ زعمتم أنه يرى أفاعيل العباد، وهو يتولاكم على هذه الخصال، التي فيكم، فإن كان يتولاكم على هذا فليس من الله في شيء، لقول الله تبارك وتعالى :؟ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار؟ [هود: 113]. وقوله :؟فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا؟ [النجم: 29]. وقوله :؟لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حآد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم؟ [المجادلة: 22]. وقال تبارك وتعالى :؟يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم؟ [التوبة: 73، التحريم: 9]. وقال لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم :؟واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا؟ [الكهف: 28]. فقد أمره الله سبحانه أن لا يتولى أصحاب الدنيا، ويصبر على الذين يريدون الآخرة، فلم نر من صاحبكم إلا طلب الدنيا، مجتهدا للمكاثرة، وإن كان وصفقم من الأشياء ما ليس فيه !

(416/1)

وزعمتم أنه يرى أفاعيل العباد وأعمالهم، وهو شاهد عليهم، وليس فيه الذي وصفتم بأنه يرى أفاعيل العباد! فإن كان يرى أفاعيلكم فليس له أن يتولاكم، ولا يأخذ منكم شيئا من عرض الدنيا، وإن كان لا يرى منكم ما وصفتم فيه فقد كفرتم وعبدتموه من دون الله، وهل هذه إلا صفة رب العالمين ؟! أيرى ما غاب عنه، ويسمع من غير أن يُسمع، وأن يعلم ما في قلوبكم من غير أن يُخبَر ؟! فتعالى الله رب العالمين، عما يقولون علوا كبيرا، ما أعظم افترآءكم على الله إذ شاركتم في فعله أحدا من خلقه، وكيف يكون ذلك كما زعمتم ؟! وهو يقول :؟عالم الغيب والشهادة؟ ثم قال :؟فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا؟ [الجن: 27]. يعني سبحانه: بالوحي. لقوله :؟يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا؟ [الجن: 27]. فقد أخبر بأن لا يعلم الغيب إلا الله ومن ارتضى من رسول، يوحي إليه بخبر ما يريد، فإذا مضى رسول الله انقطع الخبر والوحي، وحجب عن الخلق أمر الوحي، وعلم الحادثات سوى علم ما جاءت به الأنبياء، وبعلم الأنبياء يشهدون، فكيف يعلم أحد الغيب من غير وحي الله جل جلاله ؟ عن أن يحويه قول أو يناله. فإن زعمتم أن في الأرض اليوم من يُوحى إليه، فقد زعمتم أنه نبي، لأنه لا يكون الوحي إلا إلى النبي، وإنما سمي نبيئا لأنه نبأ عن الله، فمن أنبأ عن الله فهو نبي، فويلكم متى آمنتم بالله وقد كذبتم كتاب الله ؟! لقوله :؟خاتم النبيئين؟ [الأحزاب:40]. فكيف يكون محمد خاتم النبيئين، وقد نصبتم الأنبياء من بعده ؟!

ويقال للروافض : أخبرونا عن أعراب البادية والمستضعفين، والذين لا يعلمون لصاحبكم اسما ولا نسبا هل لصاحبكم عليهم حجة ؟

فإن قالوا : نعم .

يقال لهم : هل بَلَغَتْهم منه الحجة، فيكون حجة عليهم ؟ .

ويقال للروافض : هل لصاحبكم أن يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويكون تابعا لرسول الله عليه السلام لا مخالفا له ؟

(417/1)

فإن قالوا : نعم هو تابع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

يقال لهم : هل رأيتم فيه ما رأيتم في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الزهد وغير ذلك ؟

فإن قالوا : نعم . يقال لهم : فهل رأيناه فَرَّجَ على أحد منكم أو غَيَّر حاله ؟ وقد رأينا منه أفاعيل لا يجوز أن تكون في نبي، ولا في مؤمن، ونستحيي أن نصفه في كتابنا ؟ .

ويقال للروافض : هل يكون حجة لله إلا بالغا ؟ كما أن الله لم يبعث محمدا إلا في وقت بلوغه ! وكيف يجوز أن يكون حجة لله طفلا، وقد قال الله :؟حجة بالغة؟ فكيف يكون صبي في ثلاث أو

أربع حجةً ؟! ونحن في أمة محمد، وسنتنا سنة الإسلام، وقد قال الله تبارك وتعالى :؟لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا؟ [المائدة: 48]. فمن شرائع محمد أن لا يُصلى خلف طفل، ولا تجوز شهادته، ولا تؤكل ذبيحته، ولا يجوز شرآؤه ولا بيعه ولا نكاحه، فكيف يجوز أن يكون إمام المسلمين طفلا صغيرا ؟!

فإن زعمتم أنه صاحب الأمر في حال طفوليته، فإذا بلغ كان حجة .

يقال لهم: أفلا ترون أنه قد خلت الأرض من حجة ؟! ولو جاز أن تخلو الأرض طرفة عين لجاز أن تخلو ألف عام !!!

ويقال للروافض : أخبرونا عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعليهم مشركون أو كفار أو مسلمون ؟

فإن زعمتم أنهم مسلمون. يقال: فقد أجمع أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعليهم وسلم وعلماؤهم بأنكم على غير طريقة الإسلام .

فإن زعموا بأنهم قد يعلمون الحق، ويجحدون حسدا منهم .

(418/1)

يقال لهم : فنحن نرى منهم أنهم إذا استبان لهم من أحد منهم الفضل والزهد والعلم انقادوا له، وأقروا بفضله، ونزلوا عند حكمه، فكيف حسدوا صاحبكم، ولم يحسدوا ذاك ؟! فلو كان الأمر على ماوصفتم أنه لا يمنعهم من الإقرار إلا الحسد لكانوا لايقرون لأحد !! وكل واحد منهم يجر إلى نفسه، ولا يقر بفضل صاحبه. ولكن كذبتم عليهم، لأنا قد رأينا قولهم يصدقه كتاب الله، وقولكم يكذبه كتاب الله، وهم أولى بالصدق منكم، ونحن نرى منهم من الزهد مالا نرى من غيرهم، فهم أعرف بأهل بيتهم منكم، وهم أعرفُ بعضِهم لبعض منك يا مدعي ما ادعيت بالباطل، وتريد أن نقبل باطلك بغير بيان ولا برهان، ونكذب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله!!

أليس ينبغي لصاحبكم أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويقتدي بفعله! ؟ إذ كان حجة كما زعمتم. وقد قال الله تبارك وتعالى :؟لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر؟ [الأحزاب: 21]. أو ليس ينبغي لصاحبكم أن يبدي نصيحته لأهل بيته قبل العوام، كما أمره الله تعالى فقال :؟وأنذر عشيرتك الأقربين؟ [الشعراء: 214]. فجمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعين رجلا من بني عبد المطلب، وعبد مناف، ورجالا من بني مخزوم فيهم أبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وفي القوم أبو بكر، ومن بني أمية عثمان، وصخر بن حرب أبو سفيان فأنذرهم بعلم ما أوحي إليه وأخبرهم بما أوحى الله إليه وأبدى لهم نصيحته، ودعاهم إلى نصرته، فأجابه مَن أجابه، وخالفه من خالفه، لم يخف منهم التكذيب، ولا الجحد ولا الحيود، وكان

حجة لمن اتبعه، وحجة على من عصاه، أفليس يجب على صاحبكم أن يبين لأهل بيته كما بَيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله لقربائه ؟

فإن قالوا: يخاف أن لايقبلوا منه، ويكذبوه ويحسدوه .

(419/1)

يقال لهم: - وَيْلَكُمَ ما أعظم افتراءكم على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، أَفَتَرَاهم أشر ممن وصفنا من قريش الذين بَلَّغهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟! وتزعمون أن أخيار آل محمد وزهادهم، مثل زيد بن علي بن الحسين بن علي، وعمر بن علي بن الحسين بن علي، وعلي بن علي بن الحسين، وحسين بن علي بن حسن، والحسن بن الحسن، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، الذي روت الأمة فيه ماروت، وقال [الباقر] محمد بن علي بن الحسين : ((يكون هذا خير أهل زمانه، يقتله شر أهل زمانه، لقاتله مثل ثلث عذاب أهل النار، ويموت قاتله قبل دخول الحرم)) فلما قام أبو جعفر، قال عبد الصمد بن علي: سمعتم ما روى ابن أخي، والله ما له قاتل غيره . ومثل الحسن بن الحسن بن الحسن، ومثل علي سيد العباد بن الحسن بن الحسن بن الحسن، ومثل الحسين بن علي، ومثل محمد بن عبد الله النفس الزكية، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وروى ذلك جعفر بن محمد قال : ((هذا النفس الزكية يقتل بالثنية بالمدينة، ويبلغ دمه حجر الزيت)). ومثل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، ومثل يحيى، وإدريس، وسليمان، وجعفر، وموسى، بني عبد الله بن الحسن بن الحسن، ومثل يحيى بن زيد، وعيسى بن زيد، ومحمد، والحسين، ابني زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومثل أحمد بن عيسى بن زيد، ومثل عبد الله بن موسى بن عبد الله، صاحب سويقة، ومثل القاسم بن إبراهيم، ومثل محمد بن إبراهيم، ومثل الحسن بن إبراهيم، ومثل أحمد بن إبراهيم، ومثل علي بن إبراهيم، ومثل جعفر بن عبد الله.

(420/1)

فلو وصفتهم لك لطال عليك المجلس، الذين كانوا أزهد الخلق، وأعلم الخلق، وكانوا فَرَجا للمستضعفين من عباد الله، الذين كانت وجوههم كصفائح الفضة، مُلْسٌ يُبْسٌ من خوف الله، صُفر الألوان من سهر الليل، قد انحنت أصلابهم من العبادة، باكية أعيانهم من خوف الله، وشفقة من عذاب الله. لم يستحلوا مثل ما استحل غيرهم من قبض أموال الناس، ولا يستأثرون بشيء من فيء المسلمين، مثل ما استأثر غيرهم، أحدهم إذا وصل المؤمنَ وصله بمائة ألف فما دونها من صميم

أموالهم، وخرجوا من أموالهم زهدا في الدنيا، ورغبة لما عند الله.
أفترون أن جميع هؤلاء، وجميع أهل بيتهم كانوا أجهل للحق، وأشد حسدا، وأشد بغيا، وأشد إنكارا من أبي جهل بن هشام، ومن الوليد بن المغيرة، ومن أبي لهب، وأبي سفيان، ومن معاوية بن أبي سفيان، ومن قريش، الذين كان جمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنذرهم، وأبدى لهم النصيحة كما أمره الله سبحانه وتعالى لقرابته ؟! أفليس كان يجب على صاحبكم أن يبدي نصيحته لأهل بيته وهم مسلمون أخيار ؟!! كما أبدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصيحته لبني عبد مناف، ونفر من بني مخزوم، وزهرة، لأنهم كانوا أخواله ؟

(421/1)

أفترى هؤلاء أهل بيت النبي الذين سميناهم في كتابنا، ومن لم نسم في كتابنا، أجحدُ من قريش هؤلاء الذين جمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذين وصفنا في كتابنا مالا تنكرهم الأمة ؟! فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبدى نصيحته لهم أول الخلق. فكيف تزعمون أن صاحبكم يبدي لكم الحق، ويكتمه عن أهل بيته ! عظم فرآؤكم على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ووصفتم فعل صاحبكم مضآدا لكتاب الله، وفعل رسوله . ومن خالف رسول الله، فقد خرج من حيِّز رسول الله صلى الله عليه وآله، لقول الله تبارك وتعالى :؟لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة؟ [الأحزاب: 21]. وقوله تبارك وتعالى :؟واتقوا الله الذي تسآلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا؟ [النساء: 1]. فأمر الله بصلة الأرحام، ونهى عن قطيعة الأرحام. أفترون أن صاحبكم وصلكم وقطع رحمه ؟! وأي قطيعة أعظم من أن يكتم دين الله، والحق الذي به يُتقرب إلى الله، ودينه الذي به يُعبد الله، فكتم أرحامه فهلكوا بزعمكم، حتى استوجبوا النار لتركهم الحق، فأي قطيعة أعظم من هذا وقد أمر الله أن توصل ؟!.
ولكن كذبتم وغيَّرتم وأظهرتم الباطل، فلما أنكر عليكم أهل بيت نبيكم، رويتم فيهم ما رويتم كذبا وبهتانا، وخلاف كتاب الله ؛ لأن يُصَدَّقَ باطلكم في زماننا هذا .
فإن زعمتم أنه يبين لنا ويكتم غيرنا، لأنه يعلم منا أنا لا نذيع سره، لما أعطاه الله من علم الغيب، وتأولتم كتاب الله على غير تأويله، وزعمتم أنهم المتوسمون، لقوله سبحانه :؟إن في ذلك لآيات للمتوسمين؟ [الحجر: 75]. وقد عرف منا صاحبنا النصيحة ما لم يعرف من غيرنا، وأخبرنا بما نحتاج إليه، وعَرَّفنا نفسه لما علم منا النصيحة والكتمان عليه، وأنا لا نذيع سره، وقد كتمكم إذ علم منكم غير ما علم منا .

(422/1)

يقال لهم : أو ليس قد كذَّبتم قولكم، وجَهَّلْتُم صاحبكم ؟! إذ زعمتم أنه علم منكم أنكم لا تذيعون سره، أو ليس قد ادعيتم وقلتم للناس واحتججتم على من خالفكم، ووصفتم فيه ما لم يَدَّعِهِ هو لنفسه، مثل علم الغيب، ومثل قولكم يرانا في كل بلاد، ويرى حالنا وأعمالنا وأفاعيلنا، ويسمع كلامنا، ويخبرنا أنا نرجع إلى الدنيا بعد موتنا، وأشباه هذا مما لو وصفناه لكثر وطال ؟!

فيا سبحان الله! أو ليس يكفي دون ما وصفنا لمن وهب الله له أدنى فهم، واستقر في قلبه أدنى إيمان، أن يعرف اختلاف قولكم، وتكذيب دعواكم، وعيوب ما أنتم فيه من باطلكم، ولكن الله يهدي لدينه من يشاء .

زعمتم [أنه] يخبركم لمعرفته بقبولكم، ويكتم غيركم لمعرفته بجحودهم، فسبحان الله ما أبين هذا الفعل أنه مضآد لفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ إذ زعمتم أن صاحبكم يقوم مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويهدي بهدي رسول الله عليه السلام، ويفعل أفاعيل رسول الله صلى الله عليه وآله، أفهكذا كان فعل رسول الله عليه السلام أن يكتم بعضا، ويخبر بعضا ؟! أو أخبر الجميع ؟ قَبِلَه من قَبِلَه، وعصاه من عصاه .

فإن زعمتم أنه أخبر بعضا وكتم بعضا، فقد عظم فرآؤكم على رسول الله صلى الله عليه وآله، وزعمتم بأنه لم ينصح العباد إذ نصح قوما دون قوم، وزعمتم بأنه لم يبلغ رسالات الله إلا قوما دون قوم، ويلكم كيف وقد قال الله لنبيه أن يبلغ الناس لقوله :؟إني رسول الله إليكم جميعا؟ [الأعراف:158]. ولقوله تبارك وتعالى :؟يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس؟ [المائدة:67]، فوعده أن يحفظه ممن كان يحذره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأبلغ الثقلين الجن و الإنس عامة كافرهم ومؤمنهم، فَقَبِلَ مَن قَبِل، وعصى من عصى، فكان حجة لمن قبل، وحجة على من عصى، وكذلك أهله. وبدون هذا يكتفي المؤمن .

(423/1)

وأول من حاز الوصية وادعا علم آدم قوم يقال لهم الإبراهيمية، وجعلوا الوصية وراثة من أب عن أب، وهم من الهند، وهم سادات البلاد، وزعموا أن آدم أوصى إلى شيث، وشيث أوصى إلى ابنه، وقادوا الوصية إلى أنفسهم، وزعموا أن الوصية فيهم اليوم، وزعموا أن كل نبي ادعا النبوة من بعد شيث مدع كاذب ؛ لأنه لا يخبرنا بعلم آدم .

وقالوا: إن الله علَّم آدم الأسماء، والعلم كله، فدفع كل رجل إلى وصيه العلم كاملا، ثم ادعوا بأن العلم الذي نزل من السماء فيهم كاملا، وأبطلوا كل نبي بعثه الله من ولد آدم .

(424/1)

ثم قاد الوصية قوم من اليهود، وزعموا أن الوصية انتهت إلى ولد داود، فجعلوا الوصية في ولد داود، وجعلوها وراثة، وزعموا أنه يرث ابن عن أب، وهم بالعراق يقال لهم : رأس الجالوت، يدفعون إليه خمس أموالهم، وعن الذكر البكر من الولد والمواشي والدوآب، وإذا ذُبح ثور حُمِل إليه درهم قفلة، وثلث وثمن كبده، وإذا تزوج أعطاه أربعة دراهم قفلة، وإذا بنى أحدهم دارا أعطاه مثل ذلك، وإذا تزوج لا يقدر أن يطلق إلا بأمره، أو أمر وكيله، فإذا طلقها أخذ منه أربعة دراهم قفلة، وعليه أن يربي أولاد الزنا من اليهود، ومن لا يعرف له أب حتى يكبر، فإذا كبر كان مولاه إن شاء أعتقه، وإن شاء باعه، وهم الذين يحملونه إذا خرج من منزله لا يتركونه يمشي، ويقولون : إن اليهود فيئهم، فإن أيديهم أطول من أيدي الناس، وأنه يبلغ الركبتين، إذا استوى قائما، كذبا وزورا، واسمهم: رأس الجالوت. ويزعمون أن موسى وهارون سيرجعون إلى الدنيا، فتكون لهم الدولة على المسلمين. وكل نبي بعثه الله في بني إسرآئيل من غير هؤلاء ونسلهم كذبوه وقتلوه، وقالوا : بأنه لو كان نبيئا لكان من ولد هؤلاء ونسلهم، الذين قادوا فيهم الوصية، فقال الله سبحانه تصديق ما قلنا :؟أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون؟ [البقرة:87] فقد ارتكبت هذه الأمة ما ارتكبت بنوا إسرآئيل القذة بالقذة، والحذو بالحذو كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
فرحم الله عبدا تَفَهَّم ونظر لنفسه قبل لقاء الله، ونظر في سنة الماضين، وما ارتكبوا من البدع و الضلالة، وما جحدوا من الحق والبيان، وحَذِرَ أن يكون كأحدهم.

(425/1)

[صفة الإمام]

وإنما صفة الإمام، الحسن في مذهبه، الزاهد في الدنيا، العالم في نفسه، بالمؤمنين رؤوف رحيم، يأخذ على يد الظالم، وينصر المظلوم، ويفرج عن الضعيف، ويكون لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج العطوف، يعادي القريب في ذات الله، ويوالي البعيد في ذات الله، لا يبخل بشيء مما عنده مما تحتاج إليه الأمة، من أتاه من مسترشد أرشده، ومن أتاه متعلما علَّمه، يدعو الناس مجتهدا إلى طاعة الله، ويُبَصِّرهم عيوب ما فيه غيهم، ويُرَغِّبهم فيما عندالله، لايحتجب عن من طلبه، فهو من

نفسه في تعب من شدة الإجتهاد، و الناس منه في أدب، فمثله كمثل الماء الذي هو حياة كل شيء حياته تمضي، وعلمه يبقى، يصدق فعلُه قولَه، يغرف منه الخاص والعام، لا ينكر فضله من خالفه، ولا يجحد علمه من خالطه، كتاب الله شاهد له ومصدق له، وفعله مصدق لدعواه، وشواهده في كتاب الله، والدليل عليه كتاب الله، يقول الله تبارك وتعالى لنبيئه صلى الله عليه وآله: ؟قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني؟ [يوسف:108] من الدعاة من أهل بيتي .

أليس وصف لنا رب العالمين، بأن حجته داع إليه، كما بدأ برسول الله صلى الله عليه وآله، فقال :؟قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة؟. فقال رب العالمين : إن الحجج هم الدعاة، فمن رأيتم من أهل بيت نبيئكم دعا إلى الله علانية غير مكتتم إلا ما قلنا، فإن أنكرتم لم تتكره الأمة، الذين قالوا بخلاف قولنا وقولكم، فلنا عليكم البيان من غير أهل مقالتنا ومقالتكم، بأن قوما من أهل بيت النبي مخصوصين، بأنهم دعوا إلى الله، وجاهدوا في سبيل الله، وقاتلوا وقتلوا، ومضوا إلى الله على سبيل جدهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلي، والحسن، والحسين، الذين جاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين .

(426/1)

وقال الله تبارك وتعالى في الأئمة من أهل بيته :؟كونوا قوامين بالقسط شهداء لله؟ [النساء:135] وقال :؟جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا؟ [البقرة:143] فبما يكونون شهداء عليهم، بما دعوا الأمة فخالفوهم وعصوهم ؟! أو بما لم يدعوهم وجلسوا في بيوتهم ؟! أَفَتَرَى بما يشهدون عليهم يوم القيامة، بكتمانهم الحق وجلوسهم في منازلهم، وإظهارهم التقية، أو في إظهارهم الحق ودعائهم إلى الله، وبيان الحق ؟ فأيهم أحق، وأولى أن يكون شاهدا في كل زمان، مَن أظهر وبَيَّنَ ودعا، أو من كتم ؟! وأوفى شواهدنا في كتاب الله من دلائل الإمام، قال الله تبارك وتعالى :؟كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله؟ [آل عمران:110] فهل شك أحد من خلق الله في زيد بن علي ؟ ومن قام مقامه من أهل بيت نبيئه، ومن مضى من أهل بيته من الأئمة، أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا في الله حق جهاده، علانية غير سر، فيا ويحكم أليس هذه دلائل من كتاب الله ؟! ينبغي للعاقل أن يكتفي بها إن شاء الله .

تم الرد على الروافض، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي وآله وسلم.

(427/1)

مديح القرآن الكبير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منَّ علينا بوحي كتابه وتنزيله، وبما وَلِيَ تبارك وتعالى من أحكامه وتفصيله، بالإعراب والتبيين، وبما جعل فيه من دلائل اليقين، على وحدانيته ودينه، وبما نوَّر في ذلك من تبيينه، وقوَّم سبحانه من صراطه وسبيله، بما شرع فيه من تحريمه وتحليله، وأقام به على كل صالحةٍ مرشدةٍ من دليله، وفصَّل سبحانه من كلامه فيه وقيله، ومن أصدق من الله قيلاً، وأحكم لكل شيء تفصيلاً، فنزله بنور هداه تنزيلاً، فلم يغب في ذلك كله عنه من الهدى غائب، ولم يَخِب من طلاب الهدبه ولا فيه قط خائب، فيعدم من الهدى مراد مطلوب، ولا يحتجب عن الطالب له من هداه محجوب، أنزله الله بتفصيله إنزالاً، فقال تبارك وتعالى، فيما نزَّل منه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ؟أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِيْ حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفصَّلاً؟ [الأنعام: 114]. فجعله منه بفضله ورحمته وحياً منزلاً، وقال سبحانه فيه: ؟وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ؟ [الأعراف: 52]. وقال سبحانه في تنزيله، وما منَّ به فيه من تفصيله: ؟حَم، تَنْزِيْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمْ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عربيا لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ، بَشِيراً وَنَذِيْرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ؟ [فصلت: 1. 4]. فجعله سبحانه لعباده بشيراً ونذيراً، ووضعه للمؤمنين برحمته سراجاً منيراً.

(1/2)

[أهل الذكر]

فمن أراد سرَّ الأسرار، وعلانيةَ مكتومِ الأخبار، التي أظهرها الله لصفوته من الأبرار، وخصَّ بعلمها من انتجبه لها من الأخيار، فحباهم بفهمها واستخراجها، ودلَّ منهم بها من استدلَّ على منهاجها، فكشف لهم منها عن أنوار النور، وبَيَّنَ لهم منها ما التبس على غيرهم من الأمور، فظهر لمن هَداه الله بهم منها مكتومُها، وأسفر بعون الله لمن طلب علمها معلومُها، فسكنت إليها الأنفس، ونطق بها البكم الخرس، فقالوا: بها ناطقين، ونطقوا بها صادقين، وَحَيوا بروحها بمنِّ الله من كل هلكةٍ وموت، وتحركوا بحياتها من بعد خمود وخفوت، ومشوا بنورها مبصرين في الناس، وخرجوا بضيائها من الظلمات والالتباس، كما قال سبحانه: ؟أَفَمَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوْراً يَمْشِيْ بِهِ فِيْ النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِيْ الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِيْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ؟ [الأنعام: 112]. وفيما بَيَّن الله سبحانه من آياته، لمن آمن به، ما يقول تبارك وتعالى: ؟ قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ؟ [الحديد: 17].

وفي أن وحي الله حياة مِن أمر الله وروح، ونور وهدى ورشد ساطع يلوح، ما يقول سبحانه في وحيه،

وفيما نزَّل منه على نبيه: ؟وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوْحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِيْ مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْراً نَهْدِيْ بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِيْ لَهُ مَا فِيْ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيْ الأَرْضِ أَلآ إِلَى اللهِ تَصِيْرُ الأُمُوْرُ؟ [الشورى: 51 . 53]. فجعله روحاً مُحيياً لمن قَبِلَه، ونوراً مضيئاً لمن تأمَله، فنحمد الله على ما جعل فيه لأهله من الحياة، ووهب لهم به من الفوز والنجاة.

(2/2)

وقد ظن من ليس ببَرٍّ ولا تقيّ، من كلِّ ضلّيلٍ تائهٍ شقي، بجهله وضلاله واحتياره، وقلّة علمه بكتاب الله وأسراره، وعندما اقتصر عليه من نظره، ونقصِ فكره وتحيُّرِه، ولتركه علم ما خفي عليه من آياته، عند من جعله الله معدناً لعلم خفياته، ممن انتجب واصطفى، وجعل له المنزلة – عنده – الزلفى، أن في كتاب الله تناقضاً واختلافاً، وأنه إنما اعتسف القول فيه اعتسافاً، فقاده جهله بالكتاب، إلى جهل رب الأرباب، لأن من جهل صنع الله للكتاب في آية واحدة من آياته، كمن جهل صنع الله في أرضه وسماواته، لا فرق بين ذلك في حكمة ولا حكمٍ، وواحدٌذلك كله في الخطيئة والجُرم، فمن جهل أن كل ما سمع من آية الكتاب فوحي الله وتنزيله، وأن كل آية منه فلا يحتملها ولا يحكمها إلا حكمة الله وتفصيله، فهو بكتاب الله من الجاهلين، وعن حكمة الله فيه من الضالين، بل هو بالله في جهله ذلك إن جهله من الكافرين، ولأكثر نعم الله عليه فمن غير الشاكرين، والحمد لله فيه لا شريك له رب العالمين، ونعوذ بالله في كتابه من عماية العمين، ونسأله أن يجعلنا لهداه فيه من المتبعين، وبما نزل فيه من حكمته ورحمته من المنتفعين.

وفيما أمر به من اتباعه، في الإنصات له واستماعه، ما يقول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ؟اتَّبِعْ مَا يُوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِيْنَ؟ [الأنعام: 106].

وفي ذلك أيضاً ما يقول لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله، : ؟ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيْعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُوْنَ؟ [الجاثية:18].

وفي الإنصات والاستماع ما يقول سبحانه: ؟وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوْا لَهُ وَأَنْصِتُوْا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ؟ [الأعراف: 204].

(3/2)

[القرآن عظة ونور]

وفيما في تنزيل الله من الموعظة والنور، وما جعله عليه من الشفاء لما في الصدور، ما يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَبِّكِمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُوْرِ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾ [التوبة: 14]، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم إلى ما فيه من الهدى والنور من المهتدين.

وفي تبيين ما نزَّل الله في كتابه من الآيات، وجعل فيه من المواعظ الشافيات، لمن قَبِلَه وفهمه عن الله جل جلاله، من عباده البررة المتقين الأتقين ما يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِيْنَ، اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيْهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌ يُوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُوْنَةٍ لاَ شَرْقِيَّة ولاَ غَرْبِيَّة يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُوْرٍ يَّهْدِيْ اللهُ لِنُوْرِهِ مَنْ يَّشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: 34 . 35]. فمثَّلَ سبحانه ما في كتابه من نوره وهداه، وما وهب – من تبيينه فيه برحمته – أولياه، بمشكاة قد ملئت نوراً بمصباح في زجاجة نقية ككوكبدريٍّ، ومثَّلَ كتابه بما فيه من هداه بنور مصباحٍ زاهرٍ مضيٍّ، قد نقيا من كل ظلمة وغلس، وصفيا من كل كدرٍ ونجسٍ، فأعلمنا سبحانه بأنه هو نور السماوات والأرض ومن فيهما، إذ هو الهادي لِكُلِّ من اهتدى من أهليهما.

(4/2)

وقد قيل في التفسير: إن المشكاة هي الكوة، التي يجمع ما فيها كما يجمع ما فيه السقا والشكوة، فنور هدى كتاب الله محفوظ بالله مجتمع، وكل من وفقه الله لرشده فهو لأمر الله كله فيه متبع، لا يسوغ لأحدٍ عند الله من خلافه سائغ، ولا يزيغ عن حكم من أحكام الله فيه إلا زائع، يُزِيْغُ اللهُ قلبَه بزيغه عنه، ويفارق من الهدى بقدر ما فارق منه، كما قال علام الغيوب: وخلاَّق ما ضل واهتدى من القلوب: ﴿فَلَمَّا زَاغُوْا أَزَاغَ اللهُ قُلَوْبَهُمْ واللهُ لاَ يَهْدِيْ الْقَوْمَ الْفَاسِقِيْنَ﴾ [الصف: 5].

(5/2)

[القرآن الحكم الفصل]

وفيما جعل الله في كتابه من الحكم والفرقان والفصل، ما يقول الله تبارك وتعالى:﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: 12 . 13]. والفصل فهو الحكم الجد الرشيد، والهزل فهو اللعب والكذب والتفنيد، وفي ذلك ومثله، وما نزل الله فيه من فصله، ما يقول سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِيْ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ

عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُوْنَ لِلْعَالِمِيْنَ نَذِيْراً؟ [الفرقان: 1].
والفرقان فهو: التفصيل من الله فيه لرشده. فمن لم يرشد بكتاب الله فلا رشد، ومن ابتعد عن كتاب الله فَبَعُدَ، كما بعدت عاد وثمود، ومن لم يهتد في أمره بكتاب الله وتنزيله، لم يهتد بغيره للحق أبداً ولا لسبيله، بل لن يبصر ولن يرَى، للحق عيناً ولا أثراً، ولا يزال – ما لم يراجعه – متحيراً ضالاً، ومعتقداً – ما بقي كذلك – حيرةً وضلالاً، يُعد نفعاً له ما يضره، وثقةً عنده أبداً مَن يغرُّه، مرحاً لهلكته فرحاً، يرى غشه له برَاً ونصحاً، يخبط بنفسه كل ظلمة وعشواء، متبعا في دينه وأمره كله لما يهوى، إن قال مبتدياً عسَّف، أو حكى عن غيره حرَّف، افتراءًا وبهتاناً، وقسوة ونسياناً، أثرة منه للباطل على الحق، ونقضاً لما عقد عليه من العهد والموثق، كما قال الله سبحانه: ؟فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيْثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوْبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُوْنَ الْكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظَّاً مِمَّا ذُكِّرُوْا بِهِ، وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيْلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ؟ [المائدة: 13].

(6/2)

فالويل كل الويل لمن لم يكتف في أموره وأمور غيره بتنزيل رب العالمين، كيف عظم ضلاله وغيه ؟! وضلت أعماله وسعيه، فَيَحْسَبُه محسناً وهو مسيء، ورشيداً في أمره وهو غوي، كما قال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ؟قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِيْنَ أَعْمَالاً، الَّذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعاً؟ [الكهف: 103 . 104]، أفليس هذا هو الذي ظن والله المستعان ضُرَّهُ لَه نفعاً ؟! وحسب ضلالته هدى، وهدايته إلى الجنة ردى، كما قال سبحانه: ؟وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ، وَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُوْنَ؟ [الزخرف: 36 . 37].
وفي القرآن وأمره، وما عظَّم الله من قدره، ما يقول سبحانه: ؟لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِعَاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ؟ [الحشر: 21].
وفيه وفي خلاله، وما مَنَّ الله به من إنزاله، ما يقول تباركت أسماؤه لمن نزله عليهم كلهم جميعاً معاً: ؟وَلَوْ أَنَّ قُرْآنَاً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيْعاً؟ [الرعد: 31].

(7/2)

أو لم يسمع من آمن بالله سبحانه في آيات نزلها من الكتاب: ؟ هَذَا بَلاَغٌ لِلْنَّاسِ وَلْيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوْا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ؟ [إبراهيم: 52]، وفي مثل ذلك بعينه، وفيما أنزل من تبيينه، ما يقول سبحانه: ؟هَذَا بَيَانٌ لِلَنَّاسِ وَهُدَىً وَّمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِيْنَ؟ [آل عمران: 138]. ويقول سبحانه: ؟ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِيْنَ ؟ [النحل: 89]. فجعله سبحانه تبياناً وحجة على من فسق وكفر، وهدى ورحمة وموعظة لمن اتقى وشكر.

(8/2)

[القرآن رحمة وشفاء]

وفيه وفي رحمة الله به وشفائه، وما جعل فيه لكل ذي حكم من أكفائه، ما يقول سبحانه: ؟ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ؟ [العنكبوت: 51]. فمن لم يكتف بضيائه فلا كُفي، ومن لم يشتف بشفائه فلا شُفي، ففيه شفاء كل داء، وبيان كل قصد واعتداء، فلا يعرض عنه أبداً مهتدٍ، ولا يصد عنه إلاَّ كل معتدٍ، هالك مهلَك، يَأْفِكُ وَيُؤْفَك، يفتري على الله الإفك والزور، ويؤثر على اليقين بالله الغرور، فهو أبداً التائه المغرور، وقلبه فهو الخراب البور، الذي لم يعمر بهدى الله منه معمور، ولم يسكنه من أنوار حكمة الله نور.

أوَ ما سمع – ويله – قول الله جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، : ؟وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً؟ [المائدة : 48]، فكفى بهذا على من أعرض عن كتاب الله بياناً وبرهاناً واحتجاجاً.

(9/2)

وأين بمن عرف الله وحكمته ؟ وإحسانه بتنزيل الكتاب ونعمته، عن كتاب الله وتنزيله، وما فيه من فرقان الله وتفصيله، وهل يذهب عنه إلا عميّ القلب مقفلُه ؟! لا يتدبر حكم الله ولا يعقله، كما قال سبحانه: ؟أَفَلاَ يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوْبٍ أَقْفَالُهَا؟ [محمد: 24]، فلا يُسقط أبداً المعرفةَ بما جعل الله في كتابه من النور عن القلوب إلا انقفالُها، ولا ينقفل قلب عما فيه من الهدى إلا بضلال، ولا يترك ما ذكر الله من تدبيره إلا من كان من الضُّلاَّلِ، فأما من نوَّر الله قلبه، ورضي عقله ولبَّه، فلا يعدل بتذكر ما أنزل من الكتاب، كما قال الله سبحانه: ؟وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ أُولُوْا الأَلْبَابِ؟ [البقرة: 269]، وقال سبحانه في كتابه، وما ذكر الله من نعمه وتذكيره به: ؟إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ

أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ؟ [ق: 37].
وماذا يا سُبحان الله يريد ؟! مِنْ خَلقِ اللهِ كلِّهم مُريدٌ رشيدٌ ؟ بعد قوله تبارك وتعالى لقومٍ يسمعون: ؟أَفَغَيْرَ دِيْنِ اللهِ يَبْغُوْنَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِيْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ؟ [آل عمران: 83]. فأخبر سبحانه عن استسلام من في سماواته وأرضه، لحكمه فيهم وفي غيرهم وفرضه، وأخبرهم عن مرجعهم جميعاً إليه، ليحفظ كل امرئ ما حكم به له وعليه، تعليماً من الله لهم لا كتعليم، وهداية من الله لهم إلى صراط مستقيم.

(10/2)

فكتابَ الله أعانكم الله ما حييتم فاحفظوا، وبه هداكم الله ما بقيتم فاتعظوا، فإنه أوعظ ما اتعظ به متعظ، وخير ما احتفظ به منكم محتفظ، لما جعل فيه لحافظه من النجاة، ووهب لمواعظه لمن اتعظ بها من الحياة، فعليه فاحيوا ما حييتم، وبه فتمسكوا ما بقيتم، وفيه ما يقول لمن كان قبلكم رب العالمين: ؟وَالَّذِيْنَ يُمَسِّكُوْنَ بِالكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لا نُضِيْعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِيْنَ؟ [الأعراف: 170]. فالتمسك به أحسن الإحسان، وحقيقة الإصلاح والإيمان.

(11/2)

[حفظ الكتاب من الضياع]
وهو فكتاب الله المحفوظ الذي لم يَضِعْ منه بمنِّ الله قطُّ آية، فيضيع بضياعها من الله نور وبيان وهداية، وكيف يذهب منه شيء أو يضيع ؟! أو يتوهم أن الله سبحانه له مضيع ؟! بعد قوله تبارك وتعالى: ؟وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنْ لَهُمْ مَّا يَتَّقُوْنَ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ؟ [التوبة: 115]. وبعد قوله: ؟يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِيْ وَيُنْذِرُوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوْا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدُّنْيَا وَشَهِدُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ؟ [الأنعام: 130]. وبعد قوله سبحانه: ؟وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيْماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُوْنَ؟ [الأنعام: 126]. فكيف يصح أن يذهب منه شيء وهو صراط الله المستقيم ؟! وتبيانه لكل شيء ففيه لعباده هدى وتقويم!
وفيه ما يقول سبحانه: ؟إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِيْ هِيَ أَقْوَمُ؟ [الإسراء: 9]، فهل بقي لأحدٍ من بعده عذر أو مُتَلَوَّم ؟! وكيف يُصدَّق مفترٍ على الله في ضياعه ؟!! وقد أمر تبارك وتعالى عباده باتباعه، فقال فيه: ؟وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيْماً فَاتَّبِعُوْهُ وَلاَ تَتَّبِعُوْا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ؟ [الأنعام: 153]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيه: ؟اِتَّبِعُوْا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوْا مِنْ دُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيْلاً مَّا تَذَكَّرُوْنَ؟ [الأعراف: 3].

(12/2)

وقال سبحانه: ؟وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوْهُ وَاتَّقُوْا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ؟ [الأنعام: 155]. وقد قال قوم مبطلون، عماة لا يعقلون: أن قد ذهب منه بعضه فافتروا الكذب فيه وهم لا يشعرون !! وقالوا من الافتراء على الله في ذلك بما لا يدرون.
فيا سبحان الله!! أما يسمعوا لقول الله: ؟إِنَّا نحن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ؟ [الحجر:9]. وقوله سبحانه: ؟بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيْدٌ فِيْ لَوْحٍ مَحْفُوْظٍ؟ [البروج: 22].

(13/2)

وكتاب الله فهو الذكر الحكيم، والقرآن المكرم العظيم، فمن أين يدخل عليه مع حفظ الله له ضياع ؟ أو يصح في ذلك لمن رواه عن أحدٍ من الصالحين سماع، مع ما كان لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الأصحاب، وكان عليه أكثرهم من المعرفة بالخط والكتاب، إن هذا من الافتراء لعجب عجيب، لا يقبله مهتد من الخلق ولا مصيب . فنعوذ بالله من الجهل والعمى، ونسأله أن يهب لنا بكتابه علماً، ويجعله لنا في كل ظلمة مظلمةٍ سراجاً مضيأً، ومن كل غُلَّةٍ معطشةٍ شفاءاً وريًّا، فقد جعله رياً من الظمأ لمن كان ظمياً، وضياءاً من العمى لمن كان جاهلاً عميّاً، فهوا البصر المضيء الذي لا يعمى، والرَّيّ الرَّوِي الذي لا يظمأ، فمن رَوِيَ به من الصدى بإذن الله ارتوى، ومن أبصر ما فيه من الهدى سلم أن يضل أو يغوى، بل هو سراج السُّرُج، وحججه فأبلغ الحجج، كما قال الله ذو الحجج البوالغ، والحق المبين الغالب الدامغ : ؟قُلْ فَللهِ الحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ؟ [الأنعام: 149]. وقال سبحانه: ؟بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُوْنَ؟ [الأنبياء: 18]. فمن عمي عن حججه فلن يبصر، ومن حاجَّ بغيره فلن يظفر، ومن ضل عنه عظم ضلاله، ومن قال بخلافه كذب مقاله، ضياء سراجه ووحيه ساطع لائح، وعزمٌ أمرُه ونهيهُ رحمة من الله ونصائح.

(14/2)

فيه قصص الأمم والقرون، وتفصيل الحكم كله والشئون، يخبر عن السماء والأرض وابتدائهما، وعن الجنة والنار وأنبائهما، وعما فطر من الجن والإنس، وخلق من كل بَدِنٍ ونفس، بأخبار ظاهرة جلية، وأُخَر باطنةٍ خفية، إلاَّ عمَّنْ خصَّه الله بمستورها، وأطلعه بمنِّه على خفيِّ أمورها، فعنده منها، ومن الخبر عنها، عجائب كثيرة لا تحصى، وعلوم جمَّة لا تستقصى، فهو ينظر إليها ويراها، بغير قلب منه يرعاها، فلا يخفى عنه ممَّا أظهر الله به منها خافية، وموهبةُ الله له في نفسه بعلمها من كل علم فكافية، فإن شاء أن ينطق فيها نطق، فأحقَّ في خَبرِه عنها فَصَدَق، وكان بها وفيها أصدق قائل، وإن سكت عنها سكت غير جاهل، فهو لعلومها قرين، وعلى مكنونها أمين، إن ذُكِّر منها بآية رعاها، أو سمعها عن الله وعاها، لا تصمّ عنها له أذن ولا يقين، ولا تعمى عنها منه فكرة ولا عين، فهو ينظر إلى ما أرته بيقين قلبه عياناً، كما قال سبحانه: ؟وَالَّذِيْنَ إِذَا ذُكِّرُوْا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمَّاً وَعُمْيَاناً؟ [الفرقان: 73].

(15/2)

ليس بمنِّ الله عليه، ولا مع إحسان الله إليه، بمستكبر عليها، ولا بمصرٍّ فيها، فيكون كمن ذكره الله فيها بإصراره، وإعراضه عنها واستكباره، فقال سبحانه: ؟وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيْمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيْمٍ، وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيئاً اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِيْنٌ؟ [الجاثية: 7 . 9]. ولا كمن ذُكِّر بآيات الله فأعرض عنها وظلم، ولم يعلم عن الله منها ما علم، كما قال تبارك وتعالى: ؟وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوْبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ وَفِيْ آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوْا إِذاً أَبَداً؟ [الكهف : 57]، بل وهبه برحمته وَمنِّه وفضله قبول ما جاءت به آيات الله من النور والهدى، فسمعها عن الله بأذن منه واعية، وعلمها من الله بنفس في علمها ساعية، ثم لم يمنعها من أهلها فيأثم، ولم يضعها في غير موضعها فيظلم، كما قال الله لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ؟وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّه مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ، وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِيْنَ سَبِيْلُ الْمُجْرِمِيْنَ؟ [الأنعام :54 . 55]، ففصل تبارك وتعالى آياته وبيَّنها لمن يستحق تفصيلها وبيانها من المؤمنين.

(16/2)

[المعرضون عن الذكر]

وقال تبارك وتعالى فيمن أعرض عن ذكره بعد قيام حجته وطغى وتعدى: ؟فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيْلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى؟ [النجم: 30].

وكما قال عيسى بن مريم، صلى الله عليه وسلم: ((لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تبذلوها لمن لا يستأهلها فتظلموها، ولا تطرحوا كرائم الدُّر بين الخنازير فيقذروها)).

وكما قيل للمتكلمبالحكمة عند من لا يعقلها، ويؤثرها فيقبلها، كالمغني عند رؤوس الموتى، وكذلك من أمات الله قلبه عن آياته، فلم يقبلها هلكةً وموتاً .

وكما ذكر عن يحيى بن زكريا صلى الله عليه: أنه سارت طائفة من الزنادقة وأبنائها إليه، يريدون تطهرته ومسألته تعنتاً وتمرداً، فقال لهم إذ علم أنهم لا يريدون بمسألته الرشد والهدى، عندما طلبوا من ذلك إليه: يا أبناء الأفاعي، ائتوا بثمرةٍ تصلح للتَّطهر والتَّزكِّي، وأبى صلى الله عليه أن يطهرهم، إذ عرف كفرهم وأَمْرَهم، فكتاب الله أولى ما أُعز وأُكرم، إلا عَمَّن آمن بالله واستسلم، فأما من أعرض عنه وتمرد عليه، فحقيق بأن لا يعلم بسرٍ من أسرار حكمة الله فيه.

(17/2)

ومن قبل مصير كتب الله إلينا، ومَنِّ الله بتنزيله علينا، ما صار من الله إلى السماوات ودار بين أكنافها، وشهد بترتيله من ملائكة الله جميع أصنافها. ومن قبل منِّه علينا به مَنَّ على الملائكة بعلمه، وما وهبهم من سماع حكمه، وفي ذلك من شهادتها وبيانه، وما نزل الله منه في فرقانه، ما يقول سبحانه: ؟لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَه بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُوْنَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيْداً؟ [النساء: 166]، فكفى بهذا الحكم لكتاب الله والحمد لله تبييناً وتوكيداً، وفيه حجة وبياناً، وعليه دلالة وبرهاناً، فأين يُتاهُ بمن غفل عنه ؟!! وهل يجد واجد أبداً خلفاً منه ؟!.

كلا لن يجده، ولو جَهِدَه جُهدَه ! نزل به من الله سبحانه روح القدس، شفاءًا من المؤمنين لكل نفس، فزادهم به إلى إيمانهم إيماناً، ووهبهم به بصيرة وإيقاناً، وجعله الله عمىً ورجساً، لمن كان عمياً نجساً، كما قال سبحانه: ؟وَإِذَا ما أُنْزِلتْ سُوْرَةٌ فِمِنْهُمْ مَنْ يَقُوْلُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَاناً، فَأَمَّا الَّذِيْنَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُوْنَ، وَأَمَّا الَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوْا وَهُمْ كَافِرونَ؟ [التوبة : 124- 125]. فجعله الله لأعدائه ولمن لم يقبله وعَمِي عنه رجساً وتباراً، كما قال سبحانه: ؟وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَلاَ يَزِيْدُ الظَّالِمِيْنَ إِلاَّ خَسَاراً؟ [الإسراء: 82].

؟كِتَابٌ عَزِيْزٌ لاَ يأَتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بيْنِ يَدِيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٌ حَمِيْدٌ؟ [فصلت: 42].

فكتاب الله إمام لكل مهتدٍ من خلق الله رشيد، أعزَّه الله عن الوهنِ والتداحض فلا يتصلان به أبداً، ومنعه من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذ حقَّه بالنور والهدى، فنوره وهداه مقيمان أبداً معه، مضيئان مشرقان لمن قَبِله عن الله وسمعه، ساطع فيه نور شمسهما، بَيِّنٌ هداه ونوره لملتمسهما، لا يميلان بمتبع لهما عن قصده، ولا يمنعان من طلب رشدهما عن رشده، بل يدلانه على المراشد المرشدة، ويقصدان به الأمور المعدة، التي لا يشقى أبداً معها، ولا يضل أبداً من اتبعها، فرحم الله امرأً نظر فيه فرأى سعادته ورشده وهداه، فجانب شقوته وغيَّهُ ورداه، قبل أن يقول في يوم القيامة مع القائلين: ؟رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّيْنَ؟ [المؤمنون: 106]. فضلال من ترك كتاب الله لا يَغبَى، إلا على من لم يهبه الله عقلاً ولُبًّا، كتابٌ نزله الله الرحيم الأعلى، برحمته من فوق السماوات العلى، فأقر في أرضه قراره، وبثَّ في عباده أنواره، فنوره ظاهر لا يخفى، وضياءه زاهر لا يَطفَا، مشرقٌ نوره بالهدى يتلألأ، كما قال سبحانه تبارك وتعالى: ؟يُرِيْدُوْنَ أَنْ يُطْفِئوا نُوْرَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمّ نُوْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُوْنَ؟ [التوبة: 32]. فأبى الله سبحانه إلا تمامه فتم، وخاصم به من هُدي لرشده من خلقه فخصم، برهانه منيرٌ مضيءٌ، وتبيانه مسفر جلي، فهو من إسفاره وتبيانه، وهداه ونوره وبرهانه، كما قال الله سبحانه: ؟يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكَمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيْناً، فَأَمَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوْا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِيْ رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ

وَيَهْدِيْهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيْماً؟ [النساء: 174 . 175].

فمن اعتصم بنور كتاب الله وبرهانه، واتبع ما فيه من أموره وتبيانه، أدخله الله كما قال سبحانه مدخلاً كريماً، وهداه به كما وعد صراطاً مستقيماً، ومن أبصر به واهتدى، لم يعمَ بعده أبداً، ومن عمي عنه فلم يرَ هداه، وتورط من غيّه ورداه، في بحورٍ ذات لجٍّ من الجهالات، وتخبط في غور لجج من الضلالات، لا يخرج مَنْ تورط فيها مِن ضيق غورها، ولا ينجو غريق بحورها، من نار تبوبها، وحيرات سهوبها، فلا صريخ له فيها ينقذه من تبٍّ، ولا هادٍ يهديه منها في سهب، فهو في لج بحورها في تبوب، ومن ضلالات غورها في سهوب، متحيِّرٍ بينَ هلكة وثبور، وضلال حيرة في ظلمة وبحور، موصول ضلاله وعماه، بما هو فيه من عاجلته ودنياه، بعمى من الآخرة لا يبيد، بل له فيها البقاء أبداً والتخليد، كما قال سبحانه: ؟وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِيْ الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ

سَبِيْلاً؟ [الإسراء:72]، فمن لم يستدل على أمر دنياه وآخرته بكتاب الله فلن يصيب عليه أبداً دليلاً، ومن لم ينج به من خبوت الحيرة والجهالة، ويحيى بروحه من موت العمى والضلالة، لم يزل لسبيل الجهل سالكاً، وبموت العمى والضلال هالكاً؛ لأن الله جعله روحاً من موت الضلالة محيياً، وضياءاً من ظلم الجهالة منيراً مصحياً، فمن أحياه الله بروحه فهو الحيّ الرضي، وما كان فيه من حق فهو المصحي المضيء، لا تلتبس به الأغاليط، ولا تشوبه الأخاليط، فهو النقي المحض، والجديد أبداً الغضّ، لا يُخلِقُ جِدَّتَه تكرار، ولا يدخل محضه الأكدار، بل نقي من ذلك كله فصفى، فأغنى بمنِّ الله وكفى، فليس معه إلى غيره حاجة ولا فاقة، ولا يغلب حجته من ملحد فيه لدد ولا مشآقَّة.

(20/2)

بل حججه الحجج الغوالب، وشهبُ نوره فالشهب الثواقب، التي لا يخبو أبداً ضوء نورها، ولا يخرب أبداً عمارة معمورها، فيخبو بخبوِّها، نور ضوِّها، ويخرب لو خربت لخرابها، نعمة الله وهَّابِها،، فيكون خرابها تغييراً لها ولنعمة الله فيها، ولما جعله من هداه مضموماً إليها.

ولن يغير الله نعمة كما قال عز وجل: ؟إِنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ مَا بِقَوْم حَتَى يُغَيِّرُوْا مَا بِأَنْفُسِهِمْ؟ [الرعد: 11]، ولن يلتبس شيء من هدى الله عليهم أبداً إلا بتلبيسهم، كما قال سبحانه: ؟ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ إِنَّ اللهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ؟[الأنفال: 53].

وفي التلبيس عليهم بتلبيسهم، وما وكلهم الله إليه في ذلك من أنفسهم، ما يقول الرحمن الرحيم: ؟وَقَالُوْا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُوْنَ، وَلَوْ جَعَلَنَاهُ ملكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُوْنَ؟ [الأنعام: 8 . 9].

وفي كتاب الله وترافده، وتشابهه في البيان وتشاهده، ما يقول سبحانه فيه، وفيما جعله من ذلك عليه: ؟اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُوْدُ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُوْدُهُمْ وَقُلُوْبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِيْ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ؟ [الزمر: 23].

(21/2)

فهل بعد هذه الآية وبيانها لِملحدٍ – أنصف نفسه – في كتاب الله من حيرة في شك أو إلحاد ؟! لو لم يسمع فيه غيرها، إذا هو فَهِمَ تفسيرها، فكيف بما ثنَّى الله في الحجة لذلك من المثاني، وكرَّر على ذلك من شواهد البرهانِ، التي فيها من الحجة والتبيين والإتقان، ما هو أحق من كل رؤية وعيان، فليسمع سامع لتقرير الله سبحانه لعباده، على الشهادة له بتنزيله لكتابه، إذ يقول سبحانه فيهم

لمن أنكر أنه تنزيل من رب العالمين: ﴿قُلْ فَأْتُوْا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوْا مَنِ استَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ [هود: 13]. فأمرهم تبارك وتعالى في ذلك بالحشد لأوليائهم، ولكل من قدروا عليه في ذلك من أعدائهم، ممن أنكر من القرآن ما أنكروا، وكفر بالله كما كفروا، فلم يستجب له في ذلك مجيب، أحمق منهم ولا لبيب، وانحسروا عن الجواب له قاصرين، وغُلبوا بمنِّ الله صاغرين، ولو وجدوا على ذلك قوة، لأجابوا فيه – مسرعين – الدعوة، ولو كان ما جاء به بشرياً، لكان بعضهم عليه قوياً، لتشابه البشر، في القول والنظر، والهيئات والصور.

ولعلم الله بعجزهم عن أن يأتوا بسورة واحدةٍ من سُوَرِه، أو بشيء مما جعله فيه من هداه ونوره، ما يقول أرحم الراحمين، لرسوله وللمؤمنين: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيْبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوْا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ﴾ [هود: 14]، فهل بعد هذا من تقرير أو برهان أو تبصير لقوم يعقلون ؟!

ومن ذلك ومثله، ما يقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوْا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: 88]، فكفى بهذا ومثله وبأقل أضعافٍ منه والحمد لله تعريفاً وتقريراً.

(22/2)

وفيما برَّأَ الله كتابه من الإختلاف والتناقض، وما خصَّه به من الحكمة والبعد من التداحض، ما يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيْهِ اخْتِلاَفاً كَثِيْراً﴾ [النساء: 82]، فهو الذي برَّأه الله من كل تناقض واختلاف وطهره تطهيراً، فلم ينظر بعين قلبٍ مبصرة، ولا تمييز نفس زكية مطهرة، مَن خفي عنه أن تنزيل الكتاب، لا يمكن أن يكون من غير رب الأرباب، لعجز كل مَنْ سِوى الله عن أن يأتي من آياته بأية، ولو عني بذلك وفيه بكل جهدٍ وعناية، لامتناع ذلك وعَوَزِه وارتفاعه عن ذلك وعزه، عن أن ينال نائلٌ ذلك أبداً منه، وأن يصاب أبداً إلا بالله وعنه.

فوالله ما ينال ذلك في ظاهره وعِليّه، وبيِّنِه الذي لا يخفى وجليّه، فكيف بما فيه من الأسرار والخفايا ؟! وما خُبِّئَ فيه لأولياء الله من الخبايا ؟!

كيف بما في حواميمه ؟! من غرائب حِكَمِه، وما في طواسينه، من عجائب مكنونه، وما في ﴿ق﴾، ﴿وطه﴾، و ﴿يس﴾، من علمٍ جمٍّ للمتعلمين، وفي كهيعص وألم والذاريات، من أسرار العلوم الخفيات، وما في المرسلات والنازعات، من جزمِ أنباءٍ جامعات، لا يحيط بعلمها المكنون، إلا كل مخصوص به مأمون، فَسِرُّ ما نزل الله سبحانه من الكتاب، فخفِيٌّ على كل مستهزئ لعَّاب.

(23/2)

وأسراره برحمة الله لأوليائه فعلانية، وأموره لهم فظاهرة بادية، فهو الظاهر الجلي المجهور، والباطن الخفي المستور، وهو بمنِّ الله المصون المبذول، والجَزْمُ الذي لا يدخل شيئاً منه هذرٌ ولا فضول، بل قرنت فيه لأهله مجامع كَلِمِه، وسهّلَت به لهم مسامع حكمه، فقرعت من قلوبهم مقارع، ووقعت من أسماعهم مواقع، لا يقعها من غيرها عندهم واقع، ولا يسمع بمثل تفسيرها أبداً منهم سامع، فمن أبى ذلك، وأنكره أن يكون كذلك، فليأت بمثل سورة كبيرة، من سوره أو صغيرة، فلن يفعل ولو أجلب بالخلق كلهم أبداً، ولن يزداد بذلك لو كان كذلك من أن يأتي بمثلها إلا بعداً، كما قال الله سبحانه: ؟فَأْتُوْا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوْا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوْا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوْا النَّارَ الَّتِيْ وَقُوْدُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ؟ [البقرة: 23 . 24].

وفي الكتاب والقرآن، وما جعل الله فيه من البيان، ما يقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ؟لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيَانَهُ؟ [القيامة: 16 . 19]. فما على الله تبارك وتعالى بيانه، فلن تضل عنه أبداً حجته ولا برهانه.

وفي تعجب مستمعة الجن به، وما سمعوا عند استماعهم له من عجبه، ما يقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ؟قُلْ أُوْحِي إِليَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً؟ [الجن:1]، فجعله تبارك وتعالى لهم عجباً معجباً.

(24/2)

وأيّ عجب أعظم، أو حكمةٍ أحكم، أو كتاب أعلى وأعزّ، وأحفظ من كل ضلالٍ وأحرز، لمن كان من أهله، أو مُنَّ عليه بتقبله، عند من يفهم أو يعقل، أو يفرق بين الأمور فيفصل، من حكمة الله في تنزيله ووحيه، وما جعل فيه من ضلال عدوه وهدى وَلِيِّه، وهو أمر من أمور الله واحد، يضل به الضال ويرشد عنه الراشد، فهو ضلالٌ لمن ضل عنه، وهدى ورشدٌ لن قبل منه، ونجاةٌ لمن اتقى ورحمة وبركة، وخزي على من تعدى ونقمة وهلكة، كما قال سبحانه: ؟ألم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِلْمُتَّقِيْنَ، الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيْمُوْنَ الْصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ؟ [البقرة: 1 – 3].

وفي بركة كتاب الله وما أمر بهمن تدبره، وما وهب لأولي الألباب من الذكر به، ما يقول سبحانه: ؟كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوْا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب؟ [ص: 29].

فنحمد الله رب الأرباب، على ما وهب من الهدى بما نزَّل من الكتاب، ونسأله أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هداها، وأن يمتعنا فيه بما وهب لنا من هداها، وأن يجعلنا له إذا قُرِئ من المستمعين بالإنصات، وأن ينفعنا بما نزل فيه من الآيات، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم.

تم المديح الكبير، بمنّ الله العالم القدير.

وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي وعلى آله الطيبين، وسلم تسليماً كثيراً.

(25/2)

مديح القرآن الصغير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل الهدى فيما نزل من كتابه مكمَّلاً، ونزل برحمته للعباد منه بياناً كريماً مفصَّلاً، فيه لمن استغنى به أغنى الغِنى، ولمن اجتنى ثمرات هداه أكرم مجتنى، لا يجتَوي عن جناه أبداً مجتوٍ، ولا يَدْوَى مع شفائه أبداً مُدْوٍ، نور أعين القلوب المبصرة، وحياة ألباب النفوس المطهرة، إلف فكر كل حكيم، وسكن نفس كل كريم، وقصص الأنباء الصادقة، ونبأ الأمثال المتحققة، ويقين شكوك حيرة أولي الألباب، وخير ما صُحب من الأصحاب، سر أسرار الحكمة، ومفتاح كل نجاةٍ ورحمة، قول أرحم الراحمين، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فأي مُنزِّل سبحانه ونازل وتنزيل، لقد جل سبحانه وتنزيله عن كل تمثيل، وطهر وتقدس – إذ وَلِيَه بنفسه، ونزل به روح قدسه – عن قذف الشياطين وأكاذيبها، وافتراء مردة الآدميين وألاعيبها، فأُحكم عن خطل الوهن والتداحض، وأُكرِم عن زلل الاختلاف والتناقض، فجُعل بآياته مترافداً، وبضياء بيناته متشاهداً، غير متكاذب الأخبار، ولا متضايق الأنوار، بل ضحيان النور، فيحان الأمور، سيحان الأنهار بالحياة المنجية، واسع الأعطان والأفنية، ساطع النور والبرهان، جامع الفصل والبيان، فأنواره بضيائه زاهرة، وأسراره لأوليائه ظاهرة، فما إن يواري عن أهله الذين أُسْتُودِعُوا علمه من سرائر سريرة، ولا يدع ما وضح من نوره في قلوبهم من مشكلةِ حيرة، بعزائم حكماته المنزلة، ودلائل آياته المفصّلة.

(26/2)

فسبحان من جاد به طولاً، وجعل سببه به موصولاً. لقد أجلَّ سبحانه به المنة على العباد، ودلهم به تبارك وتعالى على كل رشاد، فجاد لهم سبحانه بما لا تجود به نفس وإن عظم جودها، وكبر في الجود بالعطايا المحمودة محمودها، لقد جاد لهم منه بكنوز لا تبلى، وأعطاهم به عطيَّةً لا يجد لها واجدٌ وإن جهد، فبذل لهم به منه كنز الكنوز، ودلهم به على كل نجاة وفوز، فتح لهم أبواب الجنان، وهداهم به سبيل الرضوان، ونبأهم فيه عن نبأ السماوات العلى، وما مهد تحتهن من الأرضين السفلى، وما فتق من الأجواء، بين الأرض والسماء، وعن خلق الملائكة والجن والإنس فقد نبأهم،

وعن كل علم كريم مكنون فقد به أتاهم، قصَّ به عليهم أخبار القرون الماضية، وأخبرهم فيه بمن أُهلك بذنبه من الأمم العاتية، فكل عجيب من الأشياء، أو قصة كريمة من قصص الأنبياء، فقد أوصل فيه علمها إليكم، وأورد عجيب نبأِها به عليكم.

(27/2)

[وصية الإمام بالقرآن]

فعلى كتاب ربكم هداكم الله فاقتصروا، وبه فهو ذو العبرة فاعتبروا، ففيه نوافع العلم، وجوامع الكلم، التي يستدل بقليلها على كثير من ملتبس قال وقيل، ويُستشفى من علمها بتفسير أدنى ما فيها من دليل.

فسبيل قصده فاسلكوا، وبه ما بقيتم فتمسكوا، فهو ذروة الذرى، وبصر من لا يرى، وعروة الله الوثقى، وروح من أرواح الهدى، سماويٌّ أحله الله برحمته أرضه، وأحكم به في العباد فرضه، فلا يُوصَلُ إلى الخيرات أبداً إلا به، ولا تُكشف الظلمات إلا بثواقب شُهبه، مَن صحبه صحب سماوياً لا يجهل، وهادياً إلى كل خير لا يضل، ومؤنساً لقرنائه لا يُمَلُّ، وسليماً لمن صحبه لا يَغِلُّ، ونصيحاً لمن ناصحه لا يغشّ، وأنيساً لمن آنسه لا يوحش، وحبيباً لمن حآبَّهُ لا يبغض، ومقبلاً على من أقبل عليه لا يعرض، يأمر بالبر والتقوى، وينهى عن المنكر والأسواء، لا يكذب أبداً حديثاً، ولا يخذل من أوليائه مستغيثاً، إن وعد وَعْداً أنجزه، أو تعزَّز به أحدٌ أعزه، لا تَهِنُ لأوليائه معه حجة، ولا تبلى له ما بقي أبداً بهجه، ولا يخلقه كرٌّ ولا ترداد، ولا يلّم به وهنٌ ولا فساد، ولا يعي به وإن لَكِنَ لسان، ولا يشبه فرقانَه فرقان، ومن قبلُ ما صَحِبَ الروحَ الأمين، والملائكة المقربين، فكان لهم هادياً ومبيناً، وازدادوا به من الله يقيناً.

فاتخذِوه هادياً ودليلاً، واجعلوا سبيله لكم إلى الله سبيلاً، حافظوا عليه ولا ترفضوه، واتخذوه حبيباً ولا تبغضوه، فإنه لا يحب أبداً له مبغضاً، ولا يُقبل على من كان عنه معرضاً، ولا يُهدَى إليه من عاداه، ومن تعامى عنه أعماه، ولا يبصر ضياءه إلا من تأملَّه، ولا يُعْطِي هداه إلا أهله، من ضل عنه أضله، يُقلِّد جَهْلَه مَنْ جَهِلَه، إن أُدبِر عنه أَدبر، أو أُقبِل عليه بصَّر .

(28/2)

جعله الله يتلوّن في ذلك بألوان، ويتفنن فيه على أفنان، فهو الهادي المضل، وهو المدبر المقبل، وهو المسمع المصم، وهو المهين المُكرِم، وهو المعطي المانع، وهو القريب الشاسع، وهو السر

المكتوم، وهو العلانية المعلوم، فمرّةً يهدي إليه من اصطفاه، ومرّةً يُضل من أبى قبول هداه، ومرّةً يُقبل على من أقبل إليه، ومرة يدبر عن من التوى في الهدى عليه، ومرَّةً يُسمع من استمع منه، ومرّةً يُصِم من أعرض عنه، ومرّةً يهين الأعداء، ومرّةً يكرم الأولياء، يعطي من قَبِلَ عطاه، ويمنع من أبى قبول هداه، يَقرُب لمن ارتضاه، ويَشْسع عمن سخط قضاه، يَعْلَنُ لأوليائه ويَظْهَر، ويكتتم عن أعدائه ويستتِرُ، نور هدىً على نور، وفرقان بين البِرِّ والفجور، أرشدُ زاجرٍ وآمرٍ، وأعدل مقسط ومعذِّر، يوقظ بزجره النُّوَماء، ويعظ بأمره الحكماء، ويُحيي بروحه الموتى، ولا يزيد من مات عنه إلا موتاً، يعدل أبداً ولا يجور، وكل أمره فَقَدَرٌ مقدور، ظاهره ضياء وبهْجَة، وباطنه غور ولجّة، لا يُملك حَسنُ أنواره، ولا يُدرك باطنُ أغواره، فمن ظهر لظاهر مَنَاظِره، رأى أعاجيبه في موارده ومصادره، ومن بَطُنَ لمستَبْطنَه، رأى مكنون محاسنه، من غرائب علمه، وأطايب حِكَمِه، لبابُ كل لباب، وفصل كل خطاب، وحكمه من حكم رب الأرباب، اكتفى به منه في هداه لأوليائه، واصطفى به من خصّه الله سبحانه باصطفائه، فمصابيح الهدى به، تُزْهِر واهجة، وسُبُل التقوى به إلى الله تلوح ناهجة، يُحتاج إليه ولا يَحتاج، سراجه أبداً بنوره وهَّاج، يُعلِّم ولا يُعلَّم، ويُقوِّم ولا يُقوَّم، فهو المهيمن الأمين، والفاصل المبين، والكتاب الكريم، والذكر الحكيم، والرضى المقنع، والمنادي المسمع، والضياء الأضوى، والحبل الأقوى، والطود الأعلى، الذي يعلو فلا يُعلى، ولا يؤتى لسورة مِن سوره أبداً بمثل ولا نظير، ولا يوجد فيه اختلاف في خبر ولا حكم ولا تقدير، فصل كل خطاب، وأصل كل صواب.

(29/2)

فجعلنا الله وإياكم من أهله، وعصمنا وإياكم بحبله، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وأهله وسلم تسليماً.

وبعد: فإنا لمّا رأينا – فيه من جوامع الهدى واليقين، وكان الهدى واليقين به مقدَّمة مُعتَصَمِ كل دين – علمنا متيقنين، وأيقنّا مستيقنين، أن لن نصيب رشداً، ولن ننال مطلوبَ هدىً، إلا به وعن تفسيره، وبما نوّر الله القلوب به من تنويره، فنظرنا عند ذلك فيه، واستعنا بالله عليه، فوجدناه بَمنِّ الله لكل عِلْمٍ من الهدى ينبوعاً، ورأينا به كل خير في الهدى مجموعاً، فلا خير في الحياة الدنيا كخيره، ولا يُهتدى لأحكام الله بغيره، من طلب الهدى في غيره لم يجده أبداً، ومن طلبه به وجد فيه أفضل الهدى، فقصدنا قصده، والتمسنا رشده، فأيّ رشد فيه وجدنا ؟! وإلى أيّ قصدٍ منه قصدنا؟! تالله ما غابت عنه من الهدى غائبة، ولا خابت لطالب فيه خائبة، لقد كشف ستور الأغطية، وأظهر مكنون سرّ الأخفية، فأوجدَ مطلوب ملتمسها، وأبان ملتبس مقتبسها.

(30/2)

[السياسة المنحرفة تحرّف القرآن]
على ما بُلي به قديماً من تلبيس ملوك الجبابرة، وأتباعها من علماء العوّام المتحيِّرة، في توجيهها له على أهوائها وتصريفه، وتأويلها له بخطئها على تحريفه، حتى عُطِّل فيهم قضاؤه، وبُدِّلت لديهم أسماؤه، فسمّيت الإساءة فيه إحساناً، والكفر بالله إيماناً، والهدى فيه عندهم ضلالاً، وعلماء أهله به جهالاً، ونور حكمه ظُلَماً، وبصر ضيائه عمًى، بل حتى كادت أن تُجعل فَاؤُهُ أَلِفاً، وألفه للجهل بالله فاءًا، تلبيساً على الطالب المرتاد، وضلالة من العامة عن الرشاد، فنعوذ بالله من عماية العمين، والحمد لله رب العالمين.

فلو لا ما أبدى الله سبحانه من كتابه وحججه، وأذكى سبحانه من تنوير سرجه، لأبَادَ حُجَجَهُ – بتظاهرهم – المبطلون، ولأطفأ سرجَه الظلمة الذين لا يعقلون، ولكن الله سبحانه أبى له أن يطفى، وجعله سراجاً لأوليائه أبداً لا يخفى، ولذلك ما يقول سبحانه: ؟يُرِيْدُوْنَ لِيُطْفِئُوا نُوْرَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُوْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُوْنَ؟[التوبة: 32].

(31/2)

ولعلنا ولا قوة لا بالله العلي الكبير، وبالله نستعين على ما هممنا به لكتابه من التفسير، أن نضع مما علَّمَنَا الله فيه طرفاً، وأن نَصِفَ فيه من وصف الحق وصفاً، نُبين عنه بما يُحْضِرنا فيه الله من التبيين، ونعتمد فيه على ما نزّله الله به من هذا اللسان العربي المبين، فإن الله جعله مفتاح علمه، ودليل من التمسه على حكمه، فلا يُفتح أبداً إلا بمفاتيحه، ولا تُكشف ظلمه إن عرضت في فهمه إلا بمصابيحه، فعنه فاستمعوا، وبه وفيه فانتفعوا، واعلموا أنَّا لن نضع من ذلك إلا قليلاً وإن أكثرنا، وأنَّا وإن بلغنا من تفسيره كل مبلغ فلن نمسك عنه إلا وقد قصّرنا، وإن لكل تفسير منه تفسيراً، وإن قَلَّ تفسيره كثيراً، ولكل باب منه أبواب، وكل سبب فقد تَصِلُهُ الأسباب، إلا أنا سنقول في ذلك بما يُحضِرُنا الله فهمه، وما نسأل الله أن يهبنا في كتابه علمه.

ونبدأ من تفسير كتاب الله بما نرجو أن يكون الله به بدأ، من تفسير السورة التي أمر نبيَّهُ أن يسأله فيها الهدى، وسماها عوآمّ هذه الأمة فاتحة الكتاب والفرقان، وقال بعضهم: اسمها أمُّ القرآن، وذلك مما يدل من يستدل، على أنها أول ما نزل، لا كما يقول بعض جهلة العوامّ بغير ما دليل ولا برهان، أن أول ما نزل من القرآن: ؟اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِيْ خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ؟[العلق: 1. 2].

ألا ترى كيف يقول: اقرأ ما يُقْرِيك، باسم ربك الذي نزل عليك، فأخبر جلّ ثناؤه أن قد نزّل عليه قبلها، الاسم الذي أمره أن يقرأ به فيها ولها، وأن يقدمه في القراءة عليها، ثم يصير بعد القراءة به

إليها.

ألا ترى أنه لو كان ما قد قرأ، هو ما أُمرَ عليه السلام أن يقرأ، لكان إنما أُمر بفعل تامّ مفعول، وقول قد تقدم مقول. وإنما اسم ربه الذي أُمِرَ أن يقرأ به بسم الله الرحمن الرحيم، الذي قدّم به في صدر كل سورة عند أول كل تعليم.

(32/2)

والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد النبي وعلى آله، تم المديح الصغير، بمنِّ الله اللطيف الخبير.

(33/2)

الناسخ والمنسوخ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسنُ الكلمِ كلامه، وأعدل الحكم في الأمور كلها أحكامه، فحكمه أفضل الفضول، وقوله فأنور القول، وعلى قدر بُعده من الخلق في التعالي والجلال، بَعُدَ منهم فيما حكم به وقاله من المقال، فكان قوله نورا وهدى وروحا، وحكمه كله مصلحا مشروحا، فلن يدخل قوله عوج ولا أَوَد، ولن يلم به جور ولا ظلم مفند، كله رشد ونور وحياة، وهدى وبر ومصلحة ونجاة، فمن حيي بروحه في الدنيا لم يمت فيها بضلاله أبدا، ومن قارنه في دنياه قارنه في آخرته فوزا مخلدا.

(34/2)

نزل الله لرحمته به كتابا وفرقانا، وبيَّن تنزيله كل شيء تبيانا، كما قال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وآله : ؟ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ؟ [النمل: 89]، فليس بعد قوله:؟ تبيانا وهدى ورحمة وبشرى ؟ فاقةٌ ولا حاجة في شيء منهن للمؤمنين. وكل ما نزل الله سبحانه من ذلك في القرآن، وفصَّل به وفيه من التبيان، فقولٌ منه - لا إله إلا هو - لا كالأقوال، ذو بهجة ونور وحياة وبهاء وجلال، وكلام بان عنه سبحانه بصوت لا كالأصوات، صوت كريم لا يحله مصنوع اللهوات، ولم يقطعه عواجز الأفواه، ولم يخرج من بين جوانح وشفاه، ولو أنه

من تلك كان، وعنها من الله بان، لكان لما كان من مثل ذلك مثلا وكفيا، ولما كان كما جعله الله نورا وحيا، حتى يُهدى بنورهِ مِن ظلم الضلالة، ويحيى بروحه مَن مات من أهل الجهالة، حتى يُرى بعد موته – لإحيائه له – حيا، وحتى يمشي به مَن هَداه مبصرا بعد أن كان عميا، قال الله سبحانه: ؟ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكفرين ما كانوا يعملون ؟ [الأنعام: 122]، وقال سبحانه: ؟ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ؟ [الشورى: 52 – 53]. فنور كتاب الله زاهر مضيء يتلألا، وما جعل الله به من الحياة فحياة لا تبيد أبدا ولا تبلى.

(35/2)

فتبارك الله الذي نزل الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما، بل جعله كما قال سبحانه كتابا مضيا مفصلا مكتملا : ؟ كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؟ [فصلت: 42]، فكان في إحكامه لآياته وتكريمه له وإجادته فوق كل محكم ومجيد، كما قال سبحانه: ؟ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ؟ [البروج: 21 – 22]، فهو خير ما وعظ به واعظ واتعظ به موعوظ. والحفظ في هذه الآية واللوح، فهو الأمر المثبت اليقين المشروح، والمجيد فقد يكون المتقن المحكم، ويكون العزيز العظيم المكرم، كما قال الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وآله: ؟ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ؟ [الحجر: 78]، فهو كما قال الله جل ثناؤه العظيم.
وفي تكريم الله له ما يقول تبارك وتعالى: ؟ وإنه لقرآن كريم ؟ [الواقعة: 76]، وفي حكمة كتاب الله ما يقول سبحانه: ؟ ألر تلك آيات الكتاب الحكيم ؟ [يونس: 1]، وفيه ما يقول جل جلاله: ؟ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ؟ [النمل: 6].

(36/2)

فكتاب الله بمنِّ الله بيِّن يلوح، مبين باهر مشروح، عند من وهبه الله علمه، وفهَّمه آياته وحكمه، لما وصل به من نوره، وفصَّل فيه من أموره، مقدَّما ومؤَّخرا، وأمرا ومزدجرا، وناسخا ومنسوخا مبدلا، نعمة ورحمة وفضلا، تصريفا فيه كما قال سبحانه للآيات والأمثال، وزيادة به في المن والنعمة والإفضال: ؟ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا ؟

[الكهف: 54]، وقال سبحانه ضاربا ومصرفا وممثلا: ؟ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون ؟ [الزمر: 27 – 28]. وقال سبحانه: ؟ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ [البقرة: 106]، فتبديل الآيات ونسخها وإنشاؤها فهو تفهيم من الله للسامعين وتذكير، عن غير نقض ولا تبديل، سخطٍ بحكم من أحكامه في التنزيل، لأنه لا معقب – كما قال – لحكمه وفصله، ولا مبدل لشيء من كلماته وقوله.

وفي ذلك ما يقول جل جلاله، عن أن يتناقض في شيء من حكمه [وقوله]، ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ؟ [الرعد: 41]، ويقول تبارك وتعالى في أهل الكتاب:؟ والذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ؟ [الأنعام: 114 – 115]. وبما بدل من الآيات في القول لا في المعنى ولا في حكم الله المحكم [الحكيم]، وفيما نسخ بالقول المبدل، في كتاب الله المنزل، تثبيتا من الله له وتصريفا، ورحمة منه وتعريفا، ما هلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، إذ لم يَبِنْ له ما قلنا به من ذلك ولم يصح، أيام كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله، فاختلف عنده بعضه في القول والمعنى فيما اختلف منه واحد لا يختلف، وإن كان القول به قد يتسع وينصرف، فلما عسف فيه النظر، ارتد عن الاسلام وكفر.

(37/2)

فعلمُ الناسخ والمنسوخ والمبدل، عصمة لأهله فيه من الهلكة والجهل، ونسخ الآية – هداكم الله – وتبديلها، فقد يكون تصريفها بالايضاح والتبيين وتنقيلها، لتبين في عينها، بإيضاحها وتبيينها، لا نسخ بقصر ولا وهم ولا اختلاف، ولا تبديل بَدَا ولا تعقب ولا اعتساف، وكيف والله يقول سبحانه: ؟ لا مبدل لكلماته؟ [الأنعام: 34، 115، والكهف: 27] . ويقول تبارك وتعالى: ؟ لا معقب لحكمه ؟ [الرعد: 41]. ويقول: ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ؟ [النساء: 82]، فكفى بهذا فيما قلنا به هداية ودلالة وتعريفا والحمد لله وتبصيرا.

ولو كان التبديل للآية والنسخ لها هو غيرها، لكانت إذاً الآيات منسوخة مبدلة كلها، فالنسخ للآية والابدال، ليس هو الافناء للآية والابطال، لأن الآية لو أُفنيت وأُبطلت، إذا نُسخت وبُدِّلت، لما قيل: بدلت ونُسخت، ولقيل أُبطلت الآية وأُفنيت، وأُبدلت آية أخرى غيرها وأُنشئت !! ألا ترى أن الآية لا تكون مبدلة ولا منسوخة، إلا وعينها قائمة بعدُ موجودة، لم تفن وإن بُدلت ولم تبطل، وإن بطل وفني بعض صفات المبدل، أولا ترى أنك لو نسخت شيا، لم يكن نسخك له مفنيا، ولم تكن له ناسخا أبدا، إلا بأن ترده بعينه ردا، فإن جئت بضده وغيره، لم تكن ناسخا له بعينه، فالآيات كلها أمثال وأخبار،

وأمرٌ من الله جل ثناؤه وازدجار، وذلك كله من الله في أنه حق وصدق واحد غير مختلف، ولا متفاوت وإن نُسخ وبُدِّل وصُرِّف، بالنسخ له، والتبديل ونقل كله، أمر من الله ونهي، وتنزيل من الله ووحي.

(38/2)

وقد ينسخ الله إلقاء الشيطان، فيما ينزله الله من وحي وقرآن، بذكره له عنه، وتبيين ما كان فيه منه، فإذا ذكر الله ذلك كله، وعرَّفه جل ثناؤه مَنْ جهله، نفاه من وحيه فأبطله، فنقي تنزيل الله من ذلك بإحكام الله له وَتَبرًّا، من كل وهن وتناقض عند من يبصر بعينِ فكرهِ ويرى، كقوله سبحانه: ؟ وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ؟ [الحج: 52]. وتأويل ألقى في أمنيته: إنما هو إلقاء في قرآءته وتلاوته، وليس ذلك كما يقول مَن جهلَه من العامة إنه يلقيه – على اللسان، فينطق به من رسول أو نبي – شيطان، ولم يجعل الله سبحانه على رسول ولا نبي للشيطان، مثلَ ذلك التمكن والقدرة والسلطان، كيف والله تبارك وتعالى يقول: ؟ وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ؟ [النحل: 88 – 90]. وفي مثل ما قلنا ما يقول رب العالمين: ؟ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ؟ [الحجر: 42].

(39/2)

[خرافة الغرانيق]

وجهلة العامة يزعمون أن الشيطان ألقى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتمنى ويقرأ: أذكُرُ آلهةَ قريش من اللات والعزى، فقرأ في ذكرها: (وإن تلك لهي الغرانيق العلى، وإن شفاعتها عند الله لترتجى)، هذا لا يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظنةً ولا توهمةً، فضلا أن يثبت عليه صلى الله عليه وآله وسلم قوله أو ظنه، وهذا ومثله، وما كان نظيرا له، فإذا ألقي في تنزيل الله ووحيه، أو أمرِ الله ونهيه، نسخه الله فنفاه، وأبطله ونحَّاه، والله سبحانه لا يبطل ولا ينفي وحيه بنسخه وتبديله، وإن صرفه فزاد أو نقض من الفرض في تنزيله، كقوله سبحانه: ؟ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون، قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ؟ [النحل: 101 – 102]. فكل أمر الله ونهيه

هدى ورحمة، ومَنٌّ مِن الله على خلقه ونعمة، فكذلك أمر النسخ والتبديل، وما ذكر منهما جميعا في التنزيل.

(40/2)

[أقسام النسخ]

ومن الناسخ والمنسوخ فاعلموه ما كان يزاد به في الفرض تكليفا، أو ينقص به منه رحمة من الله فيه وتخفيفا، وفي ذلك كله، بمنِّ الله وفضله، من البركة والرفق، ومن الرحمة بحسن السياسة والتدبير للخلق، ما لا يستتر ولا يخفى، إلا على من جهل وجفا، كالوصية التي أُمرَ بها من ترك خيرا عند الموت للوالدين والأقربين بالمعروف، ثم زيد فيما أمر به من ذلك ما هو أكثر التوارث بحد مسمى موصوف، من سدس وثلث وربع، في مفترق من المواريث ومجتمع، كرجل ترك ابنه وأبويه، فلكل واحد من الأبوين السدس لا يزاد عليه، فإن تركهما وزوجة، كان لها الربع فريضة، وللأم ثلث ما يبقى وهو الربع من جميع المال، وكذلك ما سمى من مواريث الأقربين في مختلفات الأحوال.

وكما أمر به من صلاة ركعتين في الحضر والسفر، ثم زيد في فرضها فجعلت أربعا في الحضر، وكقوله في التخفيف، والوضع لرحمته من التكليف، : ؟ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ؟ [الأنفال: 66]. فنقص ووضع من ذلك عنهم فرضا كان موظَّفا، وأشياء كثيرة لما تسمع وترى، في أمور جمة لا يحصيها كتابنا أخرى.

فهذه وجوه من الزيادة والتخفيف في الفرض، لا يشك مَن يعقل في أن بعضها من بعض، ليس في شيء منها اختلاف ولا تناقض ولا بداء، كما زعم من كان في كتاب الله وأحكامه ملحدا، بل كلها بمنِّ الله مؤتلف متقن، وجميعها فمصدِّق بعضه لبعض محقِّق، ليس فيها - والحمد لله - لأحد مقال، يلحد به فيه إلا مفترٍ بطَّال.

(41/2)

ومن ذلك ما يذكر عن الإنجيل وفيه، من قول عيس صلى الله عليه: (إني لم آتكم بخلع التوراة ولا بخلافها، ولم أبعث إليكم لنقض شيء مما جآءت به الرسل من وظائفها، ولكني جئت لذلك كله مثبتا، ولما أماته ذلك كله مميتا، وبحق أقول لكم: إنه لن يُبيد الله وصيته حتى تبيد وتنتقض، السماوات والأرض، وقد قيل لكم في التوراة: لا تقتلوا النفس المحرمة، ومن قتلها فإن الله يدخله جهنم المحرقة، وأنا أقول لكم: إن من قال لأخيه شتما يا رغل . والأرغل هو الذي لم يختتن . فإن له في

الآخرة بشتم أخيه نار جهنم) وهذا فمن زيادة الفرض وتوكيده، ومن رحمة الله للعباد في حكمه وتسديده، وكل ذلك فهدى من الله للعباد ورشد، وكل ذلك فقد يجب به لله على عباده الشكر والحمد.
ومن ذلك قول عيسى صلى الله عليه في التنزيل، لمن بعثه الله إليه من بني إسرائيل: ؟ ولأحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم ؟ [آل عمران: 50]. وقول الله سبحانه لأهل الكتاب: ؟ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ؟ [الأعراف: 157].
ومن ذلك وبيانه، قوله سبحانه: ؟ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ؟ [النساء: 160]، فجعل تحريمه عليهم بعض ما حرم بعد الإحلال، من العقاب لهم بظلمهم وعداوتهم والنكال، فهذا ومثله، وما كان مشبها له، فمن زيادة فرضه تأكيدا وتثقيلا، وعقابا به لمن ظلم من عباده وتنكيلا، وليس في شيء من هذا كله، ولا من تخفيف الفرض فيه ولا من تثقيله، تناقض بحمد الله، في حكم من أحكام الله، ولا بداء ولا تعقيب ولا اختلاف، عند من له بحكمه وفضله اعتراف .

(42/2)

ومن لم يكن بالحكمة مقرا معترفا، لم يكن إلا عميا معتسفا، ومن كان معتسفا عميا، لم يكن في حقائق الأمور مهتديا، ومن عمى وفارق الهدى، كان للبهائم مثلا وندا، كما قال الله سبحانه: ؟ أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ؟ [الفرقان: 44]، وصدق الله لا شريك له فيما قال به فيهم تشبيها وتمثيلا، لهم من البهائم ضلالا، وأقل في الهدى دركا ومثالا، لأن الأنعام وإن ضلت عن الهدى في الدين، ولم تدرك شيئا إلا بحآسة من عين أو غير عين، فهي مدركة لما ينفعها وما يضرها من المرعى، وليس كذلك الضآلون من أهل العمى، لأن من عمي في الدين كان أخذه لما يضره فيه أكثر من أخذه لما ينفعه، وكان ما رآه منه وسمعه كما لم يره ولم يسمعه، كما قال الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وآله: ؟ وإن تدعهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ؟ [الأعراف: 198]، فكفى بهذا فيهم دليلا على ما مثَّلهم به سبحانه لقوم يفقهون.
ألا ترون أن البهيمة تجانب ضرها في معاشها وتأخذ نفعها، وتحسن لصالح مرتعها من المراتع الصالحة تتبعها، فمن ضل في الدين فهو أعظم ضلالا منها، وهو فمقصر صاغر في العلم عنها، فكتاب الله بريء كله من الوَهَن والتداحض، نقيٌّ في الألباب من كل اختلاف وتناقض، واضح عند أهله مضيء الايضاح، بأضوأ في أنفسهم من وضح الايضاح.
ونسخ ما نسخ منه وإبداله، فمن آيات الله فيه جل جلاله، لا يأبى ذلك فيه ولا يدفعه، إلا من لا يفهم الكتاب ولا يسمعه، إلا بإذنه لا بنفسه، فأما من سمعه بيقين قلبه ولبه، فهو مؤمن بأنه من آيات ربه،

لما بيَّنا من ذلك وذكرنا، وأوضحنا فيه ونوَّرنا، والحمد لله على ما فصَّل من الآيات، وبين برحمته من الرشد والهدايات.

(43/2)

فمن عرف بآيٍ وصلِ الكتاب من فصله، ومُنشاه ومقرَّه من منسوخه ومبدَلِه، سلم بإذن الله من الهلكات، واعتصم بمعرفته من الشبه والمضلات، ومن عمي وتحيَّر عن ذلك، وقع في بحور المهالك، لا ينجيه من أمواج لجج غورها، إلا مَن وهبه الله فهم آياته ونورها، وعرف بإذن الله المتصل من المنفصل، والمقرَّ المنشأ من المنسوخ والمبدل، وعلم أن المنسوخ المبدل فيه من الله رحمة لخلقه، وحكمة منه سبحانه زاد بها في مبين حقه، إذ صرَّف بالتبديل فيه لهم الأقوال، وضرب به لهم في التفصيل الأمثال، فقال سبحانه: ؟ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ؟ [إبراهيم: 25]. وقال سبحانه: ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ؟ [الرعد: 3، الروم: 21، الزمر: 42، الجاثية: 13]. فمن لم يكن له نظر ولا فكرة، لم تنفعه آية ولا تذكرة، وطبع على قلبه، ورِينَ عليه بكسبه، كما قال الله سبحانه: ؟ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ؟ [التوبة: 87]. و؟ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ؟. [المطففين: 14]. وما ذكر من الران والطبع، فهو بما كان لهم من الخطيئة في الصنع، فليس بحمد الله علينا لمبطل – في المنسوخ من كتاب الله والمبدل، عليه – من توهين، ولا لبسة في دين.

(44/2)

[المكرر في القرآن]

ومن علل الملحدين وأهل الأضاليل، وما يعارضون به في الكتاب والتنزيل، بما فيه من ترديد للكلام في تبيينه، وما ذكر الله من التبيان فيه رحمة منه لأهل دينه، وفي ذلك بمن الله وإحسانه من الرحمة والنعمة، ومن البيان المكرم عما جعل بذلك وفيه من العلم والحكمة، وما لم يزل يعرف أهل النهى والعلم أنه من أرحم الرحمة، وأحكم ما يعقلون من مفهوم أهل الحكمة، لم يزل عليه بعض حكماء الأولين، وقدماء من يُعرف بالحكمة من الخالين، وهو يردد الكلام ويكرره، ليفهم خليله عنه: أُكثِرُ عليك من التكرير في قولي، يا من هو صفوتي وخليلي، لما في الترديد والتكرير للكلام، من العون والقوة على الإفهام.

وفي ذلك ما يقول آخر من الحكماء، وفي أوائل ما خلا من القدماء، ربما احتيج إلى القول الكثير

الطويل، في الإبانة عن المعنى اليسير. مع من لا نحصيه منهم في عدده، ممن كان يعرف فضل تكرير القول وتردده، في ملتمس الحكمة، ومبتغى الرحمة.
ونحن بعدُ فنقول: مما لا تنكره العقول: إنه إذا كان القليل من البيان بيانا وإحسانا في غيره، فالإكثار منه والتكرير أوضح في إحسان المحسن وتثنيته، لا يأبى ذلك ولا ينكره، مَن صح فيه فكره ونظره.

(45/2)

وفي تبيينه البيان، وتكريره في القرآن، وما هو في ذلك من المن والاحسان، والحجة لله والبرهان، ما يقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وآله: ؟ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ؟ [الحجر: 87]. وفي ذلك ما يقول سبحانه: ؟ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد ؟ [الزمر: 23]، فكفى بما ذكرنا في هذا كله على ما في التكرير والتثنية والترديد من الهدى والرشاد. فبالله نستعين على شكره، في ترديده وتثنيته لبيانه، وما مَنَّ به علينا في ذلك من إحسانه، فلولا رحمته لخلقه، وحكمته في تبيين حقه، لما ذكر فيه ولا ردد، ولا وكد في تبيينه بما وكد، ولاكتفى فيه بقليل القول من كثيره، وبجملة التنزيل من تنويره، ولكنه أبى سبحانه لرحمته، ولما أراد من آياته وحكمته، إلا ترديده وتكريره، وإبانته بذلك وتنويره، فنوَّر منه برحمته أنورَ النور، وأوضحَ أمرَه فيه بأوضح الأمور.
فتعلموه – يا بني – وعلِّموه، وفقكم الله لرشد ما وهبكم الله ومنَّ به عليكم من أهل أو ولد ومن رأيتموه، وإن كان في النسب قاصيا بعيدا، ولله مريدا، فإن في تعليمه وعلمه، ودرك فهمه وحكمه، النجاة المنجية والفوز، وهو فكنز الله المكنوز، الذي كَنَزَه وأخفاه، لمن رضيه واصطفاه، وطواه فواراه، عمن هجره وجفاه، فلن يفهمه عن الله إلا مجد في علمه مجتهد، ولن يصيب علمه إلا طالب له مسترشد.

(46/2)

[التدبر في القرآن]
واعلموا يا بني علَّمكم الله الكتاب والحكمة، ونفى عنكم – بما يعلمكم منها – العمى والظلمة، أن أول علم الكتاب وتعليمه، العلم بقدره عند الله وعِظَمِه وإن كان من لم يعلم قدره وغرضه، أعرض عنه وهجره ورفضه، فقلَّ به هداه واتباعه، ولم ينفعه مع الجهل استماعه، بل خسر به ورجس، كما قال

من جل وتقدس: ؟ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ؟ [الإسراء: 82]. فجعله كما تسمعون للمؤمنين شفاء ورحمة، وللظالمين عمى وخسارا ونقمة، كما قال تعالى: ؟ وهو عليهم عمى ؟ [فصلت: 44].

وفيما زِيدُوا به من الرجس، مع ما فيه من الحكمة والقدس، ما يقول الله سبحانه: ؟ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا .... ؟ [التوبة:124]. قال الله سبحانه: ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم، وماتوا وهم كافرون ؟ [التوبة: 124 – 125].

ففرضُ كتاب الله يا بني وقصدُه، فهو هداية الله به ورشده، والرشد من الله والهدى، فهو الفوز بالخير والنجاة من الردى، ومن ظفر برشده وهُداه، فقد أصلح الله دينه ودنياه.

(47/2)

وليس يا بني بعد فوت الدين والدنيا، حياة لأحد من الخلق ولا بُقيا، فليكن أول ما تخطرون في الكتاب ببالكم، وترمون إليه فيه – إن شاء الله – بأوهامكم، ما ذكرت من غرضه ووصفت، ووقَّفت عليه من قصده وعرَّفت، فمن لم يعرف غرض ما يريد وقصده، لم يبذل في الطلب له جهده، ولم يعلم منه أبدا، هداية ولا رشدا، فخرج من علمه كله صفرا، ولم يصب بشيء منه ظفرا، وكان كمن سلك طريقا لا يعرف وجهته ولا قصده، فتبع فيه ضلالته وخسرته وتلدده، فلم يزدد من الهدى، إلا نقصا وبعدا، فهلك وأهلك فضل وأضل عن سواء السبيل، وخيَّم وأقام هالكا متحيرا بين هلكات الأضاليل، لا يبصر رشده فيه ولا هداه، مهلكا لمن أطاعه مطيعا لمن أرداه، لا يرى فيه للهدى علما، ولا يطأ به من رسومه رسما.

فاعرفوا يا بني هديتم لرشدكم، ما قد حددته لكم، في كتاب الله من القصد والغرض، فإن بعض ذلك يدعو إلى بعض، فمتى تعرفوا يا بني غرض كتاب الله وقصده، يبذل كل امرئ منكم في طلبه جهده، ويفز منه بالحظ الأوفر، متى يظفر منه بالفوز الأكبر، فيستأنس به من الوحشات، ويكتفي بعلمه من القماشات، التي قمشها في الدين، فَضَلَّ بها عن اليقين.

(48/2)

من رغب عنه إلى غيره، ولم يستنر منه بمنيره، فعَمِهَ في ضلالات المضلين غرقا متسكعا، إذا لم يكن بكتاب الله مكتفيا ولا عنه مستمعا، يستفيد الباطل من المبطلين ويفيده، معرضا عن حق

المحقين لا يطلبه ولا يريده، راضيا لنفسه بالهلكة من النجاة، وبالموت الموصول بنكال الآخرة من الحياة، يَعدُّ غيَّه وعماه بَعْدُ رشدا، وضلالته عن الرشد هدى، قد زاد غيَّه وعماه، ما أسعده من دنياه، لما أسلمه الله لجريه إليه، بما أمده من ماله وبنيه، فاستدرجه به من الملأ، بالعافية من نوازل البلاء، كما قال تبارك وتعالى فيهم: ؟ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون، ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ؟ [المؤمنون: 55 – 56]. فغرض كتاب الله المبين، فإنما هو البيان واليقين.

وقد تعلمون أن كل ذي صناعة، أو تجارة مما كانت أو بياعة، قد علم قبل ملابسته لها ودخوله فيها، ما قصدها وغرضها وما دعا أهلها إليها، كما قد رأيتم وأيقنتم من حال البنَّاء، الذي قد علم قبل دخوله فيما يريد أن غرض البناء، رفع السقوف والحيطان، وعقد العقود والطيقان.

وكذلك النجار فيما يريد بعمله من النجارة فقد علم قبل دخوله فيها أن غرضها عمل الكراسي والأبواب وكذلك مثلهما، في علم غرض ما يريد غيرهما، من التجارة والبياع، فهم في علم غرض التجارة والبيع وما يريدون فيه كالصُّنَّاع، قد علم كل تاجر، من بر أو فاجر، ما غرض بيعه وتجارته، علم الصانع بصناعته، وعلى قدر علم كل صانع، وتاجر منهم أو بائع، يجدُّ ويجتهد، ويسعى ويحتفد، فيقل فتوره، ويجل سروره .

(49/2)

فلا يكونن أحد منهم فيما يزول عنه ويفنى، أجد منكم فيما يدوم أبدا ويبقى، ولا يدخله خسارة ولا نقصان، ولا وضيعة ولا خيبة أبدا ولا حرمان، فإن تُقَصِّروا في ذلك تكونوا أخسر فيما تعدونه من التجارة والصناعة خسرانا منهم، بعد ما فرق الله في ذلك بينكم وبينهم، فأعوذ بالله لي ولكم من الخسران المبين، فإنه عند الله هو الخسران في الدين، وذلك فهو الخسران والضلال البعيد، الذي لا يخسره – بمنِّ الله وإحسانه – رشيد.

فمنه يا بني أرشدكم الله فتحرزوا، وعنه بالله ما بقيتم فتعززوا، فإنه هو العز الأعز، والحرز الحصين الأحرز، الذي لا يكون معه أبدا ضياع، ولا يخسر فيه تاجر ولا صنَّاع.

(50/2)

وفي ذلك، ولأولئك، ما يقول الله سبحانه: ؟ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ([فاطر: 29]، فافهموا هداكم الله عن الله هذا البيان والنور . واعرفوا قوله، جل جلاله: ؟ في بيوت

أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ [النور: 36 – 37]. واعلموا أن التجارة مشغلة وملهاة، لكل من آثر على دينه دنياه، وبَخِلَ عن الله من الدنيا بما أعطاه، واقتصر لنفسه مما ينجيها، على رجاء المغفرة وتمنِّيها، مقيما على المعاصي لا يزول عنها ولا يبرح، ظالما لنفسه لا يشفق عليها ولا ينصح، ولا يقبل من رشده وهداه، إلا ما وافق محبته وهواه، عدوًّا لمن نصحه في الله، معرضا عمن دعاه إلى الله، لم ينصفه مفترٍ عليه فيه بهَّآت، له جلبة بجهله وأصوات، يقول الباطل، ويتبع الجاهل، ليس له في نصح الناصحين حظ ولا نصيب، ولا له مع جهله من الصالحين ولي ولا حبيب، فهو كما قال صالح نبي الله ورسوله، صلوات الله عليه ورضوانه، إذ تولى عن قومه، عند نزول عذاب الله بهم ونقمه، ؟ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ؟ [الأعراف: 79]. وقوله: ؟ فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ؟ [الشعراء: 150 – 151]. فأسرفُ الاسراف وأفسدُ الفساد، كل ما صد بأهله عن الهدى والرشاد. وأرشدُ الرشاد والهدى، وأقصده إلى كل خير قصدا، تنزيل الله ووحيه، وأمره فيه ونهيه، وهو يا بني: الذكر الحكيم، وفيه ما يقول الخبير العليم: ؟ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ؟ [آل عمران: 58].

(51/2)

[ذكر الله]

وفيما خص الله به ذكره من الكرامة والتعظيم، ما يقول سبحانه: ؟ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا ؟ [الأحزاب: 42]، فكفى بهذا لذكر الله سبحانه تعظيما وتجليلا، مع ما يكثر من هذا ومثله، في كتاب الله وتنزيله، قال الله سبحانه: ؟ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ؟ [النور: 36]، والتسبيح وإن كان من ذكر الله والاجلال، فأكثر الذكر وأجمله، وأكرم القول وأفضله، ذكر الله تعالى بما نزل من الكتاب، فبه يا بني فاذكروا رب الأرباب، فإن ذلك هو الذكر المقدم عند ذوي الألباب، ذكرني الله وإياكم منه بخير، ونفعكم بكتابه المنير، فإنه أفضل المنافع، وخيرها سلكا في المسامع، لما فيه من ذكر الله وعلمه، وما دلَّ عليه من أمره وحكمه.

فمن أعظم الذكر لله والتذكير به، ذكره بما ذكر به نفسه من آياته وكتبه، فبتلاوة الكتاب فاذكروه، تُجلِّوا الكتاب وتوقروه، ولا تكتفوا بتلاوة الكتاب مِن تدبُّره، ولا ترضوا من قراءته بهذِّه ونثره، فإنه ذُكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تنثروا القرآن نثر الدقل)، فاقرأوه يا بني إذا قرأتموه بالتنزيل والترتيل وتفهموا بالإطالة له والترتل والترسل، وعندما ذكره الله سبحانه من ناشئة الليل، ففي

ذلك ما يقول تعالى لرسوله، صلى الله عليه وآله: ؟ ورتل القرآن ترتيلا، إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا، إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا، إن لك في النهار سبحا طويلا ؟ [المزمل: 4 – 7]، يقول سبحانه: إن لك في النهار مهلا وتمهيلا، فكفى بما وصفت لكم بهذا بيانا ودليلا، فالحمد لله وَلِيُّ المن به وبغيره من الاحسان، ونسأل الله العون على ما نزل في وحي كتابه من البيان.

(52/2)

واعلموا يا بني: أن في كتاب الله جل جلاله، حرام الله كله وحلاله، فليس لأحد تحليل ولا تحريم إلا به، فمن أبى ذلك فهو من الجاهلين بربه، لقول الله تبارك وتعالى فيه: ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ؟ [الأنعام: 19]، ولقوله سبحانه في تنزيله، بعد ما ذكر فيه من تحريمه وتحليله: ؟ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ؟ [المائدة: 3]، وكفى بهذا على ما قلنا به فيه علما وتبيينا.

(53/2)

[المحكم والمتشابه]

وفيما نزل الله يا بني: من وحيه، بعد الذي بيَّن فيه من أمره ونهيه، متشابه باطن خفي، لا يتبين منه أبدا شي، جعله الله متشابها كذلك، ليس يعلمه أحد غير الله لذلك، وكيف وإن اجتهد أبدا، وأهدى ما في ذلك من الهدى، فهو العلم، بأنه لا يعلم، وهو للقول فيه، عند النظر إليه، ما ذكر الله سبحانه أنه قال: ؟ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يتذكر إلا أولوا الألباب ؟ [آل عمران: 7]، فليس يعلم منه متشابه الآيات، إلا من علمه إياه رب السماوات، ومن كتاب، رب الأرباب، ما يُظن ويُتوهم، متشابها وهو محكم، إلا أنه قد دخل فيه بعض الوهم، على بعض من سمعه من أهل العلم، فإذا ثبت فيه، ودل عليه ، أسفر له وأنار، ووضح له وبان.

ومن ذلك ما ذكر أبو صالح عن الكلبي عن عمر بن الخطاب، أنه قال لابن عباس يوما من الأيام: (يا أبا العباس ضربتني البارحة أمواج القرآن في آيتين قرأتهما، لم أعرف ما تأويلهما ؟

فقال ابن عباس: ما هما يا أمير المؤمنين ؟

قال:قوله ؟ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ؟ [الأنبياء: 87]. فقلت: سبحان الله أيظن نبي من أنبياء الله أن الله لا يقدر عليه، أو أنه يفوته إن أراده، ما ظن هذا مؤمن ؟!

وقوله: ؟ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا؟ [يوسف: 110]. فقلت:

سبحان الله كيف هذا أيسَ الرسل من نصر الله، أو تظن أن قد كذب وعد الله ؟!! إن لهاتين الآيتين خبرا من التأويل ما فهمته ؟!!

(54/2)

فقال ابن عباس: أما ظن يونس فإنه ظن لن تبلغ به خطيئته أن يُقَدِّر الله بها عليه العذاب، ولم يشك أن الله إن أراده قدر عليه، فهذا قوله: ؟ فظن أن لن نقدر عليه ؟. وأما قوله: ؟ حتى إذا استيأس الرسل ؟. فهو استيئاسهم من إيمان قومهم، وظنهم: فهو ظنهم لمن أعطاهم الرضى في العلانية، أنه قد كذَّبهم في السر، وذلك لطول البلاء عليهم، ولم تستيئس من نصر الله، ولم يظنوا أن الله قد أخلفهم ما وعدهم.

فقال عمر فرجت عني فرَّج الله عنك.

قال ابن عباس: فإن رجلا لقيني آنفا فقرأ علي قول الله: ؟ ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن ؟ [البقرة:222]. هو يقول حتى يطهرن بالماء، ؟ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ؟ [البقرة: 222]، قبلا ودبرا، فقلت: كفى مَن ذَهَبَ إلى هذا التأويل كفرا!! إنما عنى الله تبارك وتعالى حتى يطهرن من الدم، فإذا تطهرّن منه بالماء ؟ فأتوهن من حيث أمركم الله ؟ يعني طاهرات غير حُيَّض. فقال عمر: إن قريشا لتغبط بك يا بن عباس، بل جميع العرب، بل جميع أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال خريم بن فاتك الأسدي:

ما كان يعلم هذا العلم من أحد .... بعد النبي سوى الحبر ابن عباس

من ذا يفرج عنكم كل معظلة .... إن صار رسما مقيما بين أرماس

مستنبط العلم غضا من معادنه .... هذا اليقين وما بالحق من باس

وصدق لعمري عمر بن الخطاب إن الأمة لتغبط بأن يكون فيها ومنها، من يجادل أهل الإلحاد في تنزيل الله والكفر بآيات الله سبحانه عنها.

(55/2)

ولفي مجادلة من ألحد وأبطل، أو جَهلَ بيان الكتاب فعطَّل، ما يقول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ؟ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ؟ [النحل: 125]. وفي مثل ذلك ما يقول

رب العالمين، بعد رسوله عليه السلام للمؤمنين: ؟ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم ؟ [العنكبوت: 46]، ذلك لما جعل الله في المجادلة لمن ظلم بالحجة من الدفاع عنهم.

(56/2)

ولفي ذلك والحمد لله قديما، وإذا كانت الحجة في الله صراطا مستقيما، ما يقول سبحانه: ؟ ألم تر إلى الذي حآج إبراهيم في ربه، أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، . فـ . قال . الملك . أنا أحيي وأميت ؟ [البقرة: 258]. يريد الملك بقوله: أميت وأحيي، أني أقتل من أردت وأحيي وأخلي، فلما – حآج إبراهيم الملك بحجته في ربه، ودعاه بدليل الحياة والموت إلا ما دعاه الله إليه من المعرفة به، فلم يقر الملك بما عرف، وأنكر وكابر وعسف – احتج إبراهيم صلى الله عليه، من الحجة بما لا دعوى له فيه، من إتيان الله بالشمس من مشرقها، فقطعه إبراهيم بحجة الله ووحيها، ثم زاد الحجة عليه تأكيدا، وقولَ إبراهيم بحجة الله تثبيتا وتسديدا، قولُه: ؟ فأت بها من المغرب ؟ [البقرة: 258]. فلما حآجه من الحجة بما يغلب كل مغالب، كما قال سبحانه:؟ فبهت الذي كفر ؟ [البقرة: 258]. وقطعت عليه بحجة الله حجته فيما أنكر، ولم يجد عندها مقالا، وكذلك يفعل الله بمن كان عن الهدى ضآلا، كما قال في أمثاله رب العالمين: ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين ؟ [البقرة: 258]. ولقد كان في قول إبراهيم . صلى الله عليه وآله: ؟ ربي الذي يحيي ويميت ؟. وتيقن الملك أنه سيموت . ما أغنى كثيرا وكفى، لو كان الملك بما يعرف مقرا معترفا، لأن الحياة والموت فعلان موجودان، وصنعان لا شك في أنهما من الصانع معدودان، لا ينكر ما قلنا به فيهما من ذلك سامع، ولا يدعي صنعهما . إلا بمكابرة من مدعيهما . صانع، وإذا صحَّا وثبتا صنعًا وفعلا، وكان الملك وغيره عليهما مجبورا محتبلا، ليس لأحد فيهما صنع، ولا يمتنع منهما ممتنع، فلا بد باضطرار من صانعهما وفاعلهما، ومتولي صنعهما واحتبالهما، إذا ثبتا صنعا وفعلا، وكان كل واحد مهما بدعا محتبلا . ولكفى بحجة – إبراهيم صلى الله عليه وسلم بالموت، إذ لا يقدر أحد منه على فوت – حجةً وبرهانا ودليلا، وللمعرفة بالله منهجا وسبيلا، فكيف بما

(57/2)

مع ذلك من دلائل الله وشواهده ؟! وبرهان معرفة الله الذي لا يقدر أحد على معدوده ؟!!

وفي محآجة إبراهيم عليه السلام لقومه، ما سمعتموه في كتاب الله عز وجل من قوله، عندما رآه من

ملكوت السموات والأرض، وما دلَّه الله به من بعض ذلك على بعض، إذ يقول سبحانه: ؟ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ؟ [الأنعام: 75 – 76]. فقال مقيما لقومه وموقِّفا، ومحتجا عليهم من الله ومعرِّفا، لا معتقدا لآلهتهم ولا ممتريا، ولا شآكا فيها ولا عمِيًّا، قال الله تبارك وتعالى: ؟ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ؟ [الأنعام: 76].وكذلك قوله عليه السلام: ؟ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضآلين ؟ [الأنعام: 77]. يقول صلى الله عليه لهم: لئن لم يهدني ربي ويرفعني عنكم، لأكونن ضآلا مثلكم ومنكم، فلما وقَّفهم على الحجة مفاوهة، وأثبتها لهم فوقَّفهم مواجهة: ؟ قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ؟ [الأنعام: 78 – 79].

(58/2)

وفيه وفيهم ما يقول الله سبحانه: ؟ وحآجه قومه قال أتحآجونني في الله وقد هدانِ ؟ [الأنعام: 80]. يقول صلى الله عليه وسلم: وقد أراني من آياته، ودلائل معرفته، ما أراني من أرضه وسمائه، وفطرته لهما وإنشائه، فنجاني من هلكتكم بجهله، والاشراك به، وخصَّني مع النجاة من هداه لي [باليقين]، ولو لا هداه لي لعبدتُّ كما عبدتم الآفلين، وكيف يكون[إلها] من أفل، وزال عن معهود حاله وتبدل ؟!! وفي تبدل الذات والصفات والأحوال، ما لا يدفع عن المتبدل من الافناء والابطال، وما بطل وفني، فخلاف ما دام وبقي، وما اختلف وتفاوت من الأشياء، فليس يحكم له . إلا من ظلم . بالاستواء! فكيف سويتم في معنى، بين ما يدوم وبين ما يفنى ؟! إلا أن تساووا في مقال واحد بين كاذب وصادق، وكما سويتم فيما تحبون من العبادة وغيرها بين مخلوق وخالق.

(59/2)

وفي ذلك من جور الحكم في العقل والمقال، ما لا يجهل جورَه أجهلُ الجهال، بل فيه عن الله أحول المحال، وما لا يمكن اجتماعه في حال، فلما قطعهم صلى الله عليه وسلم بحجته في مقالته، خسئوا صاغرين عن منازعته ومجادلته، فلما صموا عن إجابته بعد الهدى، هاجر إلى الله سبحانه عنهم مجاهدا، وقال: ؟ إني ذاهب إلى ربي سيهدينِ ؟ [الصافات: 99]. يريد: سيهدين يزيدني بمهاجرتي إليه من هداه فيقويني، فَهداَه في هجرته سبيله، وجعله بهداه له خليله، فلم يزل صلى الله عليه وسلم مهتديا، حتى قبضه الله على هداه ورشده رضيا، فأجزل له في الهدى والهجرة الثواب والرحمة، وجعل

في ذريته من بعده النبوة والبيان والحكمة، وأعطاه برحمته وفضله اللهُ ربُ العالمين، ما سأله أن يجعله له من لسان صدق في الآخرين، فبقي في الغابرين بالصالحات ذِكرُه، وآتاه بذلك في الدنيا أجره، كما قال أرحم الراحمين: ؟ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ؟ [العنكبوت: 27]. فنسأل الله الذي أجزل له في الدنيا والآخرة من الخير أن يجعلنا، له برحمته من صالح الأبناء، وأن يهبنا بطاعته له وعبادته، شكرَ ما أنعم به علينا من ولادته.

تم الكتاب بحمد الله العزيز الوهاب فله الحمد كثيرا، وله الشكر بكرة وأصيلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(60/2)

تثبيت الإمامة

[مبدأ التفضيل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاطر السموات والأرض، مفضل بعض مفطور خلقه على بعض، بلوى منه تعالى للمُفَضَّلِيْن بشكره، واختبارا للمفضولين بما أراد في ذلك من أمره، ليزيد الشاكرين في الآخرة بشكرهم من تفضيله، وليذيق المفضولين لسخطٍ إن كان منهم في ذلك من تنكيله، ابتداء في ذلك للفاضلين بفضله، وفعلا فعله بالمفضولين عن عدله، يقول الله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسمآؤه، ؟ لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ؟ [الانبياء: 23]. وقال :؟وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ؟ [القصص: 68]. ويقول تعالى :؟ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ؟ [الأنعام: 165]. ويقول تبارك وتعالى :؟ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ؟ [الإسراء: 21]. ويقول سبحانه :؟ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ؟ [الزخرف: 32]. وقال تعالى :؟ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ؟ [الإسراء: 70]. وقال تبارك وتعالى :؟ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ؟ [الجاثية: 13]. ويقول سبحانه :؟ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ؟ [النحل: 12]. والحمد لله رب العالمين، الذي جعلنا من أبناء المرسلين، الذين اختصهم بصفوة تفضيل المفضلين، ونستعين مبتدئ الخيرات، وولي كل حسنة من الحسنات،

على واجب شكره، وكريم أثره، فيما أبتدأ به من فضله، وخص به من ولادة رسله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم .

(61/2)

[وجوب الإمامة ودليلها]

سألت يرحمك الله عن الإمامة ووجوبها، وما الدليل إن كانت واجبة على ملتمس مطلوبها، فأما وجوب الإمامة ودليله، فوحي كتاب الله عز وجل وتنزيله، فاسمع لسنته في الذين خلوا من قبلك تفهم، وتَفَهَّم متَقَدِّم أوليها عن الله تعلم، فإنه يقول عز وجل، ونحمده فيما نزل، من محكم كتابه :؟ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ؟ [الأحزاب: 62]. ويقول تعالى :؟ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ؟ [البقرة: 183]. وهذا يرحمك الله لكي تعتبر بمنزَلِ بيانه، في أشباه حكمه في الأمم واستنانه.

ثم أخبر تعالى عما جعل من الإمامة في بني إسرآئيل، قبل أن ينقل ما نقل منها إلى ولد إسماعيل، فقال :؟ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرآئيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ؟ [السجدة: 23]. وقال سبحانه . ما أنور بيانه ! . فيما نزل من قصص خليله إبراهيم، وما خصه الله به في الإمامة من التقديم، وما كان من دعاء إبراهيم وطلبته ؛ لإبقائها من بعده في ذريته :؟ إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ؟ [البقرة: 124]، خبرا منه سبحانه أن عهده فيها إنما هو منهم للمتقين، فلم يزل ذلك مصرفا بينهم، لم يخرجه الله تعالى منهم، بعد وضعه له فيهم، وإنعامه به عليهم، حتى كان آخر مصيره في الرسالة ما صار إلى إمام الهدى محمد صلوات الله عليه، فكان خاتم النبيين، ومفتاح الأئمة المهتدين .

(62/2)

ثم قال تعالى بعد هذا كله، دلالة على أن محمدا وارث خليله:؟ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ؟ [آل عمران: 68]. فكان محمد الوارث من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للنبوة، وإليه عليه السلام صار ما كان من إبراهيم وإسماعيل من الدعوة، إذ يقولان صلوات الله عليهما :؟ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ؟ [البقرة: 29].

وأبينُ دليل، وأنور تنزيل، في وجوب الإمامة، وما يجب منها على الأمة، قول الله تبارك وتعالى :؟ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ؟ [النساء: 59]. فأمر تبارك وتعالى بطاعة أولي الأمر مع ما أمر به من طاعته وطاعة الرسول، ولا يأمر تبارك وتعالى إلا بمعلوم غير مجهول، مع ما لا أعلم فيه بين الرواة فُرْقَة، وما لا أحسب إلا قد رأيتها عليه متفقه، من حديث الرسول عليه السلام في أن (من مات لا إمام له مات ميتة جاهلية)، فكل هذا دليل على وجوب الإمامة وعقدها، وما في ذلك للأمة بعد رسولها صلوات الله عليه من رشدها، مع ما يجمع عليه جميع الأمم على اختلاف مللها وعقولها، وما هي عليه من الفُرقة البعيدة في أجناسها وأصولها، من تقديمها لمن يؤمها منها، ويذب مخوفَ ذِمار الأعداء عنها، ويحوط حرمها عليها، وينفذ حكم المصلحة فيها، ويكف سرف قويها عن ضعيفها، ويجري حكم قسط التدبير فيها في وضيعها وشريفها، استصلاحا منها بذلك للدنيا، والتماسا به لما فيه لها من البقيا.

فكيف يرحمك الله بطلاب، رضى رب الأرباب ؟! وحلول دار الخلد من الجنة، وملتمس حكم الكتاب والسنة، أيصلح أولئك أن يكونوا فوضى بغير إمام ؟! هيهات أبى الله ذلك لمنزَل الأحكام !

(63/2)

[ضرورة الإمامة]

فَمَنْ – إن كانوا فوضى – للحدود ؟! وما عهد الله إلى الأئمة فيها من العهود، مَنْ لِحَدِّ الفاسق والفاسقة ؟ ولحكم الله في السارق والسارقة ؟ مَنْ لقاذف المحصنات ؟ ومنع إبراز المؤمنات ؟ مَنْ لحكم التفصيل ؟ وإصابة خفي التأويل ؟ مَنْ يهدي أهل الجهل والضلال ؟ والاحتجاج بحجج الله على أهل الابطال ؟ أما سمعت قول الله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه:؟ سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون، الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ؟ [النور : 1 – 3]. مع جميع حكم الله فيها وفي غيرها، وما أمر به في أحكامه من تنفيذها، فهذا في وجوب الإمامة هكذا، وكفى من أنصف ولم يَحِف بهذا، مع حجج كثيرة تركت تكلفها، وألقيت إليك منها جملها، كراهية للاكثار، واكتفآء بالاقتصار، مع أُخرَ لابد من ذكر معترض عروضها، وتكلف تبيين ما استتر من خفي غموضها، فافهم نشر مذكورها، واسمع لذكر منشورها، بإذن واعية من واعٍ، وارعها رعاية انتفاع .

اعلم أن هذا العالم وما فيه معا، لا يخلو من أن يكون محدَثا مبتدَعا، من أحكم الحاكمين، وأن يكون

لواحد لا لاثنين، فإذا ثبت أن ما وجد من العَالَم وتدبيره، وما بني عليه من حكم تهيِيئه وتقديره، لواحد حي، حكيم عَلِيٍّ، ليس له ضد يناويه، ولا ند يماثله فيكافيه، ولا به آفة تضره، ولا ضرورة تضطره، إلى ما أحدث وصنع من بدائعه، (وابتدع في الأشياء من صنائعه، فكان كل ما أحدث من بديعه)، واصطنع جل ثناؤه من صنيعه، عن أمرين، ولشيئين:
أحدهما: الاختيار فيما ابتدأ، وحكمة ماضي إرادته فيما أنشأ.

(64/2)

والأمر الثاني: فإحكام تدبير منشاه، وتبليغه غاية مداه، بإحداث ما لايكون بلوغ المدى إلا به، وما يريد الحكيم من إبقاء المنشأ بأسبابه، من موآد الأغذية، وحوط المنشأ من كل مفنية، ثم يكون ذلك في لطف مدخله، وحوط فرعه من الفساد وأصله، على قدر حكمة تدبير المدبِّر، واقتدار قدرة العليم المقدِّر، فلا يمكن في حكمة التدبير، ولا تدبير ذي العلم القدير، أن يريد كون بقائه، إلا مع خلقه لمقيم إبقائه، من مآدة الغذاء، وتركيب آلة الإغتذاء، من الأفواه والأوعية، وبسط الأيدي المغتذية، لاستحالة بقاء المبقى، مع عدم مابه يبقى، واستنكار دوام دائم، أوتوهم قوام قائم، جعلهما الله لا يدومان إلا بمديمهما، ولايقومان طرفة عين إلا بمقيمهما، ثم يقطع المديمَ المقيمَ لهما عنهما، وهو مريد مع قطعه لدوامهما ؛ لما في ذلك من الجهل الذي تعالى الله عنه، وخطأ التدبير الذي بَعُدَ سبحانه منه .

(65/2)

[تدبير الخلق]

كنحو ما خلق من حيوان الأشياء، الذي خلقه لا يبقى إلا بمآدة الغذاء، وجعل غذآءه لا يكون إلا ببرد الأرض والماء، وبما فطر سبحانه من حرارة النار والهواء، وبما جعل من فصول السنة الأربعة، وجعل السنة لا تكون إلا بشهورها المجتمعة، وجعل الشهور لا تتم إلا بأيامها ولياليها، وما قدرها الله عليه من تواليها، وجعل الأيام لا تتم إلا بساعات أزمانها، والأزمان لا تتم إلا بحركة الأفلاك ودورانها، ثم فصل تعالى الليل من النهار، وفرق برحمته بين الظُّلَم والأنوار، لتمام ما أراد من إبقاء المدبَّر، ولينتشر في النهار كل منتشَر، في ابتغاء حاجاته، وليسكن في الليل من فتراته، ولم يجعل الليل والنهار سرمدا، ولم يُعَرِّ منهما من خلقه إلا مخلدا، فقال سبحانه :؟قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله

عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ [القصص: 70 – 71]. فجعل الليل والنهار رحمة منه، ثم قسم تبارك وتعالى السَّنَةَ، فجعلها أربعةً أزمانا، وفنَّنَها للبقاء أفنانا، من شتآء وصيف، وربيع وخريف، ثم قدَّر في كل فن، ومع كل زمن، من الأغذية ضربا، يابسا فيه ورطبا، لا يصلح في غيره، ولا يتم إلا بتدبيره، وجعل هذه الأزمنة عمودا لتناسل الحيوان، وعلة لبقائهم إلى ما قدر لهم من الأزمان.

(66/2)

[أصناف الخلق]

ثم جعل الحيوان ضروبا، وجعل أغذيته شعوبا، فمنهم الناس المغتذون بطيب الأغذية، ومنهم الطير والدوآب وفنون الأشياء الحية، المكتفية بأثفال الغذاء، وتيسير مؤونة الاغتذاء، فبنى الناس على خلاف بنية المسخَّر لهم من الحيوان، وبانوا منهم بفضيلة الفكر ونطق البيان، فدبروا أغذية معائشهم بالفضيلة، واستعانوا في ذلك بتصرف الحيلة، وكُفِي ذلك غيرهم من الحيوان، ولولا ذلك لما بقوا ساعة من زمان.

فكل مذكور من أجناس البهائم، المسخرة لمنافع بني آدم، فمبني على النقص مما ذكرنا من فضيلتهم، عاجز عما جعل الله لهم من متصرف حيلتهم.

وكذلك كان بنوا آدم في بَدِيِّ مولدهم، في عجزهم عن نيل منافع غذآئهم ورشدهم، وجهلهم لِمُصلِحِهم في الأمور من مفسدهم، فلو كان الناس – إذ ابتدئوا، عندما فُطِرُوا وأُنشِئُوا، لم يجعل لهم ولا فيهم، من يغذوهم ويقوم عليهم – لهلكوا ولم يبقوا وقت يوم واحد، لما يحتاجون إليه في النفاس وعند المولد، من تلفيف الولدان بخرقها، وتسوية أعضاء خلقها، ولكن الله تبارك وتعالى جعل لهم في الابتداء، آباء قاموا بكفاية المصلحة والغذاء، حَدُّهم في العلم بمصلحتهم غيرُ حدِّهم، فَغَذَّوْهم برأفة الأبوَّة وبُصْرِ التربية في مولدهم، إلى بلوغ قوة الرجال، والاستغناء بنهاية الكمال.

(67/2)

ولا بد لهذه الآباء، التي قامت على الأبناء، من أن تكون في المبتدأ، وعند أول المنشأ، من الجهالة في مثل حال أبنائها، محتاجة إلى تربية آبائها، ولا بد كيف ما ارتفع الكلام في هذا المعنى من أبناء يقوم عليها آباؤها، وآباء كانوا كذلك في الأصل إذ ابتُدِئَ إنشاؤها، في مثل حد أبنائها، من جهلها وقلة اكتفائها، حتى يعود ذلك إلى أب واحد، منه كان ابتداء النسل والتوالد، ولا بد للأب الأول من

أن يكون أدبه وتعليمه، على خلاف أدب من يكون بعده، إذ لا أب له ولا يكون أدبه وتعليمه إلا من الله، أو من بعض من يؤدبه ويعلمه من خلق الله، فإن كان من مخلوق أخذ أدبه، فلا يخلو ذلك من أن يكون الله أوغيره أَدَّبه، وكيف ما ارتفع الكلام في هذا المعنى، فلا بد من أن يعود إلى أن خلق ابتداء أدبُه من قبل الله الأول البَدِيّ، ولا بد للأب الأول، الذي هو أصل التناسل، من أن يكون مؤدِّبا معلِّما للجوامع، من معرفة جهات المضآر والمنافع، مخلوقا على الفهم، وقبول أدب المعلم، ليتم بذلك من فهمه، نفع تعليم معلمه، فيقوم به على نفسه، وعلى مَن معه مِن وُلْده، من الأخذ لهم بأدبه، وعقاب مذنبهم بذنبه، وثواب محسنهم بإحسانه، وتوقيف كلٍّ على ضره ونفعه، كي يتم بذلك ما أريد لهم من البقاء، وعنهم من تأخير مدة الفناء .

(68/2)

[طبقات حياة الخلق]

وكذلك هم في الخلق، مُجْرَوْنَ في طبق بعد طبق، مصرفون مدة بقائهم، بين طبقات ثلاث إلى حين فنائهم، لا يخلون منها، ولا مُنصرَف لهم عنها.

أما الأولى منها: فطبقة التربية.

وأما الثانية: فطبقة اعتمال الأغذية.

والثالثة: فاكتساب الحسنة والسيئة.

فهم في أولى طبقاتهم مكتفون بالآباء، وفي الثانية مستغنون عنهم بالاكتفاء، مؤدبون على المعرفة بحد الأغذية والبذور، والفرق بين الضآر والنافع فيها من الأمور. والثالثة فمحتاجون ما كانوا فيها، وعند أول مصيرهم إليها، إلى مرشد ودليل، ذي عقاب وتنكيل ؛ ليكون ما أريد بهم من البقاء، وخلقوا له من عمارة الدنيا، وذلك عند بلوغ قوة الاحتلام، وحركة شهوة ملامسة الإلمام، لما بني عليه الناس من شهوة النساء، لما في ذلك من زيادة النسل والنماء.

وكل ذلك من اعتمال الأغذية، وما خُصَّ به الإنسان من الشهوة في البنية، فلا بد فيه، وفي الدلالة عليه، من مرشد معرِّف، ومُحدِّدٍ مُوَقِّف ؛ لأنه لو ترك الناس في الغذاء، وما رُكِّبوا عليه من شهوة النساء، بغير حد معروف، ولا فرضِ عزمٍ موصوف، لم يكن أحد بمعتمله، وما ملَّكه الله من أهله، أولى عند المكابرة من أحد، إذًا ولما فُرِّق بين سيِّد وعبد، ولو كان ذلك كذلك، لَصِيرَ به إلى الفناء والمهالك، ولما أنسل ولا اغتذى ضعيف مع قوي، ولا سلم رشيد من الخلق مع غوي، ولبطلت الأشياء، وفسدت الدنيا، ولكنه جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه، جعل للناس في البَدِيِّ والدا، وحد لهم به في الأشياء حدا، أَدَّبهم جميعا عليه، ونهاهم عن المخالفة له فيه .

(69/2)

[حكمة التشريع]

ثم جعل للمتأدبين فيه بأدبه ثوابا، وعلى المخالفين إلى ما نهاهم عنه عقابا، فكان كل إنسان أولى بمعتمله، وأحق بما ملكه الله من أهله، ولو تُرِكوا فيه بغير إبانة دليل، أو كانوا خُلُّوا في خلافٍ له من التنكيل، لوثب بعضهم فيه على بعض، ولفني أكثر من في الأرض، لما يقع في ذلك من الحروب، واغتصاب النساء والنهوب، ولكان في ذلك لو كان من الفساد، في معرفة الرحم والأولاد، ما يقطع تعاطف الرحمة، وما جعله الله سببا للنسل والتربية، إذ لا يعرف والدٌ ولدا، ولكنه وضع للنكاح في ذلك حدا، بَيَّنَ كنهه ومداه، ونهى كل امرؤ أن يتعداه ؛ ليعرف كل إنسان ولده فيغذُوَه، وتعطِفه رأفة الأبوة عليه فلا يجفوَه ولايعْدوَه، وكذلك ليتم ما أريد بالناس من التناسل والبقاء، إلى غاية ما قدر لهم ودُبِّر من الإنتهاء.

وإذا كان - الناس على ما ذكرنا مأمورين في الغذاء، ومحدودة لهم وعليهم الحدود في مناكحة النساء - لم يكن لهم أن يتناولوا من ذلك شيا، رفيعا كان منه أو دَنِيًّا، إلا على ما جعل الله لهم، وقدَّر بحكمه بينهم. وإذا كان ذلك كذلك، وحكم الله فيه بما حكم به من ذلك، لم ينل طالب منهم مطلوبه، ولم يدرك محب فيه محبوبه، إلا بشديد معاناة، وعسير مقاساة، من العلاج والاعتمال، وحركة كسب الأموال، التي بها يوصل إلى مطلوب الغذاء، ويوجد السبيل إلى محبوب مناكحة النساء. ثم ليس لهم تناول معتمل، ولا حركة في عمل، حَرُمَ تناوله عليهم، أو حكم بخلافه فيهم .

(70/2)

ثم إذا صاروا إلى النكاح على ما أمروا به إلى الحد، لم يلبثوا أن يصيروا إلى عيال وولد، يحتاجون لهم إلى أقوات التغذية، وأنواع ضروب متاع التربية، مع حاجتهم للأولاد والأنفس، إلى ما يحصنهم من الحر والبرد من الملبس، وما يستر عورات الرجال والنسوان، وما يظلهم من سواتر الأكنان، وما يحتاجون إليه من اتخاذ الأبنية، وما لابد لهم منه من أمتعة الأفنية، وكل ذلك من حوائج الإنس، يدخل فيه منهم أشد التنافس، لما يعم جميعهم من الحاجة إليه، ولظاهر ما لهم من المنافع فيه، فلا بد في كله، وجميع ضروب معتمله، من أن يقاموا فيه على حد معلوم، وأن يلزمهم فيه فرضُ حكمٍ معزوم، وإلا اقتتلوا عليه وتواثبوا، وتناهبوا فيه واغتصبوا، وفنوا فلم يبقوا، وصاروا إلى خلاف ما له خلقوا .

ولماَّ كانوا إلى ما ذكرنا مضطرين، وفي أصل الفطرة عليه مفطورين، تفرقوا في أنواع الصناعات،

واحتالوا للمكسب بضروب البياعات، فلم يكن لهم عند ذلك بد في البَديِّ الأول من مُعلِّم يقوم عليهم، ويبين لهم أقدار مواقع مصالح ذلك فيهم ؛ ليتعاملوا بها وعليها، ويصيروا إلى مصالحهم فيها، وإلا فسدوا وفنوا، وهلكوا ولم يبقوا .

(71/2)

[صفات المرشد ووجوب الثواب والعقاب]

ثم لابد لمعلمهم، ولولي أدب تعليمهم، من أن يكون عالما بجهات منافع الأشياء، مأمونا عليهم في الدين والدنيا، لأنه إذا كان على غير ذلك كان مثلهم، يسيء ويجهل في الأمور جهلهم، ثم لا يكون مع هذا يجب عليهم اتباعه، وقبول ما تقدم من أمره واستماعه، مع ما يدعوهم إليه من الكف عن كثير مما يحبون، ويأمرهم به من الدخول في كثير مما يكرهون، إلا بأن يكون لهم في خلافه مُخَوِّفا بعقاب، وفي الانتهاء إلى معهود أمره مُوجِبا لثواب .

وذلك أنه لا يكون أن ينقادوا له، حتى يؤدبهم ويقبلوا قوله، إلا بافتراق درجة المطيع والعاصي، وتباين مكان المحسن عنده والمسيىء، وذلك فما لا يدخله تَفَرُّق، ولا يفرق بينه مُفرِّق، إلا من حيث قلنا، وعلى ما مثلنا .

(72/2)

[معجزات الأنبياء]

ولا يكون مخوفا للعاصي بعقابه، ولا داعيا للمطيعين إلى ثوابه، إلا بدلائلِ أعلامٍ بينة، تُفرِّق بين المدعي منزلته وبينه، ولا يجوز أن تكون أعلامه مما يُقدَر على مثلها، فلا يؤمن على فعلها وممكن نيلها، مُدَّعِي منزلته ظلما وعدوانا، وفسقا وطغيانا. ولا تكون الدلالة عليها، وشاهد علمِ الإبانة فيها، إلا من الله لا يُحدِثُ غير الله خلقها، ولا يحسن سوى من هي عليه دلالة تَخَلُّقَها، وكانت من الله كغيرها، من دلائله في ضوء منيرها، وإسفار نور مبينها، وإبانتها من الأئمة بعينها، وانقطاع عذر المُعْتَلِّين على الله في رفضها، بعقد لو كان منهم لِمَا نُصب من علم دلائل فرضها.

وكذلك فعل الله بالرسل صلوات الله عليها وأوصيائها، وإبانتهم من غيرهم بنور دلائله وضيائها .

ثم فرق جل ثناؤه بين الرسل والأوصياء، ومن يحدث بعدهم من خلفاء الأنبياء، في علم الدلائل والحجج، بقدر ما لهم عند الله من الدرج، فجعل دلائل المرسلين، وشاهد أعلام النبيين، أكبر بيانا، وأقوى سلطانا، وأفلج في الحجة للمستكبرين، وأقطع لأعاليل عذر المعتذرين.

فكان من ذلك عجائب موسى صلى الله عليه، في فلق الله له ولمن كان معه البحر وممرهم فيه، إلى ما كان مِن قبل ذلك من عجيب آياته، وما أرى المصريين من فعلاته، في الضفادع والقمل والدم، وما يَعظُم قدرُ مبلَغِه على كل مُعظَّم.

وعجائب عيسى عليه السلام، التي كانت تضل في أصغرها الأحلام، من إحيائه الموتى، وإبرآئه للكُمهِ والبرصى، وإنبآئه لهم بما يأكلون وما يدخرون، وإخباره لهم عن كثير مما يضمرون .

ثم آيات محمد صلى الله عليه، وما نزَّل من حكمةِ وحيه إليه، التي لم يقو لمكافاته فيها من أضداده ضد، ولم يكن لحكيم منصف عند سماعها من قبولها بد، مع عجيب آياته، في الشجر وإجابته، وما كان من شأن الشاة المسمومة، وإنبائه بسرائر نجوى الغيوب المكتومة، وإطعامه من قبضة كف، لأكثر من ألف وألف.

(73/2)

فبانت الرسل صلوات الله عليهم، من الأوصياء بما جعل الله من هذه الدلائل لهم وفيهم، وبانت الأوصياء من الأئمة، بما خصها الله به من التسمية، وبما كان يُعرف لها عند رسلها من المنزلة، وما كانت الرسل تنبئها به من أقوال التفضلة، كنحو ما جاء في علي عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه، وما كان في أقواله المشهورة المعلومة فيه، كقوله :(من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه) . وكقوله :(أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) . و(أنت قاضي ديني ومنجز وعدي) . مع ما يكون عند الأوصياء، من علم حوادث الأشياء، وما يلقون بعد الأنبياء، من شدائد كل كيد، ودُوَل كل جبار عنيد، خبرا خاصا من الأنبياء، لمن يَخلُفُهم بعدهم من الأوصياء، كنحو ما ألقى الله تعالى إلى الرسول من شأن علي وإخباره، وتناول المرادي له بما تناوله به من ختله واغتراره، وخبره له عن طلحة والزبير وعائشة ومعاوية، وما كان علي ينادي به في خُطبه من دولة بني أمية، وما كان يخبر به من عجيب الأنباء، ويقص على الناس من قصص الأنبياء، وما كان به باينا، ولغيره فيه مباينا، من بأس الإقدام في القتال، ومنازلة مساعير الابطال، التي كان يقل عليها إقدام المقدمين، ويهاب اصطلاء نارها كثير من خيار المسلمين، مع تأول أوليائه فيه لكثير من آي القرآن، مع التي لا يشك مِن سبقه إلى الله فيها بالإيمان، والله يقول جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسمآؤه، ؟و السابقون السابقون أولئك المقربون ؟ [الواقعة: 10-11] . وكفى بهذه الآية لو لم يكن معها غيرها، وبما بَيَّن عنه من وحي كتاب الله تنزيلها، على الوصي دليلا، وفي الدلالة عليه تنزيلا !! فكيف بكثير الدلائل عليه ؟! ودواعي شواهد الوصية إليه، من قوله جل ثناؤه :؟لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ؟ [الحديد: 10].

(74/2)

مع كثير آيات القرآن، ودلائل وحي الفرقان، من تفضيله له بمنازلة الأقران، وسبقه إلى الله بكرامة الإيمان، مع التي كان بها نسيج وحده، وفيها مُبآئنا لجميع من كان في حده، من جمة أغوار العلم، ومعرفة أديان الأمم، وفصل بيان اللسان، ومعرفة أسرار القرآن، وهذه خاصة من حالاته، أحد أعلام الإمام بعده ودلالته، التي لا توجد وإن جهد ملتمسُها، ولا يَقتبسُ إلا من إمامٍ مقتبسُها، فجعل اللهُ جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسماؤه، ما قدمنا ذكره، وأثبتنا في الحجة أمره، من خآص دلائل الأوصياء، كرامة خصهم بها بعد الأنبياء، وأبانهم بها من الأئمة، واحتج بها لهم على الأمة .

(75/2)

[دليل الإمامة]

ثم أبان الأئمة من بعدهم، ودل الأمة فيهم على رشدهم، بدليلين مبينين، وعَلَمِين مضيئين، لايحتملان لبس تغليط، ولا زيغ شبهة تخليط، لا يطيق خلقهما متقن، ولا يحسن تخلفهما محسن، ولِيَ ذلك منهما وفيهما، ومظهر دلالة صنعه عليهما، الله رب العالمين، وخالق جميع المحدثين، وهما ما لا يدفعه عن الله دافع، ولا ينتحل صنعه مع الله صانع، من القرابة بالرسول صلى الله عليه، وما جعل من احتمال كمال الحكمة فيمن الإمامة فيه، وحد الحكمة وحقيقة تأويلها، درك حقائق الأحكام كلها، فاسمع لقول الله جل ثناؤه، وتباركت بقدسه أسمآؤه، فيما ذكرنا من مكان قرابة المرسلين، وما جعل من وراثة النبوة في أبناء النبيئين، قال الله تعالى :؟ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ؟ [الحديد: 26].

وقال تعالى :؟إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم؟ [آل عمران:33- 34].

وقال سبحانه :؟ولقد آتينا بني إسرآئيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين؟ [الجاثية:16].

وقال :؟ولقد اخترناهم على علم على العالمين ؟ [الدخان: 32].

وقال موسى صلوات الله عليه لبني إسرآئيل:؟اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ؟ [المائدة: 20].

وقال لإبراهيم صلوات الله عليه :؟رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ؟ [هود: 73].

وقال الله تعالى في نوح صلى الله عليه :؟ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم، وجعلنا ذريته هم الباقين ؟ [الصافات: 75 – 77].

(76/2)

وقال نوح صلوات الله عليه :؟رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ؟ [نوح: 28]. فقدم في الدعوة الأبوين، ثم ثنى بعدهما بالأهلين، ثم دعا بعدهم للمؤمنين، تفريقا منه صلى الله عليه للمفروق، وتنزيلا لهم في التقديم و التأخير على أقدار الحقوق.
وقال سبحانه :؟ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرآئيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ؟ [السجدة: 23]. ثم قال تعالى لأبينا إبراهيم خاصة من دون المؤمنين :؟ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ؟ [الحج: 78]. وذلك كقوله وقول إسماعيل صلوات الله عليهما، عند رفعهما قواعد البيت فيما ذكر بأ يديهما :؟ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ؟ [البقرة: 127 – 128]. وقال صلى الله عليه :؟ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ؟ [إبراهيم: 37].
وقال تعالى :؟وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ؟ [طه: 132]. وقال تعالى :؟إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ؟ [الأحزاب: 33]. وقال تعالى لنوح :؟احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ؟ [هود: 40].

(77/2)

وقال تعالى :؟وإن لوطا لمن المرسلين، إذ نجيناه وأهله أجمعين، إلا عجوزا في الغابرين ؟ [الصافات: 134 – 135]. وقال تعالى :؟إلا آل لوط نجيناهم بسحر، نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ؟ [القمر: 34 – 35].
وقال في أيوب صلى الله عليه :؟ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ؟

[ص: 63].
وقال يعقوب ليوسف صلى الله عليهما :؟ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ؟ [يوسف: 6].
وقال موسى صلى الله عليه وسلم :؟واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا ؟ [طه: 29 – 35].
وقال زكريا صلى الله عليه :؟فهب لي من لدنك وليا، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا؟ [مريم:5–6]. وقال تبارك وتعالى :؟ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ؟ [الأنعام: 84 – 85].
ثم قال تعالى :؟ومن آبائهم وذرياتهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ؟ [الأنعام: 87].
وقال تعالى :؟ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ؟ [العنكبوت: 27]. وقال تعالى :؟ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ؟ [الحديد: 26].
وقال سبحانه :؟أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ؟ [النساء: 54].

(78/2)

فأيُّ ضياء أضوى، أوحجة لمحتج أقوى ؟ في إثبات الصفوة والفضل، لأبناء المنتجبين من الرسل، مما تلونا تنزيلا مبانا، أنزله الله في منزل وحيه قرآنا، لا تعارضه شبهة لبس، ولا يلتبس على ذي ارتياده ملبس، ولكن اقتطَع الناس دونه، وحال بين العامة وبينه، جورُ أكابرهم في الحكم، واعتساف جبابرتهم فيه بالظلم، فأَعينُ العامة في غطاء عن مذكوره، وقلوبهم ذات عمى عن نوره، فمعروفه لديهم مجهول، وداعيه فيهم مرذول، إن لم يقتل عليه، عظم تعنيفه فيه، ولم يَعُدوا – من جهلهم بفرضه، وما هم عليه من رفضه . سبيلَ ما هم عليه، وما أمسوا وأصبحوا فيه، من جهل غيره من الحقوق وتعطيلها، ومحو أعلام الدين وتبديلها.
فالله المستعان في ذلك وغيره، وإياه نسأل تبديل ذلك وتغييره، والحمد لله الذي جعلنا لخاتم المرسلين، وبقية من مضى من رسله الأولين، عترة وبقية، وآلاً وذرية، إبتداء لنا في ذلك بعظيم فضله، ومنًّا علينا فيه بولادة خاتم رسله، من غير قوة منا ولا حول، ولا صالح من عمل ولا قول، فجعلنا راجين

رجاء أبناء المرسلين بآبائهم، وما كان من حفظ الله للنبيئين في أبنائهم . فكفى بهذا في دلالة القرآن دليلا على الإمام، وما وَلِيَ الله لرسله في ذلك وبه من الإكرام، منظرا لمنصف معتبر، ومعتبرا به لحكيم مفكر .

(79/2)

[صفات الإمام]

فاسمع لقول الله سبحانه في تفصيل الحكمة، وما خص به من جعلها فيه من التقدمة، إذ يقول في داود صلى الله عليه: ؟وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ؟ [ص: 20]. وقال فيه، صلى الله عليه :؟وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ؟ [البقرة: 251]. فمتى ما وجد الملتمسون، وأصاب عند الطلب الطالبون . مَنْ هاتان الخلتان فيه كاملتان، وهذان الدليلان عليه مبينان . حقت إمامته وصحت، وبانت الحجة لأوليائه فيه ووضحت، ولم يكن لطالب إمامة تعدِّيه، ولم توجد الكفاية أبدا إلا فيه، والعلة التي بها ولها، ومن أجلها، كانت القرابة والحكمة على الإمام دليلا، وإلى وجوده عند الحاجة والطلب سبيلا.

إن مطلبه في القرابة أسهل على الطالبين، وأيسر في تكليف فرضه على المكلفين، وأقطع لعذر المعتلين، وأبلغ في الحجة على المتجاهلين، وأقرب إلى متناول البغية، إذ لا يمكن تقريبها بالتسمية، والدولةُ دولة الجبارين، مَخُوفٌ فيها قتل الأبرِّين .

(80/2)

[طريق الإمامة]

ولو كان – الأمر في الإمامة كما قال المبطلون فيها، وعلى ما زعموا من أنهم الحاكمون بآرائهم واختيارهم عليها، وأن الخيرة فيها ما اختاروا، والرأي منها وبها ما رأوا – لكان في ذلك من طول مدة الالتماس، وما قد أعطبوا بقبحه وفساده من إهمال الناس، ما لا يخفى على نظرة عين، ولا تسلم معه عصمة دين، ولصاروا إلى ما كرهوا من فساد الاهمال، ولتعطل في مدة الطلب أكثر الأحكام، من الجمَع والأعياد، والدفع والجهاد، وقذف المحصنات، ومكابرة المؤمنات، ولسقط حد الزاني والزانية، وكل حكم خصه الله بالتسمية .

ثم لَمَا كان لِمَا هُمْ فيه من الطلب غاية تُعرف، ولا للغرض فيه نهاية ينتهي إليها المكلف، ومن شأن الله تيسير كُلَفِه، وتقريب تعريف مُعرِّفِه، كنحو من تكليفه، وما كان من تعريفه، جل ثناؤه لنفسه، بما

بين السماء والأرض من خلقه، وما عرف من رسله، بتواتر أعلام دلائله، وكقوله :؟ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ؟ [الحج: 78]. وكقوله :؟يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ؟ [البقرة: 185]. فقالوا : نختار لإمامتنا وديننا، أوثقنا لذلك في أنفسنا. فقلنا : لستم تختارون ذلك لأنفسكم، دون اختياركم فيه على ربكم، فلله الخيرة لا لكم. يقول الله جل ثناؤه :؟وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ؟ [القصص: 68]. وقال تعالى :؟وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ؟ [الأحزاب: 36]. يقول جل ثناؤه : إن يختاروا هم فتكون الخيرة لهم، والله ما جعل إليهم الخيرة فيما خوَّلهم، ولا فيما جعل من أموالهم لهم، فكيف تكون إليهم الخيرة في أعظم الدين عِظما، وأكبره عند علماء المؤمنين حكما .

ثم قلنا لهم: مَنْ المختارون منكم للإمام ؟ الخوآص منكم أم العوآم ؟

فإن قالوا لخوآصنا.

قلنا: مَنْ خوآصكم ؟

وإن قالوا: لعوآمنا.

قلنا: ومَن عوآمكم ؟ أَخَوآصُّكم إنسان أم إنسانان ؟ أم بلد خآص مِن البلدان ؟ وعوآمكم أَكُلُّكُم ؟ أم الأكثر منكم ؟!

فإن قلتم : ذلك إلى كلنا وكلنا يختار، فذلك ما لا يمكن لما فرقت منكم الأقطار، مثل الصين وفرغانة، ومن بالأندلس وغانة، ومن يحدث فيكم، وينقص كل يوم منكم، فالإمامة لا يمكن عقدها، ولا يصاب بالعقل رشدها، إذا كانت إنما تكون، ويتم لها بزعمكم الكون، باختيار جميعكم، وإجماع كلكم، وذلك غير ممكن أصلا، فالإمامة غير ممكنة اضطرارا.

وقد زعمتم أن الله كلفها خلقه، وأوجب على الناس فيها حقه، فقد كلف الله الخلق عندكم غيرَ ممكن، ومُكلِّفُ ما لا يمكن جاهل غير محسن، ومن الله سبحانه كل حسنى ! وله المثل الأجلُّ الأعلى ! سبحانه أن يكلف أحدا من خلقه غيرَ ممكن، وتبارك أن يكون في صغير من الأمور أوكبير غير محسن !!!

وإن قلتم: اختيار الإمام، للخآصة منا دون العوآمَ.

قلنا: ومَن تلك الخآصة منكم ؟ وما الذي يبينها للاختيار دونكم ؟!

فإن قالوا: علمها وفضلها.

قلنا: ومن الذي يعرف ذلك لها ؟! وما حد ذلك فيها ؟ وما شاهد دليله عليها ؟!

فإن قالوا: يعرف ذلك منها عوآمها.

قيل: ولِمَ لا تعرف العوآم مَن يؤمها ؟ وفضله أكثر من فضل فضلائها، وعلمه فوق علم علمائها، وإذا عرفت العوآم من ذلك الأقل فهي بمعرفة الأكثر أولى، وإذا بان لها فضل العلماء وعلمها فبيان فضل الإمام وعلمه أبين وأعلى !!

وإن قالوا: تعرف ذلك العلماء لأنفسها.

قيل: وكيف يصح ذلك عند غيرها بصحته لها ؟! أو يتبين عندهم تبيانَه عندها ؟ وإذا كانوا هم الحجة على الأمة، فيما يجب عليها من طاعة الأئمة، فهل يجوز أن تكون بهم الأمة جاهلة ؟! إلا كانت وهي عن هدى ما كلفته ضآلة.

فإن زعموا أن الأمة عارفة بهم.

سئلوا: ما معرفة الأمة لهم ؟

(82/2)

فإن قالوا: علمهم وفضلهم . فقد فرغنا من هذا فيما قدمناه لهم، وإن قالوا ذلك بمعرفة أعيانهم، فأي عجب في ذلك أعجب من شأنهم، إن زعموا أن مَن دون الإمام من رعيته، مدلول عليه في حكم الدين بتسميته، وأن الإمام غير معروف بتسمية عين، ولا محكوم على أحد بمعرفته في دين !!

ويقال لهم: مَن المحكوم بمعرفة اسمه ؟ وتنفيذ ما حكم به من حكمه ؟ الأئمة أم العلماء ؟

فإن قالوا: العلماء، فكلهم عندهم بالإمامة أولى، إذ كان مقامهم في الفضيلة أعلى.

وإن قالوا: الأئمة، أولى بالمعرفة.

قيل لهم : فما بالكم لم تكتفوا بتلك منهم ؟ وتسألوا دلائل الله عليهم عنهم ؟!

فإن هم ردوا علينا المسألة. قلنا: قولوا ما شئتم أن تقولوا، واسألوا فيمن الإمامة ومن تجب له عما أردتم أن تسألوا، تجابوا – والحول والقوة لله معا – جوابا فيما تسألون عنه قصدا مجتمعا.

فإن قالوا: من أين زعمتم أن الإمامة واجبة العقد ؟ ولم يبيِّن الله في كتاب ولا سنة فيها ما أبان في غيرها من عهد ؟! ولو كان ذلك عند الله كما قلتم، وكان وجوبه في دين الله بحيث أنزلتم، لكان فرضه مبانا ! ولنزَّل به قرآنا ! كما نزل بالصلاة، وفرضِ مؤكَّد الزكاة ؟!

قلنا: فمنهما بعينهما، ومن بيان فرض الله فيهما، صح فرض الإمامة، وأنها هي أولى منهما بالتقدمة، فَأَقبِلُوا قبل الاستماع، وتفهموا فإن الفهم سبب الانتفاع، قال تعالى :؟يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع؟ [الجمعة: 9]. وإنما تكون الجُمع جُمعا، إذا كانت هي والإمام معا، بل ربما تقدمها فكان أَمامها، كتقدم الرسول عليه السلام لفرضها

ولحكمها، ومن كانت تعقد له فمتقِّدمٌ قبل تقدمها، مع أنه إذا صح أنها إنما تكون بالأئمة، لهم عليها معقول التقدمة، فهذا دليل فرض الإمامة من الصلاة .

(83/2)

فأما دليل فرضها من الزكاة، فمن قول الله جل ثناؤه :؟خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ؟ [التوبة: 103]. والأئمة مكان الرسول عليه السلام في أخذها، ووضعها بعد الأخذ في مواضعها، وإذا قيل : خذ فالأخذ غير شك ولا امتراء، قبل ما يكون من إعطاء أو إيتآء.

فهذا دليل على فرض الإمامة من الزكاة، إلى ما قدمنا بيانَه من فرضها بالصلاة.

وفي القرآن على من أبى الإمامة وإثباتها، حجة من الله في فرضه لها أثبتها، من ذلك قوله جل ثنآؤه في بني إسرآئيل:؟وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ؟ [السجدة: 23]. وقوله سبحانه في إبراهيم صلى الله عليه :؟إني جاعلك للناس إماما ؟ [البقرة: 124]. وما سأل إبراهيم منها لولدِه، وما رغب إليه سبحانه فيها من إبقائها فيهم من بعده، إذ يقول صلى الله عليه :؟ومن ذريتي، قال لا ينال عهدي الظالمين؟ [البقرة: 124]. فأبى سبحانه أن يجعلها من ولده إلا للمتقين، فهذه خآصة الله لرسله في أبنائهم، وعطية الله لأبناء الرسل بآبائهم، وإذا لزم تنفيذ الأقسام والأحكام، وكان ذلك لا يكون ولا يقوم إلا بالإمام، لزم جميع الأمة، اتخاذ الأئمة، لزوما ليس منه بد، ولا عنه لأحد مصدٌّ، بحجج قوية مؤكدة لا تندفع، ولا يمتنع منها من المهتدين ممتنع، ولا يأبى قبولها إلا ضآل، ولا يجهل فيها حجة الله إلا الجهال، والحمد لله ذي الحجج البوالغ، والنعم الكثيرة السوابغ . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين .

(84/2)

الإمام المفترض الطاعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألت: مَن الإمام المفترض الطاعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

فالإمام المفترض الطاعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي ابن أبي طالب رحمة الله عليه ورضوانه، وقد ألفنا في ذلك كلاما من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، به يُعمل وبالحجة فيه يُهتدى.

وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ؟ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؟ [الشورى:11] وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليما، والحمد لله الذي أكمل لنبيه عليه السلام الدين، الذي افترضه على عباده وبينه له، وافترض عليه إبلاغه، فكان مما افتُرِض على العباد طاعة الله، وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر، الذي يستحق مقام رسوله والإبلاغ عنه، وليس من الفرائض فريضة أكبر قدرا، ولا أعظم خطرا، من الإمام الذي يقوم مقام نبيه عليه وآله السلام، وقد بين ذلك في محكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل الله تبارك وتعالى الإمامة في بيت الصفوة والطهارة والهدى والتقوى، من ذرية إبراهيم ولا يصلح في غيرهم، لقول الله تبارك وتعالى: ؟ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ؟ [آل عمران:33 -34]. ثم قال لإبراهيم صلى الله عليه وسلم: ؟ إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ؟ [البقرة:124]. فأخبر أن الإمامة عهده الذي لا ينال ظالما، على معنى لا من أشرك بالله طرفة عين، ولا من أقام على ظلم، لأن الله لم يجعل لظالم عهدا.

(85/2)

ثم أخبر بمن يستحق الإمامة من ذرية إبراهيم فقال: ؟ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ؟ [الأنبياء:73]، وقال: ؟ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ؟ [السجدة:24]، ثم أخبر بذرية إبراهيم فقال: ؟ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم... إلى قوله: التواب الرحيم ؟ [البقرة:127-128]. ثم أخبر أن الأمة المسلمة التي استجاب الله فيها دعوة إبراهيم صلى الله عليه، وجعلهم شهداء على الناس، والشهداء على الناس الأنبياء ومن يخلف الأنبياء من الذرية التي جنبها الله عبادة الأصنام، وافترض مودتها. فقال: ؟ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ...إلى قوله: شهداء على الناس ؟ [الحج:77-78]. ثم ذكر الله تبارك وتعالى الذرية المصطفاة الطاهرة من ذرية إبراهيم، التي استجاب فيها دعوته، فقال: ؟ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ... إلى قوله: لعلهم يشكرون ؟ [إبراهيم: 35-37]. فاستجاب الله تبارك وتعالى دعوة إبراهيم على لسان محمد صلى الله عليهما أجمعين فقال: ؟ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور ؟ [الشورى: 23]، وقال لإبراهيم صلى عليه: ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.... ؟ [هود:73] الآية، وقال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس [أهل البيت].... ؟ [الأحزاب: 33]

الآية، فلا تصلح الإمامة لمن عبد صنما، لدعوة إبراهيم صلى الله عليه لبنيه الطاهرين المصطفين، فليس أحد من أهل بيت الطهارة والصفوة يشهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه خرج من لدن آدم عليه السلام مِن ظَهْرٍ إلا وهو لنسبه الطاهر، حتى انتهت الطهارة في المولد إلى عبد الله وأبي طالب، لأن أمهما كانت واحدة،

(86/2)

ثم شهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بالطهارة، والحسن والحسين وفاطمة، حيث أردف عليهم الكساء. ثم قال: ؟ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ؟ [الأحزاب:33]، ثم أنزل الله على نبيه: ؟ وأنذر عشيرتك الأقربين ؟ [الشعراء:140]، فجمع بني عبد المطلب في الحديث المشهور وهم يؤمئذ أربعون رجلا. فقال: يا بني عبد المطلب كونوا في الإسلام رؤساء، ولا تكونوا أذنابا، فبدأهم بالنذارة قبل الناس كلهم، فقال: أيكم يجيبني إلى ما دعوته إليه إلى الإسلام، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، على أن يكون أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أهل بيتي، يقضي ديني وينجز موعودي ؟ فأجابه علي من بينهم وكان أصغرهم سنا، فضمه إليه ودعا له، فتفل في فيه، فقال أبو لهب: لبئس ما حبوت به ابن عمك حيث أجابك إلى ما دعوته، فملأت فمه بزاقا، فقال: بل ملأته فهما وعلما.

(87/2)

ثم أورث الله تبارك وتعالى الكتاب أهل بيت الصفوة والطهارة، فقال: ؟ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم ... إلى قوله: جنات عدن يدخلونها ؟ [فاطر:32-33]، فلميفرق الله بين الكتاب والحكم والنبوة فيما قص من خبر بني إسرائيل، فقال لمحمد عليه السلام: ؟ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ [النساء:54]، فكان علي عليه السلام أول من سبق إلى الإسلام من أهل بيت الطهارة والصفوة، لا ينازعه في ذلك أحد من بني عبد المطلب، ولا يستحقه دونه أحد، ثم دعا رسول الله عليه السلام عند حضور وفاته - وبنو عبد المطلب والمهاجرون والأنصار يؤمئذ عنده- فدعا بسيفه ودرعه وسلاحه ودابته وجميع ما كان له، حتى تفقد عصابة كان يعصب بها على بيضة الدرع، ثم دفع ذلك إليه صلوات الله عليهما، وبنو عبد المطلب شهود والمهاجرون والأنصار. ثم استخلفه بمكة حيث عزمت قريش على أن تُبَيّتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه أويخرجوه، فاضطجع على فراشه فوقاه بادِرَةَ الحتوف بنفسه، وكان يأتيه

بالطعام ليلا، وأمره [أن] يؤدي الأمانات التي كانت على يده، وأن يخرج إليه أهله، فنفد أمره ومشى مع أهله، حتى تفطرت قدماه دما.وخرج إلى تبوك واستخلفه وأعلمه أنه لا يصلح لخلافته إلا هو، وقال له: (يا على أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي). (وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر بعشر آيات من براءة إلى مكة فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال: إنه لا يصلح أن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك). ثم لم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوليه ولا يوليِّ عليه، ولم تَجْر سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في علي أنه جعله تبعا لأحد من الناس.

ثم وجه إلى اليمن خالد بن الوليد على الجيش، فقال: (إن اجتمع الجيشان فعلي أمير الجيش). ثم دعا له حين وجهه إلى اليمن (أن يهدي الله قلبه ويثبت لسانه).

(88/2)

ثم قال لهم: (إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فقال له أبو بكر: أنا يا رسول الله ؟ قال: لا. قال له عمر: أنا يا رسول الله ؟ قال: لا. ولكنه خاصف النعل)، فأُخبر علي بذلك، فكأنه شيء قد سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذلك. ثم أمره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. وروي عن أبي أيوب، وعن ابن مسعود، وعن غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه، يقول أبو أيوب: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تقاتلون الناكثين والقاسطين والمارقين، قلنا: مع من يا رسول الله ؟ قال: مع علي.

قال ابن مسعود: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين.

وروي عن النبي عليه وآله السلام في الخبر المشهور أنه قال: (يأتي قوم بعدي يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية). فإنما مرقوا على علي بالإسلام ومن كان مع علي.ثم أُمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، فكان من أكبر الإبلاغ عن الله الإمام الذي يستحق مقامه، ويؤدي عنه الدين الذي أكمله الله، فأخذ بيد علي في يوم غدير خم في حجة الوداع في آخر عمره فقال: (يا أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من وآلاه، وعاد من عاداه)، فجعله عَلَماً لأولياء الله ولأعدائه، فمن تولى عليا كان له وليا، ومن عاداه كان له عدوا.

(89/2)

وافترض الله سبحانه تبارك وتعالى في محكم الكتاب الطاعة له وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر، فقال: ؟ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ؟ [النساء:59]، ثم قال سبحانه: ؟ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ؟ [النساء:33]، فأعلمهم أن ولي الأمر من يعلم ما يجهلون، وقال: ؟ إنما وليكم الله ورسوله ؟ [المائدة: 55]، والخبر المشهور الذي لا يُختَلَف فيه: أن عليا هو الذي آتا الزكاة وهو راكع. ثم أخبر تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن أولى الناس برسوله والمؤمنين أول من اتبعه، فقال: ؟ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه... ؟ [آل عمران:68] الآية، فكان إسماعيل أول من اتبع إبراهيم صلى الله عليهما، وكان علي رحمة الله عليه أول من اتبع محمدا صلى الله عليه وآله وسلم.

(90/2)

وبيَّن الله تبارك وتعالى أن عليا أولى الناس برسول الله صلى الله وآله، لأن لا يشك فيه أحد، فقال: ؟ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ؟ [الأحزاب: 6]. فليس يعلم أحد ممن قد أومَىء إليه الناس أنه يستحق مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تجتمع فيه هذه الثلاث الخصال إلا علي رحمة الله عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جُمع له السبق إلى الإيمان والرحم والهجرة، وهو أولى الناس برسول الله عليه وآله السلام، وأولى الناس بمقامه من الكتاب والسنة. وروي عن علي عليه السلام أنه قال على المنبر: (والله لقد قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأنا أولى الناس به مني بقميصي هذا)، وروي في الحديث المشهور: أن بريدة وقع في علي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتغير لون النبي وأظهر الغضب، وقال يا بريدة أكفرت بعدي بالإيمان ؟! قال أعوذ بالله من غضب رسول الله قال: (فإن عليا مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي) . وقال علي أيضا وهوعلى المنبر: (عهد النبي الأمي إلي أن الأمة ستغدر بي من بعده) ثم سماه الله من نفس رسوله، فقال في كتابه: ؟ قل تعالوا ندعُ أبنانا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ؟ [آل عمران: 61]، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير الصادقين، وأمر الله العباد أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ؟ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ؟ [التوبة: 119]، وفرض الله اتباع العلماء فقال ؟ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ؟ [النحل: 43، الأنبياء:7]، وسمى الله رسوله ذكرا فقال: ؟ فاتقوا الله يا أولي الألباب، الذين آمنوا قد أنزل إليكم ذكرا رسولا ؟ [الطلاق: 9 –10]، فأهل بيته المصطفون الطاهرون العلماء هم الذين أوجب الله سبحانه أن يُسألوا، وأن يكونوا

(91/2)

متبوعين غير تابعين، لأن الله يقول في كتابه: ؟ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ؟ [الحجرات: 1]، وقال: ؟ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ؟ [الحجرات: 2]. وقال تبارك وتعالى: ؟ فلا وربك لا يؤمنون... ؟ [النساء:65] وقال: ؟اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ؟ [الزمر:55]، وقال: ؟ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب؟ [الحشر:7]. وقال رسول الله صلى الله عليه: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبدا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ألا إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، ألا وإنهما الخليفتان من بعدي).

ثم دل على الحسن والحسين صلوات الله عليهما وعلى أبيهما وأمهما، فقال: ([الحسن والحسين] سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما)، وقال: (اللهم حب من أحبهما)، وقال: (تعلموا منهما ولا تعلموهما فهما أعلم منكم). وقال لهما ولأبيهما: (أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم)، وقال: (النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي)، وسماهما الله ابنيه في كتابه، وفرض مودتهما، ولهما آية الخمس، ولهما الفيء، ولهما آية التطهير، قال الله: ؟ فآت ذا القربى حقه ؟ [الروم: 38] فدل عليهما بأعيانهما وأنساهما وأفعالها، الا أن الحسن يتقدم الحسين بالسن، وهما جميعا في وقتهما (إمامان قاما أو قعدا) .

ثم دل على أولادهما فقال: (إن تمسكتم بالكتاب وبهم لن تضلوا أبدا).

ودل على المهدي باسمه ونسبه وفعله.

(92/2)

ودل على أبرار العترة الأتقياء المصطفين المطهرين بالنسب المصطفى الطاهر، والأعمال الطاهرة الزكية التي توافق الكتاب والسنة. فأكثرهم بالكتاب تمسكا أوجبهم على المسلمين حقا، والشريطة التي توجب لهم أن يستحقوا مقام الرسول، وأن يكونوا متبوعين غير تابعين، العلم، والجهاد، وأداء الأمانات إلى أهلها، فمن كان فيه هذه الخصال الأربع وجب على أهل بيته وعلى المسلمين اتباعه، ومعاونته على البر والتقوى. قال الله في كتابه: ؟ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب؟ [المائدة:2]. فمتى كان منهم العلم، والزهد، والتقوى، كان علىالناس أن يقتبسوا من علمه، وأن يهتدوا بهديه، فأفعالهم الصالحة، ونسبهم الطاهر الدآل عليهم.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

إمامة من تقدم على علي السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه:

يسأل الذين قدموا أبا بكر. فيقال لهم: خبرونا عن جميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله من الله، وأَمَرنَا به من طاعة الله، ما هو وهل يخلو من ثلاثة أوجهٍ ؟!

إما فريضةٌ أوجبها عليهم من الله.

وإما سُنَّة سنها لهم.

وإما تطوعٌ أمرهم به على الترغيب فيه، إن شاءوا فعلوه، وإن شاءوا تركوه.

فَمَن قولهم: لا يخلو من أحد هذه الثلاثة الوجوه، ولا سبيل لَهُمْ إلى أكثر من ذلك؛ لأن ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه أحد هذه الثلاث الخصال.

يقال لهم: فأخبرونا عن هذه الفرائض التي أمرهم النبي بها عليه السلام، عن الله، معروفة معلومة، أو مجهولةٌ غير معروفة ؟

فمن قولهم: لا. بل معروفة غير مجهولة.

فيقال لهم: فمثل أيّ شيء ؟

فمن قولهم: مثل صلاة الظهر أربع ركعات، وصلاة المغرب ثلاث ركعات، والصبح ركعتان، ومثل الزكاة من مأتي درهم خمسة دراهم، ومن أربعين ديناراً دينارٌ، ومثل فرائض المواريث للبنت النصف، وللذكر مثل حظ الأنثيين.

فيقال لهم: هل يجوز لأحد أن يُحوِّل هذه الفرائض فيجعلها على خلاف ما فرض الله ؟

فإن قالوا: نعم. أبطلوا جميع الفرائض. وإن قالوا: ما تعنون بقولكم يُحوِّلُها ؟

قيل لهم مثل المغرب يجعلها ركعتين، ومثل الصبح يجعلها ثلاثاً، ومثل أن يفرض للبنت الواحدة الثلث، ويعطي الذكر مثل حظ الأنثى، وفي ست من الإبل شاةً، وفي مأتي درهم ثلاثةَ دراهم، وفي ثلاثين من الغنم شاةً، وفي عشرين من البقر بقرةً.

فمن قولهم: هذا لا يجوز.

قيل لهم: لم لا يجوز ؟

فإن قالوا: لأن هذه الفرائض جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معروفة معلومة محدودة، فإن زادوا فيها أو نقصوا خالفوا الله ورسوله فيما أمرهم به، وفرضه عليهم، وفي خلاف هذا هدمُ

الدين.

قيل لهم: فجميع الفرائض على هذه الحال ؟

(94/2)

فإن قالوا: لا. تركوا قولهم إنه لا يجوز أن يتركوا ما أمرهم الله به. فيكون في قولهم إنه يجوز في بعض ولا يجوز في بعضٍ.

وإن قالوا: لا يجوز النقصان ولا الزيادة في جميع الفرائض.

قيل لهم: هذه الفرائض قد أجمعتم عليها أنه لا يجوز فيها زيادة ولا نقصانٌ. فأخبرونا من السنن ما هي عندكم ؟ فمن قولهم مثل مواقيت الصلاة، الظهر إذا زالت الشمس، والمغرب إذا غربت، والصبح إذا طلع الفجر، ومثل زكاة الفطر، ومثل صلاة الوتر بالليل ثلاث، وركعتان قبل الصبح، ومثل هذا من المناسك والسنن.

قيل لهم: ما تقولون: هل يجوز لأحدٍ أن يحوِّل هذه السنن عن جهاتها، فيجعل الوتر بالنهار، ووقت الظهر لوقت العصر، وصلاة النهار بالليل، وزكاة الفطر في الأضحى، وركعتي الفجر قبل الصبح، وكل شيء من السنن يحوِّلُها على هذا النحو ؟!

فمن قولهم وقولنا: لا يجوز تحويل هذه الأشياء على خلاف ما سنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قيل لهم: وكذلك جميع السنن!

فإن قالوا نعم. قادوا قولهم إنه لا يجوز تغيير شيء من سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما لا يجوز تغيير شيء من الفرائض التي ذكرنا.

قيل لهم: فما تقولون في التطوع ؟

فإن قالوا: الناس كلهم في التطوع بالخيار، إن شاءوا فعلوه وإن شاءوا تركوه، وكذلك قول الله تعالى: ؟فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له؟ [البقرة:184].

يقال لهم عند ذلك: ما تقولون في الإمامة هي من دين الله أم من غير دين الله ؟

فإن قالوا: ليست من دين الله، لزمهم في إجماع من أجمع على إمامة أبي بكر أنهم لم يكونوا على دين الله.

وإن قالوا: الإمامة من دين الله.

قيل لهم: من أي دين الله ؟! من الفرائض، أم من السنن، أم من التطوع ؟! فقد زعمتم أن الدين لا يخلو من أحد هذه الثلاثة الوجوه.

فإن قالوا من الفرائض.

قيل لهم: كيف فرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمامة لأبي بكرٍ، سماه لكم رسول الله صلى الله عليه باسمه وعيَّنه، أو دَلَّ عليه بصفته، أو تركها شورى، أو سكت فلم يقل من ذلك شيئاً ؟! ولا بد من إحدى هذه الخصال ولا خامسة معهنَّ.

فإن قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله نص لنا أبا بكر بعينه واسمه ونسبه.

قيل لهم: فما بالهم وقفوا عنه ثلاثة أيام يشاورون فيه، وقد سماه رسول الله باسمه ونصبه بعينه، وما بال أبي بكر، قال لهم: أنا أرضى لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أحدهما أبا عبيدة بن الجراح، أو عمر بن الخطاب ؟ فقال أبو عبيدة وعمر لسنا نفعل ولا نبايع أحداً إلا أنت، ابسط يدك حتى نبايعك. فبسط يده فبايعاه. فسماه رسول الله صلى الله عليه وآله باسمه ونصبه بعينه ؟! وهو يقول: بايعوا أبا عبيدة أو عمر! هذا خلاف ما فرض الله عليهم، أن يكون رسول الله سماه وهم يتشاورون فيه! وهو أيضاً يسمي لهم وينص على من لم يُسَمِّه رسول الله ولم يرضه لهم!! ولا يجوز في فريضة الله خلاف ما فرض. مع أنهم إن كانوا تركوا رسول الله صلى الله عليه وآله لشكٍ منهم في قوله كفروا، وإن كان لخلافٍ منهم فقد عاندوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومن عاند رسول الله فقد كفر.

وإن قالوا: لم يكن وقوفهم تلك الثلاثة الأيام لشكٍ منهم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم! ولكنهم وقفوا ليجتمع الناس مَن غَابَ وحضر.

قيل لهم: أَوَ كذلك فرض الإمامة الوقوف والتشاور بعد الاسم والنص ؟!

فإن قالوا نعم.

قيل لهم: فهل يجوز لهم أن يحولوا هذه الفريضة عن جهتها ؟

فإن قالوا: لا يجوز لهم.

فهل أدَّى أبو بكرٍ هذه الفريضة كما أمر الله ؟!

فإن قالوا: نعم. وسمى لنا عمر ونصبه بعينه، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قيل لهم: فما بالكم لم تشاوروا في عمر كما تشاورتم في أبي بكر بعد النبي عليه السلام ؟!

فإن قالوا: لأن ذلك جائزٌ لنا.

قيل لهم: فقد نقضتم قولكم لا تُغيَّر الفريضة. وهذا نقض الفريضة التي فرض الله ورسوله لكم في أبي بكر، إذ لم تشاوروا في عمر كما تشاورتم في أبي بكر. ولم تشاوروا في قول أبي بكرٍ، كما تشاورتم في قول النبي صلى الله عليه وآله.

فإن قالوا: لأن المشورة إليهم.

قيل لهم: فأيهما أوثق في قوله، النبي صلى الله عليه وآله أم أبو بكر ؟!

فإن قالوا: أبو بكر كفروا! وإن قالوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوثق.

قيل لهم: ما أَبْيَنَ نفاقكم، إنكم تقولون النبي أوثق وأنتم تشاورون بعده. وأبو بكر عندكم ليس بأوثق من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنتم لا تحتاجون بعد قوله إلى المشورة. فقد لزمكم أن أبا بكر عندكم أوثق من النبي صلى الله عليه وآله؛ لأن أوثق الأوثاق الذي لا تَشَاوُرَ في قوله. وهذا التناقض من الكلام غير معقول، ممن قاله ولا مقبول.

ويُسألون أيضاً: هل كان لله على عمر أن يؤدي فريضة الإمامة، كما أدى رسول الله صلى الله عليه وآله في أبي بكر، وكما أدى أبو بكرٍ في عمرَ ؟!

فإن قالوا: لا. صيَّروا لعمر ديناً على حدة. وإن قالوا: لله على عمر أن يؤدي فريضة الإمامة على مثل ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله.

قيل لهم: فَلِمَ جعلها عمر شورى بين ستة ؟! وإنما كان فعل النبي صلى الله عليه وآله في أبي بكر، كما زعمتم أنه سماه باسمه ونصبه بعينه! وكذلك فِعلُ أبي بكر في عمر، كما زعمتم.

فإن قالوا: لأن الخلاف في هذه الفريضة جائز.

قيل لهم: فقد نقضتم قولكم، حيث زعمتم أن فرائض الله لا يجوز تحويلها عن جهاتها. ونحن نراكم تقولون في أوكد الفرائض إنه يجوز أن يُخَالَفَ فيها الله ورسوله!!

ويسألون ما تقولون، هل جعل رسول الله صلى الله عليه وآله في الإمامة شورى بين ستة ؟

فإن قالوا: نعم . كذَّبَتْهُم الأمةُ ! وإن قالوا: لم يجعل فيها شورى.

قيل لهم: فهل جعلها عمر شورى بين ستةٍ ؟

فإن قالوا: لا.

(97/2)

قيل لهم: فقد خالف عمر النبي صلى الله عليه وآله؛ لأن النبي جعلها شورى، ولم يجعلها عمر شورى. وتكذبهم الأمة أيضاً أن عمر لم يجعلها شورى، وكفى بتكذيب الأمة حجة عليهم.

وإن قالوا: نعم قد جعلها عمر شورى بين ستةٍ.

قيل لهم: فمن كان أوثق في فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم عمر ؟!

فإن قالوا: النبي صلى الله عليه وآله أوثق في فعله.
قيل لهم: فَلِمَ خالف عمر الفرض في الإمامة أن يتبعوا فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ؟ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا؟ [الحشر: 7] ؟! فإن قالوا: كلٌّ صوابٌ وتوفيق. شَبَّهوا فعل عمر بفعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأعطوه من التوفيق مثل ما أعطوا رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه خالفَ رسول الله صلى الله عليه وآله في فريضة الإمامة، وكان خلافه فيما أمر الله به صواباً وتوفيقاً.
ويقال لهم: أخبرونا لو أنَّ عمر عمد إلى صلاة الظهر فجعلها خمساً كان ذلك جائزاً ؟!
فإن قالوا: لا.
قيل لهم: وَلِمَ ؟!
فإن قالوا: لأن الفرائض لا تُغيرَّ، ولا يجوز أن يُصيَّرَ ما جعل الله أربعاً خمساً.
قيل لهم: كيف جاز لعُمر في فريضة الإمامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله نَصَّ أبا بكرٍ، وأن أبا بكر نص عمُرَ، وأن خالفهما جميعاً فجعلها شورى بين ستة، فهذا خلاف فريضة الله ورسوله. وعمل بخلاف ما فَعَلاه.
وإن قالوا: إن ذلك جائزٌ في الإمامة ولا يجوز في غيرها. نقضوا قولهم في أول المسألة إنه لا تُغيَّر فرائض اللهِ. وصاروا إلى أن فرائض الله يجوز تغييرها. ويلزمهم في ذلك إن جاز في بعضها، جاز في كلها، حتى لا يبقى دينٌ إلا غُيِّر!! وهذا فاسدٌ منكسرٌ على من قال بهذه المقالة في فرض الإمامة أنه نص أبا بكر!!
ويسأل الذين قالوا: فرض الإمامة شورى بين المسلمين، ما تقولون: كيف فرض الإمامة من رسول الله صلى الله عليه وآله ؟
فإن قالوا: جعلها شورى بين المسلمين.

(98/2)

قيل لهم: وما الدليل على ذلك ؟
فإن قالوا: قول الله بتارك وتعالى: ؟ وأمرهم شورى بينهم؟ [الشورى: 38]. فلذلك فعلوا في أبي بكر ما فعلوا، حيث أقاموا ثلاثة أيامٍ يتشاورون فيه حتى أقاموا أفضلهم، يقال لهم: فهل يجوز لأحد أن يُحَوِّل هذه الفرضة فيجعلها على خلاف ما فرضها رسولُ الله صلى الله عليه وآله.
فإن قالوا: نعم. نقضوا قولهم، وفارقوا الإجماع في أنه لا تُحَوَّل فرائض الله. ولو جاز ذلك لجاز أن يجعل الظهر خمساً والعصر ستاً، والمغرب ركعتين، وكذلك الفرائض. وهذا نقضٌ لدين محمد عليه السلام.

وإن قالوا: لا يجوز في الإمامة تغييرٌ، ولا خلافٌ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله.

قيل لهم: فما بَالُ أبي بكر لم يجعلها شورى بين المسلمين كما جعلها النبي عليه السلام ؟!

فإن قالوا: لأن خلاف أبي بكر صوابٌ.

قيل لهم: وكذلك خلاف عمر صوابٌ، وكل من يأتي بعدهما إلى يوم القيامة، يخالفون رسول الله وأبا بكر وعمر، وجميع الأئمة.

فإن قالوا: ذلك جائزٌ.

قيل لهم: وكذلك جميع الفرائض!

فإن قالوا: لا.

قيل لهم: لِمَ لا يجوز وقد جوزتم في بعضٍ ؟! ولا حجةَ لهم!

وإن قالوا: يجوز. لزمهم نقض الدين كله. فإذا اضطروا أنه لا يجوز إلا الشورى، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله لزم أبا بكرٍ أنه خالف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث استخلف عمر ونصبه بعينه، ولم يجلها شورى بين المسلمينَ كما جعلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(99/2)

[وخالف عمرُ رسولَ الله وأبا بكر] حيث جعلها شورى بين ستة، فلا هو اقتدى برسول الله صلى الله عليه وجعلها شورى بين المسلمين، ولا هو اقتدى بأبي بكر فنص بعده رجلاً كما نصه أبو بكر بعينه واسمه. وهذه فريضة متناقضة. لأنا وجدنا أبا بكر لم يتبع فعل النبي عليه السلام في فريضة الإمامة، إذ زعمتم أنه جعلها شورى بين المسلمين، وكذلك عمر جعلها شورى بين ستةٍ. فكل واحدٍ منهما قد خالف صاحبه، وخلافهما جميعاً خلافٌ لفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن كان صواباً ما خالفا به رسول الله في الدين قاسوا أبا بكر وعمرَ برسول الله عليه السلام، وزعموا أنه يجوز لكل واحدٍ منهما خلاف صاحبه، وأنه يجوز لهما أيضاً خلاف رسول الله، فإن قالوا: ذلك لا يجوز لهما. فقد ابتدعا في الاسلام ما لم يكن لهما.

ويُسألون عن فعل أبي بكرٍ وعمر في الإمامة، كان أصْوَبَ أم فعل النبي ؟!

فإن قالوا: فعلُهما. كفروا!!

وإن قالوا: فعل النبي عليه السلام أصوب.

قيل لهم: فأيهما كان أولى بأبي بكر وعمر يقتديان بالنبي أم لا يقتديان به ؟

فإن قالوا: يقتديان بالنبي خير لهما.

قيل لهم: فحيث خالفا النبي عليه السلام في الإمامة اقتديا به أم لم يقتديا به ؟!

فإن قالوا: لا. بل اقتديا. خالفوا أن تكون الشورى بين المسلمين مثل الشورى بين ستة، وأن تسمية أبي بكر لعمر وحده هي شورى بين المسلمين. وهذا المحال من الكلام.

وإن قالوا: لم يقتديا بالنبي ولو اقتديا به كان خيراً لهما.

قيل لهم: أفيجوز لهما ما فعلا أم لا يجوز ؟

فإن قالوا: نعم. هذا جائز لهما.

قيل لهم: أفصوابٌ ذلك أم خطأ ؟!

(100/2)

فإن قالوا: بل خطأ. لزمهم أنه يجوز أن يُخَالَفَ رسول الله صلى الله عليه وآله. وإن زعموا أنه صوابٌ فقد زعموا أن خلاف النبي عليه السلام صوابٌ. وهذا ما لا يقول به أحدٌ من المصلين. وزعموا أن أبا بكر وعمر جائزٌ لهما أن لا يقتديا برسول الله صلى الله عليه وآله. وهذا شر ما أضيف إليهما تركُ الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله.

وقال بعضهم: إذا كانت الشورى بين المسلمين فليس بمتناقض إنما هو ما رأى المسلمون، إذا أجمعوا على أن يُصيِّروا رجلاً بعينه، وأن يجعلوه بين ستةٍ فهو ما فعلوا، فلهم ذلك، وليس في هذه الفريضة تناقض، إنما كان الأمر شورى.

فيقال لهم الشورى من الجميع أم من بعض ؟!

فإن قالوا: من الجميع. قيل لهم :فكيف جعل أبوبكر عمرَ بغير شورى بين المسلمين ؟! وقد وجدناهم يقولون ننشدك الله أن تستعمل علينا عمر فإنه فظ غليظ. فقال: أتخوفونني بالله، أقيموني فلما أقاموه، قال اللهم إني إذا لقيتك قلت استعملت عليهم خيرَ خلقك. والدليل على أنها لم تكن شورى أنه ساعة مات أبو بكر كان الخليفة من بعده عمر. وقد أجمع الناس على هذا. وقد أقاموا بعد رسول الله ثلاثة أيام يشاورون في أبي بكر. إلا أن يكون عمر بَانَ من الفضل بما لم يكن بَانَ به أبو بكر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم!! فإذا انكسر هذا لم يكن يجوز لأبي بكر أن يقدم عمر إلا بشورى، ولا يجوز له ذلك دون المسلمين جميعاً.

وكذلك أيضاً يلزمهم في ستة دون المسلمين . فيلزمهم إن كانت إصابة الإمامة لا تكون إلا بالشورى من الجميع، أن الذي فعل أبو بكرٍ خطأ، وأن الذي فعل عمر خطأ، وإن كانت الشورى بين ستة كما فعل عمر فقد أخطأ أبو بكر، وإن كانت كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد أخطأا جميعاً!

(101/2)

ويسأل الذين زعموا أن فريضة الإمامة من رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي بكر بالصفة والدلالة، وأنهم إنما أقاموا أبا بكر بتلك الدلالة، مثل قول النبي صلى الله عليه : (صل بالناس). ومثل: يوم بدر أقعده معه في العريش، وكان مجلسه عن يمين رسول الله عليه السلام. قالوا بهذه الصفات اختاروا أبا بكر.

قيل لهم: فما بَالُ أبي بكر لم يدل على عمر بالصفة حيث سماه لهم باسمه ونصبه بعينه، وأقامه بعده، كما دلَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أبي بكر ؟! ولا يجدون إلى دفع ذلك سبيلاً. وهذا خلاف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفرض فريضة بالدلالة، ويجعلها أبو بكر بالنص وكذلك عمر أيضاً جعلها شورى. وهذا ما لا يجوز، أن يحوّل فريضة من فرائض الله عن جهتها، وإن جاز أن يُخالَفَ رسول الله صلى الله عليه وآله في فريضة واحدةٍ، جاز أن يُخالَف في سائر الفرائض، حتى تعطل جميع فرائض الله، وتحدث فرائض أخرى.

وإن قالوا: لا يجوز هذا إلا في فريضة الإمامة. سُئلوا الدليل على ذلك ؟

وكذلك أيضاً إن قالوا: الإمامة سنةٌ على مثل قياس الفريضة، فإن جوزوا تبديل سنن الله وسنن رسوله صلى الله عليه وآله، مثل صلاة الوتر بالنهار، وزكاة الفطر في الأضحى، وصلاة العصر في وقت المغرب، وصلاة الصبح في وقت العتمة، حتى تبطل جميع سنن الله.

فإن قالوا: لا يجوز تحويل السنة إلا في الإمامة. سئلوا الدليل على ذلك ؟ ولا يجدون إلى ذلك سبيلاً. ويلزمهم من ذلك مثل ما لزمت الحجة في مسألة الفريضة.

وإن قالوا: إن الإمامة تطوع. لزمهم أن سننَ الله وفرائضه لا تقوم إلا بالتطوع. وهذا ما لا نحب لأحد أن يقوله.

ويُسأل الذين يزعمون أن الإمامة لا تكون إلا بالشورى من جميع المسلمين، يقال لهم: أخبرونا عن الشوررى، في الأمة جميعا أم في كل جنسٍ، أم في الفاضل أم لا تكون إلا في جنس واحدٍ؟

(102/2)

فإن قالوا: لا تكون إلا في جنس واحد. نقضوا قولهم إن الشورى لا تكون إلا بالمسلمين جميعاً.

وإن قالوا: لا تكون إلا من الأجناس جميعاً.

قيل لهم: فما بَالُ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يُدخلوا معهم في الشورى غيرهم ؟ وما بَالُ عمر لم يجعلها في الأجناس جميعاً ؟ وما باله لم يجعلها شورى بين المسلمين كلهم ؟ وهذا متناقض لا يستقيم. فأي ذلك قال انكسر عليه حتى يرجع إلى أهل الحق!

واعلم أن أَفْرضُ الفرائض وآكدها فرضُ الإمامة؛ لأن جميع الفرائض لا تقوم إلا بها. ولا يجوز تبديل فريضة الإمامة بوجهٍ من الوجوه، لأن فيها من الإفساد ما ليس في غيرها.

وإن سألوا فقالوا: ما تقولون في الإمامة فريضة هي، أم سنة، أم تطوع ؟

قيل لهم: بل أَفْرَضُ الفرائض، وآكده في الفرض.

فإن قالوا: هل يجوز أن يخالَف في هذه الفريضة (بوجه من الوجوه ؟

قيل له: لا. لأنه لو جاز أن يخالف فريضة لجاز أن يخالف الفرائض) كلها ؟

فإن قالوا: فما وجه الإمامة عندكم ؟

قيل: وَجْهُ الإمامة موضع الإختيار من الله معدن الرسالة ليكون الموضع معروفاً. والدليل على ذلك أن الإمامة موضع حاجة الخلق، فلا يجوز أن تكون في موضع غير معروفٍ، إذاً بطلت الحاجة وضاع المحتاجون، وإذا كان ذلك كذلك فسد التبيين، ودخل الوهنُ في الدين؛ لأن الله تبارك وتعالى، وضع الأشياء موضع الحاجة، ووضع للمحتاجين ما فيه صلاحهم. ولو لا ذلك لفسد التدبير، وهلك الخلق.

والدليل على ذلك أن الله بعث الرسل لحاجة الخلق، ليبين لهم ما فيه صلاحهم، وإذا لم يبين لهم ما فيه صلاحهم هلكوا. فلذلك قلنا: لا يجوز أن تكون الإمامة بعد النبوة إلا في موضع معروفٍ لحاجة الخلق إليها، وإلا فسد التدبير وضاع الخلق.

(103/2)

ومما يصدق قولنا أن الإمامة موضع حاجة الخلق، وأنه لا غناء بالناس عنه، قول الله تبارك وتعالى في كتابه: ؟يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ؟ [النساء: 59]. وقوله: ؟ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم؟ [النساء: 59]. فأمر بطاعةِ معلوم غير مجهول، وأوجب على الخلق ثلاث طاعات ترجع إلى طاعة واحدةٍ، وهي طاعة الله عز وجل. وأنه لا غناء بالناس بعد الرسول صلى الله عليه وآله من الإمام، وإلا سفكوا الدماء وانتهكوا المحارم، وغلب القويُّ الضعيف، وبطلت الأحكام والحدود، وحقوق اليتامى والمساكين، ورجع الدِّين جاهلية. فلذلك قلنا إن الإمامة لا تكون إلا في موضع معروف، حتى متى قصدوا إلى ذلك الموضع وجدوا حاجتهم، وإلا اختلفوا وهلكوا.

فإن قالوا: بينوا لنا وجه الفريضة ؟

قيل لهم: الوجه على مثال قياس الفرائض كلها، يأتي الخبر من الله فيأمر نبيه عليه السلام أن ينص رجلاً بعينه من موضع معروف، ولا يكون ذلك الموضع إلا وهم به عارفون في النسب والتقى، ليكون موضع القنوع حتى لا يقول أحدٌ أنا أولى. كما لم يجز لأحد أن يدعي أنا أولى بالرسالة من الموضع الذي بعث الله منه نبيه. وكذلك الإمامة في أرفع المواضع، وهو معدنُ الرسالة لقطع الحجة.

والدليل على ما قلنا أن الإمامة إذا خرجت من أرفع المواضع وأقربها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ادعت كل فرقة من الأمة الإمامة، ووقع الاختلاف، وفي الاختلاف إبطال الدين.
فإن قالوا: إنك ادعيت أن الإمامة بخبر من رسول الله صلى الله عليه وآله أن ينص رجلاً بعينه، فإذا قبض النبي انقطع الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله فقد تغيرت الفريضة عن جهتها ؟!

(104/2)

قيل لهم: من هاهنا غَلِطتُّم. إن الفرائض كلها على مثل ما أخبرناكم، تنزل الآية في الشيء بعينه حتى تُؤدَّى تلك الفريضة (في كل زمان على مثل الخبر الذي أنزل الله في الشيء بعينه، حتى تؤدى تلك الفريضة) على تلك الجهة وإنما عِبْنَا على من قال بخلافنا أنهم غيروا الفريضة عن جهتها، فجعلوها مرةً نصاً في رجل بعينه، ومرةً شورى، ومرةً بين ستةٍ. وإنا قلنا نحن: لا تكون إلا على هيئة واحدةٍ. ألا ترى أن صلاة الظهر نزلت في يوم من الأيام جمعةً أو سبتاً أو أحداً أو غير ذلك من الأيام مسمىً باسمٍ، ثم هي في الأيام كلها على هيئة واحدة لا تُغيَّرُ.
وكذلك قلنا في رجل بعينه في ذلك الزمان ثم في كل زمانٍ في رجل واحدٍ، ولو كانت الأسماء مختلفة والقرابة والتقى والفضل واحدٌ، فهذا قياس ما قلنا، فافهموا مغاليط أهل الخلاف. وكذلك على الناس أن يؤدوا جميع الفرائض على مثل هذا القياس. وكذلك الإمامة في أبرِّ الخلق وأتقاهم، وأن يؤدوا هذه الفريضة حيث أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
فإن قالوا: فقد زعمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصه بعينه، كذلك قلنا: نحن بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيَّن لنا صفته. فوجدنا أبا بكر في تلك الصفة، فَلِمَ عبتم علينا ؟!

(105/2)

قلنا لهم: لأنا ادعينا أن الله تبارك وتعالى أنزل الآية والموصوف موجودٌ. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله أولى بإقامته للناس باسمه وصفته. وقولنا: أولى من قولكم إن الناس كانوا أولى بأن يخرجوا الموصوف. وأنتم إن أبطلتم بألفاظكم هذا، فقد يدل فعالكم عليه، حيث زعمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يسمه باسمه، ولم ينصبه لهم، إنهم حيث سموه وأقاموه بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا توفيق من الله بعد النبي صلى الله عليه وآله ما لم يُبَيِّن لهم في حياته. ونحن قلنا كان رسول الله صلى الله عليه وآله أولى بأن يبين الاسم والصفة؛ لأن البيان من رسول الله صلى الله عليه وآله ليس كالبيان من غيره. فمن هاهنا قلنا إن رسول الله صلى الله عليه

وآله نصبه باسمه ونسبه.

فإن قالوا: إنا قد نراكم رجعتم إلى قولنا في الصفة والاسم بعد الأول أيضاً بالصفة، فما الفرق بيننا وبينكم ؟

قيل لهم: إن اسم رجل بعينه لا يكون للناس كلهم، ولكن يكون النسب والفضل واحدٌ. وأنتم زعمتم أن الاسم والنسب مخالفٌ. فهذا الفرق بيننا وبينكم في الدعوى.

فإن قالوا من أين ادعيتم أنه معدنٌ واحدٌ دون المعادن كلها ؟

(106/2)

قيل لهم: لأنه لو كانت معادن مختلفة لم يجز أن يكون الأمر إلا بالشورى. ولا تجوز الشورى إلا في القبائل التي تجوز لهم الإمامة. فإذا ذهبوا إلى أن يجمعوا أهل الشورى من كل قبيلة، لم يجز إلا أن يختاروا من أهل الاسلام جميعاً، وإذا كان ذلك لم يجز إلا جمعهم من الآفاق كلها جميعاً، مع أنه لا يكون ذلك إلا برضاهم جميعاً، ولو جاز اجتماعهم اختلفت هممهم أن يكون الأمر فيهم. وفي اختلاف هممهم ومشاورتهم منازعة، لأن كل قومٍ يقولون: لهم فضل الإمامة؛ لأن البنية على هذا. فإذا وقعت المنازعة وقعت الفتنة، وإذا وقعت الفتنة وقع الحرب، وإذا كان ذلك تفانوا. فإذا ما وقعوا فيه من الشر والفساد أعظم مما طلبوا من الصلاح في طلب الإمامة، ولم يكن الله تبارك وتعالى يفرض عليهم فريضةً يريد بها صلاح عباده، فتكون تلك الفريضة عليهم وبالاً وهلاكاً وفساداً. مع ما يدخل من النقص في التوحيد والرسالة، فمِن قِبَل ذلك قلنا: لا يجوز إلا أن تكون في مكانٍ معروفٍ.

فإن قال قائلٌ: إنما جعل الله الإمامة في قريش وهي معروفةٌ، فما دليلكم في الموضع الذي تدَّعون ؟

قيل لهم: لأنكم إذا ادعيتم أنها في قريش دون غيرها كانت الحجة لنا عليكم، ولقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا غيرها. فإن كان ما قلتم حقاً فنحن أولى بما ادعينا من القرابة؛ لأنهم أقرب برسول الله من موضعكم الذي ادعيتم وأبينُ فضلاً.

(107/2)

واعلم أنه لا يجوز أن يقوم مقام الرسول صلى الله عليه وآله مَن إذا قضى بقضية أو أحدث حدثاً مما لم يأت عن الله ولم يحكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وراجعه فيه من هو أعلم منه بالله رجع عن حكمه واعتذر، وكان قوله: (عَلَيَّ شيطانٌ يعتريني، فإذا رأيتم مني ذلك فاجتنبوني لا أبدر في أشعاركم وأبشاركم) فهذا لا يصلح للإمامة، ولا يجلس في مجلس رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم. ولا من كان إذا حكم بحكم فقيل له أصبت يا أمير المؤمنين يعلوه بالدرة، ويقول: (لا تزكونا في وجوهنا فوالله ما أدري أصبتُ أم أخطأت، وما هو إلا رأي رأيته من نفسي). فيخبرهم أنه لا يدري أصاب أم أخطأ، وهم يشهدون له أن (السكينة تنطق على لسانه). يخبرون عنه بخلاف ما يخبر عن نفسه، ويجعلون له من التوفيق ما يجعلون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وإنما يصلح للإمامة ويخلف النبي صلى الله عليه وآله في أمته، من كان إذا صعد المنبر يقول: (سلوني قبل أن تفقدوني، فعندي علم المنايا والقضايا، والحكمة والوصايا، وفصل الخطاب، والله لأنا أعلم بطرق السماء من العالم منكم بطرق الأرض، وما من آية نزلت في ليلٍ ولا نهارٍ، ولا سهلٍ ولا جبلٍ إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وفيما أنزلت، ولقد أسرَّ إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكنون علمه ألف بابٍ يفتح لي كل بابٍ منها ألف باب، نحن النجباء، وأبناء النجباء، وأنا وصي الأوصياء، وأنا من حزب الله وحزب رسوله، والفئة الباغية من حزب الشيطان والشيطان منهم، وأفراطنا أفراط الأنبياء ولا يقوم أحدٌ يسأل عن شيء إلا أخبرتُه به غير مُتريِّث) والله تعالى يقول: ؟ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ؟ [يونس:35]. والإمامة لا تكون إلا في موضع الطهر، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، وجوهر النبوة ؟الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ؟ [الأحزاب: 33] وأمر بمودتهم بعد

(108/2)

نهيه عن مودة مَن حآده، وليس يخالف الحق إلا أهل العناد لله ولرسوله، والبغي والحسد والجهالة، ممن لا رَوِيَّة له من المرجئة، والقدرية، والنواصب، وجميع الخوارج، ممن خالفنا أو حاد عن الحق، وقال برأيه، وقد فسرنا في كتابنا هذا ما يدخل على من خالفنا ما يستدل بدونه مَن نصح لنفسه، وترك المحاباة على ما سبق إلى قلبه، فمَن فهم بعض ما وصفنا، دَلَّه على كثير مما يريد وبالله نستعين، وعليه نتوكل وإليه نفوض أمورنا مستسلمين له، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي وأهله وسلم.

(109/2)

[الوصية]

وسألت: عن الوصية ؟

فاعلم أن الله تبارك وتعالى أوصى العباد بوصايا، وأرسل الرسل بوصايا، وأوصى محمدا صلى الله

عليه وآله وسلم وعلى آله بوصايا، منها ظاهرة ثبتت بها الحجج على من سمعها وعقلها، ومنها وصايا خاصة لعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى آله، وليست للناس إلا أن يشاء علي أن يعلمها، فضيلة من الله لعلي.

من ذلك قول الله: ؟ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم... ؟ [النساء:1] الآية، والثانية ؟ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ؟ [البقرة:21]، و ؟ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ؟ [النساء: 135]، وقوله: ؟ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ؟ [الإسراء: 23]، وقوله: ؟ وتعاونوا على البر... ؟ [المائدة:2] الآية. وقوله: ؟ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ؟ [النساء:11]، وقوله: ؟ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ؟ [الحج:1]، وقوله: ؟ إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين ؟ [البقرة: 180]، يعني خيرا: مالاً. ثم نسخ ما جعل الله للوالدين من الوصية بالميراث، وجعل ما بقي للأقربين ممن لا يرث، وقال: ؟ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ؟ [العنكبوت: 8]، وقال: ؟ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ...إلى قوله: المفلحون ؟ [آل عمران: 104]، ثم خبرهم فقال: ؟ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف... ؟ [آل عمران: 10] الآية. وقال: ؟ الذين إن مكناهم ... ؟ [الحج:41] الآية.

(110/2)

ومن ذلك وصايا الأنبياء صلوات الله عليهم جميعا، قوله: ؟ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ... إلى قوله: تدعوهم إليه ؟ [الشورى: 13]، وقول الله تبارك وتعالى: ؟ ووصى بها إبراهيم بنيه ... ؟ [البقرة:132] الآية. وقال رسول الله صلى الله عليه: (المهدي . في بُدِيِّ دولتهم وسماه باسمه واسم أبيه . اسمه باسمي، واسم أبيه باسم أبي، سخي على المال، شديد على العمال، رحيم بالمساكين). والشريطة فيمن لم يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باسمه في غير وقت دولتهم، مَن كان من العترة، فيه العلم، والجهاد، والعدل، وأداء الأمانات، فإذا كملت هذه الشريطة في رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه، وهي أكمل الدرجات في كتاب الله، في رجل من أهل بيت الطهارة والصفوة، وجب على أهل بيته وعلى أهل الإسلام اتباعه وتقدمته، ومعاونته على البر والتقوى.

فإن زعم زاعم أنه لا يصلح أن يكون الإمام إلا واحد، فإن النبوة أعظم قدرا عند الله من الإمام، قال الله تعالى: ؟ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ؟ [يس:14]، وقال لموسى وهارون: ؟ اذهبا إلى فرعون ؟ [طه: 43]، وكان إبراهيم وإسماعيل ولوط في زمن واحد يدعون إلى الله، فإذا استقام أن يكون الداعي إلى الله من الرسل في زمن واحد اثنين وثلاثة، فذلك فيما دون النبوة أَجْوَزُ.

تم ذلك والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد المختار، وآله الأطهار، المنتجبين الأبرار، المصطفين الأخيار، الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

(111/2)

[إمامة علي بن أبي طالب]

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه عن إثبات الإمامة والخلافة لعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه ؟

فقال: إنما وجب على الناس طاعة علي وتقديمه، لفضل علي في دين الله، وسوابقه في جهاد أعداء الله، التي لم يبلغ مثلها – ممن كان مع النبي صلى الله عليه جميعا – بالغ، ولم يكن يلحق به من جميع أصحابه لاحق، مع قرابته القريبة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وفضله في العلم والفقه عن الله، فإذا كانت فضائله في الجهاد مما لا ينكرها منكر، وكان فضل علمه على ما لا يدفعه دافع، عالم ولا جاهل إلا أحمق مكابر، وكان له من القرابة الخاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله ما ليس لغيره، مع ما جاء من تتابع الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتواتره في إجلاله لعلي وإشارته إليه، وما قال من الأقاويل فيه، ومن الدلالة على فضله ما لم يقل مثله في غيره .

وجب على الناس تقديم علي بالإمامة وتفضيله، وكان من قدَّم غيره عليه فقد قدم المفضول على الفاضل، وخالف في ذلك الصواب الذي دل الله عليه، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وأهله وسلم، وبلَّغ مَن فَهِمَ ما لله من الحكم الرشيد العادل، بتقديم المقدَّم وتأخير المؤخَّر، مع خلاف أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدلالة على علي وفضله، ووضع الأمر في غير معدنه وأهله، تم والحمد لله كثيرا بكرة وأصيلا.

قال الإمام الهادي في الأحكام: حدثني أبي، عن أبيه، أنه سئل عن إمامة علي بن أبي طالب رحمة الله عليه أفرض هي من الله ؟

(112/2)

فقال: كذلك نقول وكذلك يقول العلماء من آل الرسول عليه وعلى آله السلام، قولاً واحداً لا يختلفون فيه. لسبقه إلى الإيمان بالله، ولما كان عليه من العلم بأحكام الله، وأعلمُ العباد بالله أخشاهم لله. كما قال الله سبحانه: ؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ؟ [فاطر:28]، فأخشاهم

أهداهم، وأهداهم أتقاهم، وقد قال الله سبحانه: ؟ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ؟ [يونس:35]، وقال تبارك وتعالى: ؟ والسابقون السابقون، أولئك المقربون، في جنات النعيم ؟ [الواقعة 10 – 12]. فأسبق المؤمنين إلى ربه، أولاهم جميعا به، وأدناهم إليه، وأكرمهم عليه. وأكرم العباد على الله، أولاهم بالإمامة في دين الله، وهذا بيِّن والحمد لله لكل مرتاد طالب، في علي بن أبي طالب، رحمة الله عليه، لا يجهله إلا متجاهل جائر، ولا ينكر الحق فيه إلا ألدٌّ مكابر.

حدثني أبي، عن أبيه، أنه سئل عن من حارب أمير المؤمنين ؟ وعمن تخلف عنه في حربه فلم يكن معه ولا عليه ؟

فقال: من حاربه فهو حرب لله ولرسوله، ومن قعد عنه بغير إذنه، فضال هالك في دينه.

وحدثني أبي، عن أبيه، أنه سئل عمن يشتم أمير المؤمنين، أو قذفه استخفافاً بالفضل وأهله، وجهلاً بما جعل الله لأمير المؤمنين عليه السلام من فضله ؟

(113/2)

فقال: يحكم عليه الإمام بما يرى ويكون بشتمه إياه فاسقاً كافراً، فإذا فهم ولاية أمير المؤمنين عليه السلام واعتقدها، وقال في كل الأمور سراً وعلانية بها، وجب عليه التفضيل والاعتقاد، والقول بإمامة الحسن والحسين الإمامين الطاهرين، سبطي الرسول المفضلين، اللذين أشار إليهما الرسول، ودل عليهما، وافترض الله سبحانه حبهما، وحب من كان مثلهما في فعلهما من ذريتهما، حين يقول لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ؟ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ؟ [الشورى:23]، ويقول: ؟ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ؟ [التوبة:119]، ويقول في جدهما وأبيهما وأمهما وفيهما: ؟ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ... إلى قوله: فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ؟ [الإنسان: 5–7]، وفيهما ما يقول الرسول عليه السلام: (كل بني أنثى ينتمون إلى أبيهم إلا ابني فاطمة فأنا أبوهما وعصبتهما)، فهما ابناه وولداه بفرض الله وحكمه، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى في إبراهيم صلى الله عليه: ؟ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ؟ [الأنعام: 84 – 85]، فذكر أن عيسى من ذرية إبراهيم، كما موسى وهارون من ذريته، وإنما جعله الله ولده وذريته بولادة مريم، وكان سواء عنده سبحانه في معنى الولادة، والقرابة ولادة الابن وولادة البنت، إذ قد أجرى موسى وعيسى مجرى واحداً من إبراهيم صلى الله عليه، ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل

بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: (مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها

(114/2)

غرق وهوى)، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: (ما أحبنا أهل البيت أحد فزلت به قدم إلا ثبتته قدم حتى ينجيه الله يوم القيامة)، وفيهم يقول: (النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت النجوم من السماء، أتى أهل السماء ما يوعدون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي من الأرض، أتى أهل الأرض ما يوعدون) .

(115/2)

الهجرة للظالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، ولا قوة إلا بالله، الذي جل عن كل ذكر ذكره، وعز في كل أمر أمره، فلم يدل له سبحانه أمر بتناقض ولا اختلافٍ، ولم يصغر له ذكر عن جليل ولا كبير من كرائم الأوصاف، بل كلَّ عنه جل ثناؤه كريم الصفات، وأمورُ مَن خالفه فلم يحكم بحكمه فهن المختلفات، اللاتي لا يعدل بهن حيف عن ميل، ولا يُهتدى منهن إلى حق بدليل، بل الهدى منهن ممنوع، وكل ضلالٍ فهو فيهن مجموع، لا يأوي إليهن هدىً، ولا يَقِينَ من ردى، بل كلهن ظلمة، وصمم وعمىً وبكمة، كما قال سبحانه في أهلهنّ، ومن كان مؤثراً من العماة لهن، ؟صم بكم عمي فهم لا يرجعون ؟ [البقرة:18]. فسبحان من خذل أعدآءه فأصمهم وأعماهم، ونصر وتولى أولياءه فأعزهم وهداهم، فلم يُذل له ولياً، ولم يجعله عمياً، ولم يُرِه في عاجلٍ ولا آجل من ذلٍّ سُوًّا، ولم يوال له قطّ عدواً، بل حكم . جل ثناؤه، وعزَّت بعزته أولياؤه . لأوليائه بالمحبة والموالاة والمقاربة والإدناء، وخصهم في كل حكمة لهم في هذه العاجلة بكل حسنى، من البر والصلة والمجاورة والرضى، وكَّدَ بذلك كله لهم على عباده فرضاً، لا يسع محجوجاً منهم إضاعته، ولا يتم منهم لله إلا بأدائه طاعته.

(116/2)

[صفات أولياء الله]

فسبب أولياء الله من الله بكل كرامة موصول، وعملهم بولايتهم لله في كل خير عند الله مقبول، لا يحبط مع زكي عملهم لهم بِرٌّ ولا عمل، ولا يلم بهم بعد ولاية الله لهم صغرٌ ولا ذل، بل لهم مع ما حكم الله به لهم على العباد من البر والمحبة، ما ذكر الله سبحانه من الفلاح والفوز والنصر والغلبة، فاسمعوا هُدِيتهم لذكر الله في ذلك، وخبره فيهم عن أنه كذلك، إذ يقول سبحانه: ؟قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون الذي يرثون الفردوس هم فيها خالدون؟ [المؤمنون: 1 – 11]. ويقول سبحانه: ؟ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون؟[النور: 52]، ويقول جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ؟ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟[يونس: 92]. ويقول سبحانه في إعزازه في الدنيا لأوليائه، وما منَّ به عليهم فيه من نصره وإعلائه: ؟إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون؟[الصافات: 173] وفي ذلك ما يقول الله تعالى: ؟ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون؟[المنافقون: 85]. وقال فيما وصفهم به من الإخاء والولاء: ؟إنما المؤمنون إخوة؟[الحجرات: 10]، فثبتت بينهم بتثبيت الله في الله ولله الموالاة والأخوة، فهم الإخوة المتبارُّون، والأولياء المتناصرون، والمؤَمَّنُون بمنِّ الله عليهم من كبائر العصيان، (و بإيمانهم استحقوا عند الله اسم الإيمان، فسماهم به ودعاهم)، وبإيمانهم من كبائر عصيانه أعطوا هداهم، كما قال الله الذي لا إله إلا هو: ؟والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم؟ [محمد: 17]، وبتقوى الله التي هي خشية الله وإكباره،

(117/2)

وإجلال الله عن العصيان وإعظامه، تمت من الله عليهم النعم، وثبت عند الله لهم الكرم، فقال سبحانه: ؟إن أكرمكم عند الله أتقاكم؟ [الحجرات: 13]، فاتقوا الله فقد علَّمكم وهداكم، واطلبوا النجاة والكرم بتقواه، فبها كَرُمَ عنده ونجا من آتاه هداه، فلن يوجد البر والتقوى أبداً إلا في كريم، ولا الفجور والعصيان ما بقيت الدنيا إلا في لئيم.

وفي الفريقين ما يقول الله تعالى في كتابه الحكيم: ؟إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم؟ [الانفطار: 13 . 14]، وفي المؤمنين الأتقياء الأبرار، بعد الذي وصفهم الله به من التَّحآبِّ والتَّبآر، ما يقول الله: ؟والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم؟ [التوبة:

71]، فجعل دار المؤمنين والأبرار، خير محلٍّ ومنزل ودار، جعلها سبحانه دار أمن وإيمان، ظَاهَرَ فيها كل برٍّ وإحسانٍ، يؤمر فيها بما يرضي الله سبحانه من التقوى والبر والمعروف، بغير ما تَقَيَّة فيها للظالمين ولا رهبة ولا مراقبة ولا خوف، ويُنْهَى فيها عما يُسْخِط الله من المنكر والطغيان، وما لا يحبه الله من الفسوق والعدوان.

(118/2)

[وجوب الإنكار أو الهجرة]

فما بال من أبَرَّ وأطاع فلم يَعْص، وحلول دار كل ظالم متعدٍّ لص، لا يُؤمِن ليلَه ولا نهارَه، ولا تستتُّر عمَّن حالَّه أسرارُه، في عصيان الله ومشآقته، ولا يخفى عنه ولا يتوارى، مجاوراً لمن أسخط الله فيها لما يراه قاهراً ظاهراً، لا ينكره منه بلسان ولا يدٍ، ولا يقوم لله فيه بدفاع ولا ردٍّ، ذليلاً بين أظهرهم وفي جورهم، محكِّماً لهم على نفسه في فجورهم، إن كذَّبهم في افترائهم على الله كُذِّب، وإن باينهم بمخالفة في الله صُلب أو عُذِّب، غير ممتنع منهم بغلب ولا مُعآزّة، ولا مهاجر عنهم إلى دار عزٍّ أو مفازة، من فلاة ولا جبل وعر، أو بعدٍ أو مهرب أو مستتر، يستره عنهم ومنهم، ويفرق ما بينه وبينهم، مع ما وسَّع الله لمن صدقت إرادته لله من المهارب، وما جعل الله في أرضه لمن هاجر في سبيله من المذاهب، التي فيها لمن ظلم وتعدى مسآءةٌ وإرغام، ولمن أسلم نفسه إلى الله هدى وإسلام، كما قال الله سبحانه: ؟ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً؟ [النساء: 100].

(119/2)

[التمييز بين أولياء الله وأعداءه]

فكل ما ذكرنا من الجوار والمقاربة، والإكرام والتوآد والمحآبَّة، والنصر والولاء، والبر والإخاء، فحكم الله جل ثناؤه في أوليائه، ثم حكم الله سبحانه بعدُ في أعدائه، بخلاف ما حكم به للأولياء، تفريقاً بين مفترق الأشياء، كما قال جل جلاله فيما نزل من الفرقان: ؟أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار؟ [ص:28]، وقال سبحانه: ؟أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون؟ [القلم: 35]، وقال تبارك وتعالى: ؟أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون؟ [السجدة: 18]، فلم يسو بينهم عند ذي علمٍ، في اسمٍ منه لهم ولا حكم، وكان

حكمه تبارك وتعالى على أعدائه ما لا يجهله ذو علمٍ، من لعنته وإخزائه، ومقته لهم وإقصائه، وما حكم به من هجرتهم على أوليائه، وما وكَّد على العباد من فرضه، في مجانبه كل مجرم وبُغضِه، وما أوجب الله على الأبرار، من الهجرة للظالمين في المحل والدّارِ، وما ألزم الظالمين من الصَّغار والذل، وما حكم به على بعضهم في ظلمه من القتل، وعلى بعضهم من القطع والصلب، وعلى بعضهم من السجن وألوان النكال والضّرب، وما أوجب الله على الظالمين من الخزي في الظلم، وما حكم به عليهم في ذلك من الحكم، فما لا يعمى عنه من نوَّر الله قلبه في معرفة الحق بضياء، ولا يخفى على محجوجٍ من الخلق فيما يخفى عليه من الأشياء، ولا يحق لمن جهله حقيقة الإيمان، ولا يتم لمن عطَّله مثوبة الإحسان، بل يحبط الله عمله، بما جهل منه وعطَّله.

(120/2)

[التحذير من موالاة أعداء الله]

ومن صار لعدوٍّ من أعداء الله، إلى محبّة أو موالاة، أو مسالمة أو مراضاةٍ، أو مؤانسة أو موآدَّة أو مداناة، أو مقاعدة أو مجاورة أو اقتراب، فضلاً عن توآدٍّ أو تحآبٍّ، فقد باء صاغراً راغماً من الله جل ثناؤه بسخطه، وهلك في ذلك بهلكة عدوّ الله وتورط من الهلكة في متورَّطِه، وكان في الإساءة والجرم مثله، وأحله الله في العداوة له محلَّه، وجعله الله لموالاته لمن عاداه، ولم يَصِر إلى ما أمره الله به من تقواه، ونسبه لموالاته لهم إليهم، وحكم عليه بما حكم به من السخط واللعنة عليهم، فرحم الله امرأً، أحسن لنفسه نظراً، فسمع في ذلك عن الله وقيله، واتبع ما نزله الله في ذلك من تنزيله، فإنه يقول سبحانه: ؟ومن أصدق من الله قيلاً؟ [النساء: 122]، ويقول أيضاً في الكتاب: ؟ونزلناه تنزيلاً؟ [الإسراء: 116]، وقد قال سبحانه في فريضته هذه بعينها، وما نزل به سبحانه كتابة من تبيينها: ؟يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعضٍ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين؟ [المائدة: 51]، فأخبر سبحانه أنه من والى من الفريقين من عادى، فَلَيسُوا ممن وهبه الله ولا أعطاه الهدى، لجهلهم بحكم الله في ذلك عليهم، وجعلهم بموالاتهم لهم منهم ونسبهم إليهم، ودعاهم بموالاتهم لهم كما دعاهم ظالمين، فتبارك الله أحكم الحاكمين، الذي لا يعتريه وهمٌ ولا جورٌ في حكمه، ولا يحاط إلا بما شاء من علمه، ؟لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون؟ [القصص: 88]، ولا يحكم سبحانه في صغير من الأمور ولا كبير كما يحكم الذين لا يعلمون، ولكنه يقضي الحقّ وهو خير الفاصلين، ولا يغفل في الأشياء كغفلة الغافلين، فيتناقض حكمه وأمره، ويسوء بتناقضٍ أو خلافٍ ذكره.

(121/2)

[مرض القلوب]

ثم دل سبحانه على خفي مرض قلوب الموالين، لمن أمر بمعاداته وهجرته من الظالمين، فقال سبحانه: ؟فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين؟ [المائدة: 52]، فنبأ سبحانه بما كانوا يقولون، وبإحباطه ما كانوا يعملون، وأنهم بموالاتهم لعدوّ المؤمنين ليسوا منهم، وبيّن الله للمؤمنين ما كانوا يسترون من ذلك عنهم، فأما ما ذكر الله من مسارعتهم فيهم، فهو [ما] كان بيِّناً غير مستور يرونه بمعاملتهم لهم ومصيرهم إليهم، مقبلين في كل وقتٍ ومدبرين عليهم، ألا تسمعون لقول الله سبحانه ؟فترى؟، ولا يرى صلى الله عليه إلا ما كان له معايناً مبصِراً، فأما مرض قلوبهم، وما كانوا يخفون من عيوبهم، في الشك والارتياب والحيرة، وما كانوا عليه للدنيا من الحب والأثرة الكبيرة، فإنما يتبين عند ما يأتي به الله المؤمنين من النصر والفتح، فعند ذلك بالحسرة والندامة يفتضح من المرتابين كل مفتضح: ف؟يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين؟ [المائدة: 52]، فخسَّرهم الله أعمالهم، وصيَّرهم بموالاتهم لهم مثلهم كافرين، وقال سبحانه بعد هذا من أمره كله للمؤمنين، ؟يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم؟[المائدة: 53]، فأخبرنا سبحانه أنه لن يحبه ولن يُحب، ولن يزكو عنده ولم يطب، من لم يذل لأوليائه، ويعز على أعدائه.

(122/2)

[مجالسة الظالمين مهلكة]

فلعمر أبي من جاور عدو الله من الظالمين، ما عز عليهم ولكنه كان لهم من الأذلين، ولعددهم في محلهم من المكثرين، ولدار ظلمهم بحلولها من العامرين، فنعوذ بالله من الشقوة في الدين، والمكابرة لما جاء فيه عن الله من اليقين.

فحذَّرَ . سبحانه من والاهم، بمودةٍ أو مجاورة فداناهم . الارتداد . بذلك من موالاتهم عن دينه، ومن قبل ذلك ما أخبر بمرض قلبه في يقينه، وكيف لا يكون من والاهم مرتداً إليهم، وقد حكم الله عليه بحكمه عليهم، فكُفرُه بموالاته لهم ككفرهم، وأمره في الكفر لنعم الله أمرهم، وكيف لا يكون في الكفر كهم، وقد جعله تبارك وتعالى مثلهم، فقال سبحانه: ؟وقد نُزِّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزئ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله

جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً؟[النساء: 140]، فجعلهم الله سبحانه في موالاتهم لهم من المنافقين والكفار، وأحهلَّم جميعاً كلهم محل أهل النار. وما ذكر الله عنهم، ولا سخط سبحانه منهم، عند ذكره في الولاية لهم، سِوى ما ذكر من الموآلاة، بالمقاعدة والمدآناة، فكيف من رَمَى إليهم بإخائه ووده ؟! وكثَّر عددهم بشخصه وعدده ؟ وعمر ديارهم وأسواقهم ومحافلهم بمحله وابتنائه، فلعله بذلك أنفع لهم ممن خصهم بودّه وإخائه، فهو عامر لهم ومكثِّر، ووليٌ لهم من حيث لا يشعر، فهم خيرته وأولياؤه، وفيهم مسكنة وثواه .

(123/2)

وقد قال الله للمؤمنين جل ثناؤه: ؟إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون؟[المائدة: 56] فبَرَّأهم الله عز وجل من ولايته وحزبه، وولَّى كل امرئ منهم ما هو أولى به، كما قال سبحانه: ؟ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولَّى ونصله جهنم وسآءت مصيراً؟[النساء: 115].

ثم قال سبحانه بعقب ما قدَّم في الولاية من الآيات، وأوضح فيما أمر به فيها من البينات، تكريراً لنهيه عن موالاة الظالمين وترديداً، وتوكيداً لحكمه في مجانبة دار المعتدين وتشديداً: ؟يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين؟[المائدة: 57].

(124/2)

فما ارتكب الظالمون من قتل الأبرار وصلبهم، أكبر عند الله أضعافاً مضاعفة من الاستهزاء بهم، والتلعب بالأنبياء، كالتلعب والاستهزاء بما جاؤا به من الأشياء، وكذلك التلعب بأولياء الله، كالاستهزاء بالدين عند الله، ولذلك أخبر الله سبحانه أنهم إن لم يكونوا لمن عاداه من المعادين، فليسوا لما ينتحلونه من الايمان بمستحقين، ولا في دعواهم له وتسميتهم به من المصدَّقين، ولا فيما أوجبه عليهم من هجرة من ظلم وتعدى من المتقين، بل حالهم في ترك ما حكم عليهم من ذلك حال مَن جهل واستهزأ، وأعرض عما أُمِر به من تقوى الله فيه طُغَىً وتعززاً، كما قال الله سبحانه فيما هو أقل من هذا قلةً، وأصغر عنده قدراً ومنزلة، من الظلم والاعتداء، فيما طُلِّق من النساء: ؟وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل

ذلك عدواناً فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوًا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم؟[البقرة: 231].

وقال سبحانه فيمن تعزز واعتدى، وأبى ما دُعي إليه من التقوى والهدى: ؟ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد؟[البقرة 204 . 206]، فيكون . عند من يعقل مستهزياً، وظالماً في الدين متعدياً . من أمسك وهو يعول ويمون زوجته وهي [ا]مرأته ضراراً، ومَن قيل له اتق الله فتعزز على قائلها وأدبر نفاراً، أو لا يكون مَن ترك حكم الله فيما تلونا من الآيات، من المستهزئين المتعززين المعرضين العتاة ؟! كلا لن يكون أبداً ذلك، إلا عند كل عميٍّ كذلك.

(125/2)

ألا تسمعون لقول الله سبحانه، فما أوضح حجته وبيانه: ؟وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً؟[النساء: 140]، فجعلهم كهم ومثلهم، ولم يعملوا في كل أمر عملهم، فكيف يكونون مستهزئين كافرين ؟! إن لم يكونوا كهم كفرة مستهزئين، هذا ما لا يَجهل – والحمد لله – بَيَانَهُ، مَنْ أَوضح الله عنده للحق برهانه.

ومن أين يقوم من لم يؤدّ فريضة الله في هجرة دار الظلم، بما حكم الله به على الظالمين من الحكم، في القتل والقتال، وما يجب عليهم من الانكار في معصية ذي الجلال، لَذَلِك أُعزُّ عليه عِزة، ولهو فيه أكثر معجزة، والله المستعان فيما يكون وما كان، ونسأل الله العفو والغفران، لما مضى من صحبتنا للظلم والطغيان، بحلول دور أهل الفجور والعدوان.

فمَن رأيتم – وفقتم وهديتم – صَحِبَ ما يكره من الأمور ويشنأ، أو جاور منكم أو من غيركم ما لا يرضى، وهو يجد منه بداً أو عنه مندوحة، وله إلى هربٍ منه سبيلاً أو طريقاً مفتوحةً، أو تخشون ألا يكون من جاور ورضي بالمقام، سخط ما يسخط الله جل ثناؤه من الظلم والآثام، بل يخافون ألا يكون من فعل ذلك وَجَدَ مسَّ عدم الاسلام، فهو سليم لتلك ولجهله بها مما مسَّ أهله لعدمه من الآلام .

فنعوذ بالله من الرضى بسخطه، ومن كل موالاةٍ لمسخطه، فإنه لا نجاة لأحد مع موالاتهم، التي منها ما ذكرنا من جوارهم ومداناتهم.

(126/2)

ولما أراد الله برحمته من نجاة أوليائه، نهاهم وأكد وردد نهيهم عن موالاة أعدائه، فلم يسهل سبحانه فيها، ولا فيما نهى عنه منها، لمؤمنٍ في أبيه ولا أخيه، ولا في أحدٍ من أقربيه، وأزال . عمن وَالَى منهم أحداً، أو مَنَحَه في جدٍّ أو هزلٍ وُدًّا . الإيمان بالله واليوم الآخر، وجعله بهما وفيهما كالكافر، فقال سبحانه: ؟لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدُّون من حآدَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون؟[المجادلة:22]، وقال سبحانه: ؟يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون؟[التوبة: 23]، فأنزل سبحانه بتظليمه لهم في ولايتهم إياهم وحياً، ثم قال تبارك وتعالى بعدُ للمؤمنين تقدماً ونهياً: ؟لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير؟[آل عمران: 28]. فأخبر سبحانه كل برٍّ تقي، أن مَن وَالَى مَن كَفَرَ أو ظَلَمَ فليس منه في شيء، لا في وِلاية من الله ولا ارتِضَى، ولا في برٍّ عند الله ولا تُقَى. ثم قال في آخر نهيه للمؤمنين، عما نهاهم عنه من موالاة الكافرين: ؟ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد؟ فدل سبحانه بقوله: ؟رؤوف بالعباد؟ على أن موالاة أهل الكفر والفساد، من مَسَاخِطِهِ العظام الشداد، إذ كان الرؤوف الرحيم، لا يسخطه إلا الذنب العظيم.

(127/2)

وقال سبحانه: ؟يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً؟[النساء: 144]. فأخبر سبحانه أن ذلك منهم إن لم يفعلوه تقاةً نفاق، وأنه منهم ظلم وكفر وشقاق، وأنهم كهم كفار، وأن مصيرهم جميعاً إلى النار، لكفرانهم وفسقهم، وعصيانهم ونفاقهم.

ولو كان المنافقون الذين ذكر الله غيرهم، لما صيَّرهم من الدرك الأسفل مصيرهم، ولما كان في قوله: ؟إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار؟ [النساء:145]، لهم من موعظة ولا معتبر ولا تحذير ولا ازدجار، ولكان القول في ذلك، لو كان القول كذلك، كالقول في فرعون وهامان وقارون، هم فجرة ظلمة كافرون، فما كان يكون في هذا لو كان من نذير، أو تعبير أو موعظة لأحد أو تذكير.

وكيف ينكر مَن آمن بالله أن يكونوا كافرين لنعم الله ؟! ومنافقين في دين الله، أو يزال النفاق والكفر

عنهم، وقد جعلهم الله بولايتهم لهم منهم، ونسبهم في منزل كتابه إليهم، فاسم النفاق والكفر واقع عليهم؛ لأن من كان من قوم أو دين أو حُكم، لزمه ما يلزمهم من حكم واسم.

فأما قوله جل ثناؤه في الآيتين: ؟من دون المؤمنين؟، فإن من تأويل من دونهم عندي ووجوه فهمه والله أعلم فيهم، تعريجهم ونزولهم من دون المؤمنين عليهم، وحلولهم بالمجاورة لهم بين أظهرهم، واختلاطهم في المعاملة بهم، لما في المعاملة، من لين التراجع والمقاولة، وما يكون في ذلك، إذا كانوا كذلك، من زوال الغلظة، والاشتغال عن العظة، وقد أمر الله تعالى جده، ووجب في كل حكم حَمدُه، بالعظة لهم، والغلظة عليهم، كما أمر بقتالهم، والمجانبة لأعمالهم، فقال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله، : ؟يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ؟[التوبة: 73].

(128/2)

[مجاورة الظالمين شقاء وفتنة]

وقال سبحانه فيمن تعدى أمره وحكمه:؟فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً، أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً؟[النساء: 62 . 63]. ومن الإعراض ما ذكرنا من الهجرة والمصارمة، ومنها أيضاً فرفض للمخاطبة والمكالمة، والغلظة فمنها العظة وهي من يسيرها وقليلها، لا من كثيرها وجليلها، فكيف يكون مغالظاً ؟! من لم يكن لمن ظلم واعظاً! وكيف يكون مهاجراً لمن ظلم مجاهداً ؟! من كان مُؤاكلاً له أو معاملاً أو مقاعداً! لا كيف وإن عارض فيه معارض بتحيير أو تشبيه، أو شبَّه فيه على جائر بضروب من الحيرة والأماويه، أما يسمعون لقول الله جل ثناؤه: ؟يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين؟[التوبة: 183]. فأمرهم سبحانه بالغلظة في القتال والمقال على الكافرين.

وكيف يعقد لهم سبحانه حرمة الجوار ؟! وقد أوجب ما أوجب من حقوق الجار ! وأمر بالإحسان إليه، والإفضال عليه، فقال: ؟واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب؟[النساء: 36]، فلو كان الأمر في هذا كما ظن من يجهل لكان هذا تناقضاً في أحكام الرب، ولكنه سبحانه أوجب عليهم حقوق الجوار، بعد أن أمرهم بمهاجرة الكفار.

وكيف يؤكِّد لمن كفر حق الجوار على المؤمنين وحُرَمَه ؟! وقد أمر أن يقاتلوا من كفر ويسفكوا دمه، إن في هذا من الاختلاف والبعد، لَمَا لا يخفى على من وهبه الله أقل الرشد، فنعوذ بالله من الحيرة

في دينه، ومن الضلالة بعد هداه وتبيينه، عمي من خالف حكم الله في هجرة دار الظالمين بهواه، فأسلمه الله إذ اتبع الهوى إلى عماه.

(129/2)

أو ليس بمعلوم فيما فطر الله من العقول، وفي أقل ما يوجد بها من فهم كل معقول، أن مَن جاور لأحد عدواً فحآلّه، فضلاً أن يقاعده ويعامله، فقد أغضبه وأساءه، وكثَّر بشخصه أعدآءه، كذلك من جاور أعدآء الله، فهو من المُغْضِبين لله، بغير ما شكٍ في حجة الألباب، وقبل ما نزَّل الله في ذلك من الكتاب.

فكيف بمن اغتر وخدم ؟! وجالس وحدَّث وكلَّم، وجاء وذهب، وأجلب وركب، وتفقد المجالس والخلوات، وألَمَّ بحواضر الحفوات، فراح وبكَّر واغتدى، وظل وبات ساهراً كمداً، مراقباً في مجالسهم ومقاعدهم للقوت، قد أغفلته مراقبة ذلك عن كل سقم أو موت، فكأنه لا يخطر بباله للدنيا زوالٌ ولا فناءٌ، ولا يتوهم أنه يكون له إلا من الظالمين سعة وغناء، فهو متدِّلهٌ إليهم حرَّآن، متأوه عليهم لهفان، قد شغله ما هو فيه من الحسرة، عما هو سائر إليه من دار الآخرة، يروح دائباً ويبكر، ويقبل أبداً ويدبر، في مواكب الظلم والظلمة، لا يتكلم في إنكار ظلمهم بكلمة، يضحك معهم إن ضحكوا، ويتباكى لهم إن بكوا، غرق في الغفلة غرقهم، يرى في كل حين فسقهم.

(130/2)

أَفَيُعدَّ هذا لله ولياً ؟! أو من الظلم لنفسه برياً، ما يبريه من ذلك، أو يعده كذلك، إلا مَن جَهِلَ أمر ربه، وضَلَّلَ الله صميمَ قلبه، فما جهلٌ بعد توحيد الله أعظم، ولا جرمٌ في دين الله أجرم، مِنْ جهل مَنْ جهل ما حكم به من هجرة الظالمين، ونهى عنه جل ثناؤه من مجاورة المعتدين، لما وكد الله من ذلك في وحي الكتاب، وما أقام به وفيه وعليه من حجة الألباب، وما هاجر قوماً مَنْ حآلَّهم في بلدهم، وكان مكثِّراً بشخصه فيها لعددهم، فيأوي منها وفيها مأواهم، ويروح ويغتدي مقبلاً ومدبراً مُغَدَّاهم، فكلهم في بلد العدوان معه، قد جمعهم من مأوى الطغيان ما جمعه، يجمعه من أكثر الأمور فيها ما جمعهم، منتفع بحلول دار الظالمين بما نفعهم، عامرٌ لها من الحلول فيها بما عمروا، ومكثر لعدد أهلها بما فيها كما كثروا، وبحلول مَن حلَّها وأوى إليها، كثرت معاصي الله سبحانه فيها، فبلد أهل الطغيان لكلهم بلد، وجميعهم في حلولها وتبوئها فواحد، وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من كثر سواد قوم فهو منهم) . ومن ذلك حكم الله على المؤمنين بالهجرة للكافرين والزوال

عنهم.

فاسمعوا هديتم لما وكد الله من المهاجرة، التي مَن قَبلِها ترك المجاورة، فقد سمعتم نهيه لرسول الله صلى الله عليه وآله، عن مقاعدة من خاض في آياته، مع ما ذكرنا من نهيه للمؤمنين عن مقاعدة من كفر به، وما أمر الله به رسوله من الاعراض عمن تولى عن ذكر ربه، والاعراض أوكد وأقل من المقاعدة والمجالسة، لأن من أعرضتم عنه فقد هجرتموه وقطعتم بينكم وبينه كل مؤآنسة.

(131/2)

فكيف تسع أحداً المجاورة لهم والمحآلّة، هذا ما لا يصح به في المعقول مقالة، يقول الله لا شريك له، لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: ؟وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين؟[الأنعام: 68]، ويقول سبحانه: ؟فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى؟[النجم: 30]. فكيف يكون معرضاً عنهم ؟! وهو مجاور لهم والجوار حرمة بينه وبينهم.

(132/2)

[طرد النبي للمتشبهين بالنساء]

فلم يكن صلى الله عليه يُسَاكِن، ولا يُجَاور ولا يقارن، إلا من آمن بالله، وكان ولياً لله، ولقد نفى صلى الله عليه غير واحدٍ من أهل ملته، ممن جاوره بفسوقٍ في محل هجرته، فمن ذلك مختَّث كان في المدينة كان فيه لين وتكسير، فنفاه من المدينة إلى جبل من جبالها يقال له عير، فابتنى في ذروة الجبل كِنَّاً، وكان الجبل وعراً خشناً، فلم يزل ذلك الكنُّ له مسكناً حتى مات رحمه الله. وتوفي صلى الله عليه وآله، فلما حضر موته، وقد كانت حسنت توبته، حتى دُعي في أيام عثمان، ولا أحسبه إلا وقد دعي قبل ذلك فيما كان لأبي بكر وعمر من الأيام، إلى المدينة والتحول إليها وترك المقام، فكان يقول لكل من قال له ذلك كلا والله، لا أزول عن موضع صيرني إليه رسول الله، حتى تنقضي فيه حياتي، وتحضرني به وفاتي، فقال له عند الموت بعض الصالحين: يا فلان أتحب أن نحدرك من هذا الجبل الوعر فندفنك مع المسلمين، فقال: لا تدفنوني والله إلا بحيث صيرني رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقبره ومسكنه الذي كان يسكنه معروفان اليوم بظهر الجبل.

مع ما حكم به صلوات الله عليه من نفي الزاني البكر سنة، مع ما حكم الله به على المحاربين بالنفي

ففي ذلك كله عبرة لمن يعقل بَيِّنة، وقد قال الله سبحانه، لرسوله صلوات الله عليه ورضوانه:؟لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً؟[الإسراء: 74]، وقال: ؟ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله أولياء ثم لا تنصرون؟[هود: 113].
والركون، فقد يكون السكون، فأي ركونٍ أركن، أو سكون أسكن، بعد الإخاء والمحآبَّة، من الجوار والمساكنة، فمن جاور وساكن، فقد ساكن وراكن، عند من يعرف لسان العرب، فضلاً عما في ذلك من بيان الرب، جل ذكره، وعز أمره.

(133/2)

هذا حكمه جل ثناؤه على رسوله فيمن كَفَرَه، وتعدى أمره، فلو سهَّل الله سبحانه لأحد في هذا أو مثله، لسهَّل لرسوله صلى الله عليه وعلى آله، ولكان رسول الله صلى الله عليه أولى بالتخفيف فيه والتسهيل، فاسمعوا – هُديتم – لما حكم به من الهجرة في الوحي والتنزيل، على الرسول صلى الله عليه وعلى المؤمنين، وما أمره به وإياهم من مهاجرة الظالمين، قال الله لا شريك له، وهو يأمر رسوله صلى الله عليه وعلى أهله، بالصبر على ما حَمَّله، وعلى ما يقول أهل الكفر له:؟واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا؟[المزمل: 10]، فأنزل الله عليه بمهاجرته لهم أمره تنزيلاً .
ومن الهجر لهم الجميل، ما أمر الله به في الوحي والتنزيل، من النقلة عنهم، والبعد والإنتياء منهم، وهو صلى عليه كان فيه أولهم، وأسبقهم في الهجرة لهم؛ لأنه عليه السلام هاجر قبلهم، والبلد يومئذٍ بلده، وبها أهله ومولده، مؤثراً في ذلك كله لله بهجرته، وصائراً إلى أمر الله له بذلك وخيرته، وما ذكرنا من أمر الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله، بالهجرة للظالمين، فما لا يجهله والحمد لله علماء المؤمنين، ولا يحتاج في ذكره إلى تكثير، لما فيه من الغناء عن كل تفسير ؛ لأنه تنزيلٌ من الله غير تأويل، فبيانه عند من وفقه الله بيان التنزيل.

(134/2)

[الهجرة واجبة في كل الديانات]

ومن تشديد الله لفريضته في المهاجرة للظالمين وتأكيدها، أن الله سبحانه لم يجعل للمؤمنين ولاية لمن لم يقم بها ويؤدّها، فقال سبحانه: ؟إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من

شيء حتى يهاجروا؟[الأنفال:72]، فمنع سبحانه المؤمنين من ولايتهم وإن آمنوا، إذا أقاموا في دار عدوّه فلم ينتقلوا ولم يظعنوا، وأبى تبارك وتعالى لأوليائه، أن يُوالوا . وإن آمن . من لم يهاجر دار أعدائه، نظراً منه سبحانه للأولياء، وتطهيراً لهم عن مجاورة الأعداء.

وهل رأيتم من يجاور عدوه وهو يجد من جواره بُدّاً ؟! إلا أن يكون ممن لم يهبه الله توفيقاً ولا رُشداً، وهل رأيتم لبيباً مجاوراً للسباع ؟! وهو يقدر منها على الامتناع، أو مقارباً للأفاعي وأولادها، وله سبيل ومنتدح إلى إبعادها، فَبِكَمَ ترون من ظلم وتعدى، أضر وأخبث وأردى، مقاربة – والله المستعان – ومجاورةً، وأكثر لمن جاوره نكاية ومضرةً، وإن من ظلم وكفر وفجر ليضرك وإن نحا، فكيف يُحَالُّ فيما كان له منزلاً وبلداً وملجا، إن هذا لضلال – والحمد لله – ما يخفى، وجفآءٌ في دين الله لا يأتيه إلا من جفا.

ولقد قرأنا مع ما علَّمنا الله في التنزيل، ما في أيدي هذه النصارى من الإنجيل.

(135/2)

فإذا فيه: أن طائفة من الأشرار، أبناء الظلمة والفجار، جاءوا يطلبون التوبة للرياء، إلى يحيى بن زكريا، صلى الله عليه، فقالوا له: طهرنا فقد تبنا إلى رب السماء، بما تطهر به التائبين من الماء، وكان يحيى صلى الله عليه، إذا صار إليه، أحد مطيعاً لله ومجيباً، أو تائباً إلى الله منيباً، أمره بالاغتسال من نهر الأردن، وكانت تلك سيرته صلى الله عليه فيمن آمن . فقال للذين أتوه كاذبين، إذ لم يكونوا بالحقيقة تائبين: يا أولاد الأفاعي إيتوا بثمرة، تصلح للتوبة والتطهرة، فطردهم ولم يرهم أهلاً للتطهرة، فهذا أيضاً والحمد لله من دلائل الهجرة.

أَوَ ما سمعتم نهي رب العالمين، عما ذكرنا من جوار الظالمين، إذ يقول سبحانه لعباده المؤمنين: ؟يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا الآيات لقوم يعقلون؟[آل عمران: 118]. وتأويل ؟من دونكم؟، هو من غيركم، يقول سبحانه: ؟لا تتخذوا بطانة؟ من غير أهل دينكم، والبطانة في المقارنة هم القرناء، كما البطانة في المخادنة هم الخدناء، فمن قارن أحداً في المحل فهو له بالمجاورة بطانة وقرين، كما أن من خادن أحداً بمحلٍ هو له بالمخادنة بطانة وخدين، وإنما قيل للبطانة بطانة؛ لأنها مخآصة ومقارنة، فنهى الله سبحانه المؤمنين، أن يتخذوا الظالمين، أخلاء أو خُدَناء، أو جيرة أو قرناء؛ لأن من لا يدين دينهم لا يألونهم خبالاً، وإن لم يظهروا لهم حرباً ولا قتالاً؛ لأنهم يرجعون أبداً بهم وفيهم، عيوناً ذاكيةً لعدو الله عليهم، يجادلونهم بالباطل ليدحضوا به حقهم ودينهم، ويعارضونههم فيه بزخرف القول ليوهنوا به علمهم ويقينهم، فبعلمٍ من عليم، وتقدير من حكيم، ما نهاهم الله عن موالاتهم ومخآلّتهم، ومنعهم من مجاورتهم ومحآلّتهم.

وفي ترك مقاربتهم وإيجاب مجانبتهم، وما أمر الله به الرسول صلى الله عليه والمؤمنين من مهاجرتهم، ما يقول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ؟وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواْ وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به؟[الأنعام: 70]، يقول سبحانه بمهاجرتك لهم، ففيها تذكير لمن يعقل منهم، إن أبصر هداه ورشده، أو كان شيء من الخير عنده، ولا تجلس معهم، ولا يجمعك من المقاعدة ما يجمعهم، إذ كانت مقاعدهم مقاعد لهوٍ ولعبٍ واستهزاءٍ، فإن ذلك إذا كان كذلك يمنعهم من الذكر لما تذكِّرهم به من الأشياء، وفي تركك لهم وإعراضك عنهم، ما فيه تذكير لمن عقل منهم، ولم يذر الظالمين مَنْ جاورهم، وحلَّ وسكن دارهم.

وفي جدالهم، وزخرف أقوالهم، ما يقول سبحانه: ؟ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزؤاً؟[الكهف: 56].

وفي من ذُكِّر بآيات الله فلم يذكر، وبُصِّر نورها فلم يبصر، ما يقول الله لا شريك له: ؟ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً؟[الكهف: 57].

[وعيد الله للمعرضين]

ثم أخبر سبحانه عن اغتماده واغتفاره الذي هو احتماله، وعفوه وتغمده ورأفته ورحمته وإفضاله، في ترك المعاجلة بعذابه ونقماته، لمن أعرض عما ذُكِّر به من آياته، فقال سبحانه: ؟ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلاً؟[الكهف: 57]، فمن أشد إعراضاً عن آياته ؟! وما أوضح بها وفيها من بيناته، ممن جهل فرض الله عليه فيها، أَوَ ليس هذا هو الذي لم يلتفت قط إليها ؟! بلى إنه لهو ذلك، وإن لم يكن عند من لا يعقل كذلك .

وقد جهل قوم ما قلنا به في الموالاة، وما زعمنا أنه منها من القرب والمداناة، بالجوار والمحآلَّة، والخلطة والمعاملة، وقد يقال للقوم إذا تتابعوا جميعاً في مجيء، أو قالوا كلهم قولاً واحداً في شيء: إنهم جميعاً لمتوالون فيه، وفي المجيء إلى البلد: إنهم لمتوالون عليه. وإذا جاؤوا متتابعين، قيل: جاؤوا متوالين، وكذلك يقال للقوم إذا دخلوا أرضاً، وكان بعضهم مجاوراً فيها بعضاً، إنهم بالجوار لمتوالون فيها، كما يقال: إذا ساروا إلى الأرض إنهم لمتوالون إليها. وكما يقال للمُتَاصَفِينَ: إنهم

أصفياء المودة والصفاء، كذلك يقال للمتوالين: أولياء في المقاربة والولاء، وقد قال الله تبارك وتعالى في أهل الكتاب من اليهود، إنهم أولياء لأهل الكفر والشرك والجحود.

(138/2)

فاسمعوا لقول الله سبحانه لرسوله في بني إسرائيل، وما وقَّفَه عليه من ذلك في التنزيل: ؟وترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا منهم لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون؟[المائدة: 80 . 81]، يقول سبحانه لو كانوا يؤمنون بالنبي الذي كان فيهم، وبمن صار من أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم إليهم، لما والوا عدواً مشآقاً، ولا أدخلوا عليهم إذ كانوا أعداءاً للرب مرفقاً، بمخالطة منهم لهم ولا معاملة، ولا بمجاورة لأحد منهم ولا محآلّة، وقد تعلمون أن من ذكره الله سبحانه في هذه الآية بالتولي للكفار من اليهود، وإن كانوا قد نقضوا في أكثر الأمور ما بينهم وبين الله من العهود، فلم ينقضوا أنهم غير متولين للكفار في أديانهم، ولا راضين بعبادة ما كان الكافرون يعبدون من أوثانهم، ولا ما كانوا يشرعون في دينهم من الشرائع، ويفترون على الله فيه من الشنائع، في أكل الميتة والدم، وما كانوا يحلون من كل محرَّم، بل كانوا لهم في ذلك مخالفين، ولعملهم فيه من القالين، ولكنهم كانوا لهم موالين، وإن لم يكونوا لدينهم قائلين، وكانوا لهم على دينهم من العائبين، ولهم في أنفسهم من المعادين، ولكنهم كانوا أولياء لهم بالنصرة والموآدَّة، وبما ذكرنا من الجوار والمعاملة والمقاعدة.
أفلا ترون كيف جعلهم رب العالمين، بموالاتهم لمن ظلم من الظالمين ؟! فأثبت سبحانه عليهم في الحكم، أنهم عنده كَهُم في الظلم، وأنهم منهم بموالاتهم لهم، وإن كانوا بُرَآءُ منهم في شرائع دينهم، وجاهلين بأكثر أقاويلهم، لا يعملون منها حرفاً، ولا من أوصافهم فيها وصفاً، فلذلك كان من الموالاة، ما ذكرنا من القرب والمداناة، التي منها المجاورة والمحآلّة، كما منها الإخاء والمخآلّة.

(139/2)

ومن قارب شيئاً ودنا إليه، فهو غير شكٍ يليه، وكذلك في المحبة مَن وَالاكُم، فقد وآدَّكم وآخاكم. ومن ذلك حرم الله سبحانه المجاورة والمداناة، إذا كانت بين أهلها مقارنة وموالاة، ففرض الله على نبيه صلى الله عليه وعلى المؤمنين الهجرة لدار مَن كفر به، ولم يَصِر إلى القبول عنه لما جاء به من ربه، ولِمَن هاجر – يومئذٍ من المؤمنين عن الدار، وما أمر الله بهجرته من الكفار، وقِبَلِهم وفيهم،

وعندهم ولديهم – الأموال والديار العامرة، والأبناء والأهلون والقرابة الناصرة، فألزمهم الله لذلك كله الهجرة، وأوجب عليهم لدينه ولأنفسهم النصرة، وأبقى الهجرة بعدهم، لمن سلك قصدهم، شريعةً ثابتةً قائمة، وفريضة للمؤمنين لازمة دائمة.

(140/2)

[الهجرة شرط الإيمان]

ولم يجعل سبحانه للمؤمنين حقاً، وحقيقة في الاسم وصدقا، ولم يوجب مغفرة ورزقاً كريماً، ولم يجعل برحمته فوزاً عظيماً، إلا لمن هاجر لله وفيه، وخرج من بيته مهاجراً إليه.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه في تنزيله، وما بَيَّن به في الهجرة من تفصيله: ؟والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم؟[الأنفال: 74]، ويقول سبحانه: ؟ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً؟[النساء: 100]. فما استحقوا على الله سبحانه جزاه، وإن آمنوا وجاهدوا حتى هاجروا في الله مَن عاداه، وزالوا من دار أهل مشآقَّته وعصيانه، وخرج كل مهاجر منهم عنهم هارباً إلى الله من أوطانه.

فكيف يرجو النجاة عند الله، والفوز برضوان الله ؟! من لم يهاجر إلى الله كما هاجروا، أو يُؤْوِ وينصر كما آووا ونصروا، لا كيف إن فَهِمَ عن الله أو عَقَل !! أو عَلِمَ ما أوحى الله في ذلك ونزَّل!! أما سمع قول رب العالمين، إذ يقول سبحانه للمؤمنين: ؟فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا؟[النساء: 88 . 89]، ومن المنافقين، يومئذٍ لبعضِ المؤمنين، أبٌ وقريبٌ، وجارٌ وحبيبٌ، وعون وظهير، وولي ونصير، يوالي بعض المؤمنين في حربه ويناصره، ويعاونه على عدوه ويظاهره.

(141/2)

فلما نزلت على المؤمنين يومئذٍ البرآءة منهم، ونهوا عن المقاعدة لهم، وقطع الله الولاية بينهم وبينهم، وأمروا بالاعراض عنهم، افترقوا بالرأي فيما حكم به عليهم في المنافقين فرقتين، وصاروا كما قال الله تبارك وتعالى فيهم طائفتين، فطائفة تأسى على ما فاتها من نصرهم، وما كان يدخل عليها من

المرافق بهم، في المداينة والاسلاف، والمجاورة والائتلاف . وطائفة عَرِيَّة عنهم، قد قطعت الآمال منهم، والتي أسِيَت من المؤمنين عليهم تمنى لهم الهدى، والطائفة الأخرى فإنما تراهم حرباً وأعدا، وكل المؤمنين وإن اختلفوا فيهم، فقد قاموا بحكم الله في العداوة لهم عليهم، لا يعدلون بأمر الله لهم فيهم أمراً، ولا يتخذون منهم – كما قال الله عز وجل – ولياً ولا نصيراً، فنهاهم الله سبحانه عنهم، وجعل من تولاهم منهم، ومنافقاً مثلهم، بولايته لهم، ثم أمر سبحانه بقتل الفريقين، إذ كانا جميعاً منافقين، ومنع سبحانه من آمن به وبكتابه، وكان قابلاً لحكمه وآدابه، أن لا يتخذوا من الفريقين ولياً ولا نصيراً، أو يستظهروا منهم عوناً أو ظهيراً، تعزيزاً منه سبحانه للمؤمنين بأمره، واكتفاء لهم من غيره بنصره.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلىأهله، ؟يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين؟[الأنفال: 64]، فجعل له سبحانه فيمن اتبعه، وكان في طاعته معه، كفاية وعزاً، ومنعةً وحرزاً، والحمد لله الذي لا يُذِل أولياءه، ولا يُعِزّ أبداً أعداءهُ.

وفي الهجرة وذكرها، وما عظَّم الله من قدرها، ما يقول سبحانه: ؟إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفورٌ رحيم؟[البقرة: 218]، فكأنه لا يرجو رحمة الله، إلا من هاجر لله وفي الله.

(142/2)

ومن الهجرة وفيها، ومن الدلائل عليها، قول الله سبحانه:؟وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين؟[الأحزاب: 9]. فلم يوجب بينهم بالأرحام ولآءً وإن كانوا إخوة وقرباء، بل وإن كانوا أمهات وآباء، إلا أن يهاجروا دار من كان لله عدواً، ولا يتبوأوا معه في محل متبوّأ.

ومن ذلك وفيه، ومن الدلائل عليه، قول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله:؟يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك؟[الأحزاب: 50]، فلم يحل له من بنات عمه وعماته، وبنات خاله وخالاته، إلا من هاجر معه ما هاجر، وزال عن دار مَن كَفَر.

(143/2)

مع التي ليس فيها إحالة، ولا بعدها لمؤمن ضلالة، من العلم بهلكة من لم يهاجر دار من أمره الله بمهاجرته، وأقام مجاوراً لمن منعه الله من مجاورته، ممن اعتذر عند حضور وفاته إلى الملائكة، بالضعف في الأرض التي كانوا فيها وما خشوا من أهلها على أنفسهم من الهلكة، ففي ذلك أكفى الكفاية، لمن له في نفسه أدنى عناية، قال الله سبحانه: ؟إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً؟[النساء: 97]، فاعتذروا في الجوار لمن ظلم عند مسآءلة الملائكة لهم عن أمرهم، بما لم يقبله الله جل ثناؤه ولا الملائكة صلوات الله عليهم من عذرهم، وردت عليهم الملائكة في ذلك رداً محكماً فصلاً، جعله الله لرضاه به وحياً منزلاً، فقالت الملائكة عليهم السلام: ؟ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟، وقال الله لا شريك له لهم: ؟فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً؟، فلم يجعل الله سبحانه لهم في جوار أعدائه عذراً ولا تعذيراً، وجعل جهنم لهم مصيراً وداراً، ولم يزدهم عذرهم عنده إلا تباراً، فأي كفاية أو شفاية أشفى، لمن أراد شفاء من هذا لمن يسمع و يبصر ويرى، فنحمد الله على ما بيّن في الهجرة من الحق والهدى، فأمر به وفرضه من مهاجرة مَن ظَلَم وتَعدَّى.

مع ما في سورة الامتحان، في الهجرة من التأكيد والبيان، فقال الله لا شريك له: ؟يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة؟ [الممتحنة: 121]، فإنما كان إلقاء بغير التقاء ولا مقاعدة، بكتابٍ كتبه، فيما قالوا: حاطب ابن أبي بَلْتَعَة، فقال عمر: اتركني يا رسول الله أقتله فقد كفر بمكاتبته، فمنع رسول الله عمر مما أراد بحاطب من القتل لرجعته وتوبته، وكان رسول الله صلى الله عليه في ذلك بحكم الكتاب، أعلم من عمر بن الخطاب.

(144/2)

ثم أكَّد في السورة على المؤمنين أشد تأكيد، وردد نهيه عن موالاة من كفر ترديداً بعد ترديد، وأخبرهم أن الأرحام وإن كانت بينهم، فإنها غير نافعة في يوم القيامة لهم، وكل محل ودار، كان أهلها كفاراً أو غير كفار، إذا كانوا أعداء لله وكان الحكم في الدار حكمهم، وكانت داراً ظاهراً فيها ظلمهم، فهجرتها مفترضة واجبة، وحلولها هلكة معطبة، وبذلك وله، ولما ذكرنا منه، هلكت القرون والأمم، ودمرت القرى والمدن، إذ لم يكن فيها إلا ظالم معتدٍ، ومجاور لمن ظلم غير مهتد، فلم يستحق الهلكة والتدمير من الفريقين إلا مذنب مجرم، يستوجب أن ينزل به من الله جل ثناؤه التدمير والنقم.

(145/2)

[هلاك جبابرة الأمم]

فاسمعوا لخبر الله عمن دمر بالظلم من القرون والقرى، فإن به عبرة وموعظة شافية لمن يبصر ويسمع ويرى، قال الله سبحانه: ؟وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً

بصيراً؟[الإسراء:16-17]، فخص الله مترفيها بالذكر في الفسق، وإن كان كل أهلها فساقاً في حكم الحق؛ لأن أهلها إنما هم مترف أو جبار، أو مُساكن لهم وجار، فكلهم فاسق عن أمر ربه، وكلٌ فإنما أُخِذَ بذنبه.

وفي تذكير الله بإهلاكه للقرى، ما يقول الله سبحانه مذكراً، ؟واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون، وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون؟ [الأعراف: 163 . 165]، فكان أهل القرية ثلاثَ فرق، نسبها الله إلى العتاء والفسق، وفرقة من الفرق الثلاث معذرة مقصرة، وفرقة منهن واعظة ناهية مذكرة، تنهى من عتا، عن الفسق والعتاء، وتذكر بما يجب لله من الطاعة والرضى، فلم يذكر الله تبارك وتعالى في خبره عنهم، أنه جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله، أنجا منهم، إلا من أمر ونهى، وكان واعظاً منبهاً، وداعياً لهم إلى الله مُسمِعاً، ومُقبِّحاً لعتاهم مُشَنِّعاً، لم يذكر سبحانه عمن خلَّصه وأنجاه، أنه أقام مع مَن وعظه ونهاه، في محل الفسق والعتا، ولا أسبت معهم في قريتهم سبتاً، ولا استحل فيها لهم جواراً، ولا قر معهم فيها بعد العتاء قراراً.

(146/2)

وكيف يقيمون معهم في القرية، مع ما أظهروا لله فيها من المعصية، يرونها فيها عياناً، ويوقنون بها إيقاناً، لَلَّهُ كان أجل في صدورهم جلالاً، وأكبر في نفوسهم أمراً وشأناً، من أن يجاوروا مَشاَقِّيه ومَعاصيه، أو يقيموا جيراناً لمن يشآقّه ويعصيه، وهم لو . جاورهم جارٌ في أنفسهم بما يسخطون، أو بكثير من الأذى والمكروه هم له ساخطون، لا يقدرون له على دفاع، ولا منه إلى امتناع . لما أقاموا ساعةً واحدةً معه، ولا سيما إذا كان لا يقدر أحد منهم على أن يدفعه، فكيف بمساخط الله التي هي في صدورهم أعظم، ولقلوبهم أحرق وآلم، ما يحل توهم ذلك عليهم، ولا نسبة شيء منها إليهم، والحمد لله رب العالمين، ونعوذ بالله من مجاورة الظالمين.

وفيما ذكرنا من هلكة القرى، ما يقول الله تبارك وتعالى: ؟وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد؟[الحج: 45]، فذكر سبحانه إهلاكه لكل من كان في

القرية من ضعيف أو شديد، إذ لم يكن في القرية إلا جبارٌ أو جارٌ، وكلٌ فقد حقت عليه من الله الهلكة والدمار؛ لأنهم كلهم لله عصاة، وعن أمره جل ثناؤه عتاة، جبارها بتجبّره واستكباره، وجارها بمحآلّته للظالمين وجواره، فكلٌ أهلكه الله بكسبه، وأخذه الله بجرمه وذنبه، كما قال سبحانه: ؟فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون؟[العنكبوت: 40]، وقال سبحانه: ؟ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون، أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون؟[الأعراف: 96 . 99].

(147/2)

فينبغي لمن كان في قرية من القرى، غير معمولٍ فيها بما يحبّ الله ويرضى، الغالب على أهلها فيها الظلم والعتا، أن لا يأمن مكر الله وأخذَه لأهلها ضحىً أو بياتاً، ولا يغفل عما يتوقع من أمر الله فيها، من حلول نقمه بها وعليها، وإن أُمْلِيَتْ فأطيل لها الإملاء، فإن بالغفلة يهلك فيها الغُفَلاء.
وربما أملى الله لقرية فأطال، وهو يرى فيها الظلم والضلال، كما قال سبحانه: ؟وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة، ثم أخذتها وإليّ المصير؟[الحج: 48]. ففي هذا وأقل منه موعظة لمن يعقل ويبصر، ؟وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور؟[فاطر: 21]، كما قال العزيز الغفور، ولعل مَن عَمِيَ قلبُه، وضل فلم يرشد لُبُّه، كما قال الله سبحانه: ؟فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور؟[الحج: 46]، أن لا يبصر ما فَصَّل الله في هذا الباب من الأمور.
فنقول: إنما نزلت نقم الله وعذابه، وحل تدميره وعقابه، على من أشرك به، ولم يقرّ بربه، فأما نحن فمقرون، وأولئك كانوا يكفرون، ففي قول من قال ذلك لمن يعقل عجب العجب، لما فيه على الله من الافتراء والكذب، أو لا يرى من زعم ذلك وقاله، وزُيِّن له فيه مقاله، أن الله سبحانه عذَّب قرية أهل الاعتداء في سبتهم، على ما ركبوا فيه وما مسخهم الله به من معصيتهم، التي لم يخلطها منهم لله ولا لشيء من دينهم إنكار، ولم يأت لشركهم في مسخ الله لهم بمعصيتهم من الله ذكر ولا إخبار، بل إنما عظَّم الله سبحانه عصيانهم، وذكر في سبتهم عدوانهم، لإقرارهم فيه على أنفسهم بالتحريم، ولما كانوا عليه للسبت من التعظيم، وبتعظيم الله له وتعظيم رسله عندهم في دينهم عظَّموه، وبما حرَّمت عليهم رسل الله حرَّموه.

(148/2)

ولو كان لا يهلك، إلا منكر أو مشرك، كان ما ذكر الله من إهلاكه للقرى بالعدى والظلم، تلبيساً شديداً وحيرة في الفهم والعلم، لا يخاف الهلكة معه ظالم ولا مفسد، ولا طاغٍ مقر ولا متمرد، بل كان كل مَن فَسقَ وظَلَم، وطغى وتعدى وغشم، آمناً للغِيَر والنقم، في كل فسق وجرم.

وإنما الشرك ضربٌ من ضروب الفسق والظلم، خصه الله بخاصة من الكبر والعظم، كما قال لقمان عليه السلام: ؟يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم؟[لقمان: 13]، فخصه لقمان بما خصه الله به من التعظيم، وكل كبيرة سوى الشرك من المعاصي فقد خص الله أهلها فيها بالتظليم، والكبائر وإن اختلفت بأهلها فيها الشئون، فبالظلم وإن اختلفت هلكت القرى والقرون، ولذلك وبه، وما ذكرنا من قدره، ما يقول الله سبحانه: ؟وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً؟[الكهف 59].

وإن – فيما ذكر الله لا شريك له في سورة الطلاق، وما عظَّم فيها من خلاف أمره حتى في الفراق، والاشهاد عليه إذ كان بشاهدي عدلٍ، وما حكم به على المؤمنين في السورة كلها من حكمه الفصل، وما خَوَّفهم فيها به من ترك أمره وعهده ونهاهم فيها عنه من التقصير، وذَكَّرهم به في عُتُوِّ القرى عن أمره من التذكير – لدليلاً مبيناً، وعلماً يقيناً، بأنه يهلك القرى، إذا أراد وشاء، بالعتوِّ والفسوق والعدوان، وبكبائر الظلم والعصيان، إلاَّ أن يَدفع ذلك عنهم في الدنيا برحمته، ويؤخرهم بالعقاب فيه إلى يوم حشره وبعثته.

(149/2)

فاسمعوا لقول رب العالمين، في ذلك للمؤمنين، بعد الذي أمرهم به، في السورة من أمره: ؟وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً، أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً، رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبيناتٍ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً؟[الطلاق: 8 . 11]، فلما كان جميع من في القرية، لا يخلو من عامة أو خاصة متعدية، وكان أمر الله وأمر رسوله للعامة، في الخاصة المتعدية الظالمة، أن يجاهدوهم إن قووا وانتصفوا، ويهاجروهم وينتقلوا عنهم إن ضعفوا، فلم يفعلوا ما أمروا بفعله، كانت القرية كلها عاتية عن أمر الله وأمر رسله، فحل عذاب الله بذلك فيهم، ونزلت نقمات الله فيهم وعليهم، وكان كلهم ظالماً عاتياً فاستحقوا جميعاً الهلاك بظلمهم وعتائهم، وعصيانهم واعتدائهم، ولو كان الأمر في ذلك كما قال من لم يُهدَ فيه لرشده، ولم يُسدَّد في القول للهدى وقَصْدِه، لكان في ذلك من التجرية، لكل نفسٍ متعدية،

ما تقل معه لله منهم الطاعة، ويعظم فيه عليهم الفساد والإضاعة، ولكن لم يأمر الله سبحانه في السورة كلها وينه، ولم يكن بما فيها من التذكير والتحذير واعظاً منبهاً، إلا لمن آمن من المؤمنين به، ولم يجحد بشيء من رسله ولا كتبه.

فافهموا هديتم قوله سبحانه: ؟ آيات مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور؟، فإنكم إن تفهموا ذلك يَبِنْ لكم إن شاء الله ما التبس عليكم في كل ما ذكرنا من الأمور، وخرجتم ببيان الله فيه من ظلمات الهوى، إلى نور الحق والبر والتقوى.

(150/2)

وفي قرى الفسق والعتا والظلم، وما أحل الله بها من الحطم القصم، ما يقول سبحانه:؟وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون، لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون؟[الأنبياء : 11 . 13]، فمن تأويل ؟ لعلكم تسألون ؟، لعلكم تعرفون، وتقِرُّون أيها المترفون، المساكنون بما كنتم في مساكنكم من الظلم تعملون، فلما عرف كُبَرَاء القرية وضعفاؤها بظلمهم فيها أجمعين، قالوا: عند الاعتراف والاقرار آسفين متحسرين: ؟يا ولينا إنا كنا ظالمين؟[الأنبياء: 14]، قال الله لا شريك له: ؟فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين؟[الأنبياء: 15].

فكم وكم من نقمة، وقرية منقصمة، الظلم من أهلها والعدوان قَصَمَها، والفسق من ساكنها والعصيان حَطَمَهَا، قد نبأكم الرحمن نبأها، وخبَّركم في كتابه مهواها، وما به كانت هلكتها من الظلم وَرَدَاهَا، لتهاجروا فساقها وفسقها، ولتجانبوا أخلاقها وطرقها، ولتحذروا مثل الذي وقع بساكنيها ومجاوريها، إذ لم ينكروا الظلم من مترفيها وجباريها، فأصبحت الجبابرة مقصومة، ومدائنها بالهلكة محطومة، وجيرتها معها مدمرة، إذ لم تكن لظلمهم مباينة مُنكِرَة، وفي مثل ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين؟[القصص: 58].

(151/2)

[هجرة الأنبياء والرسل]

ومن ذلك، ولذلك، ما يقول الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله: ؟قل رب أما تريني ما يوعدون، ربّ فلا تجعلني في القوم الظالمين؟[المؤمنون: 93 . 94]. لأن من كان مقيماً فيهم، وصل

إليه ما وصل إليهم؛ لأنه لا يجاور أهل الظلم ويقيم فيهم إلا الظالمون الفاجرون، ولذلك يقول سبحانه:؟وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون؟[الأنفال: 33]، يقول سبحانه: يعذبهم وهم يتوبون ويتورعون؛ لأن الاستغفار، هو التوبة من أهل الكفر والإقصار، فلم يقم أحد من المرسلين، بدار من دُور الظالمين، إلا مبايناً داعياً، ومنتظراً فيها لأمر الله مراعياً.

(152/2)

ومِن قبلُ ما حكم الله به من الهجرة على رسوله وعلى المؤمنين، فقد حكم به على من مضى قبلهم من المرسلين، ومن تبعهم فكان معهم من عباده الصالحين، فقال في نوح صلى الله عليه، وما صيَّره سبحانه من الهجرة إليه: ؟واصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون، فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين؟[هود : 37 . 38]، ثم أمره سبحانه أن يحمده على إنجائه له منهم، وما حكم به عليه من البعد عنهم، وكانت هجرته لهم قبل غرقهم على ظهر الماء، وفي الفلك بين الأرض والسماء، وقال صلى الله عليه: ؟رب إن قومي كذبون، فافتح بينبي وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين؟[الشعراء: 118]، فقال سبحانه: ؟فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون، ثم أغرقنا بعدُ الباقين؟[الشعراء: 19 . 120]، فأنجاه تبارك وتعالى منهم، وغرَّقهم بعد هجرته عليه السلام عنهم، فهاجر صلى الله عليه أهل الكفر والفسق، قبل ما أحلّه الله بهم من الهلكة والغرق، تأدية لفرض الله عليه في الهجرة لهم، وقد كان قادراً على أن ينجيه وإن أقام معهم، ويغرقهم بجرمهم، وبما ركبوا من كفرهم وظلمهم.

(153/2)

وقال إبراهيم صلى الله عليه: ؟إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدين؟[الصافات: 99]، وقال عليه السلام لأبيه، إذ أجمع من الهجرة على ما أجمع عليه، عند الرحيل والزوال، وعند ما جاءه له من السلام:؟سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً، وأعتزلكم وما تدعون من دن الله وأدعوا ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً؟[مريم: 47 . 48]، فلما اعتزلهم وما يعبدون صلى الله عليه وأصنامهم، وفارق مهاجراً إلى الله دارهم ومقامهم، وهبه الله من إسحاق ويعقوب ما وهب، وهداه الله في مذهبه إذ ذهب، وقال سبحانه: ؟فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً؟[مريم: 49 . 50]، فهاجر

إبراهيم عليه السلام لله قومَه وبلده، وفارق في الله وطنه ومولده، وهجر صلى الله عليه أباه فيمن هجر، وهو صلى الله عليه كان أبرّ مَن بَرٍّ، فهجر أباه في الله طاعة لله، وتبرأ منه إلى الله، إذ تبيَّن له أنه عدو لله، فقال سبحانه فيه، صلى الله عليه، :؟وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواهٌ حليم؟[التوبة: 114]، والأواهُ فهو الرحيم: والحليم فهو: الحكيم.

(154/2)

وهاجر لوط صلى الله عليه إذ هاجر معه، ولم يسعه من الهجرة إلا ما وسعه، كما قال لا شريك له:؟فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم؟[العنكبوت: 26]، وهاجر لوط صلى الله عليه بأهله ثانية، إذ كانت القرية التي كان فيها قرية طاغية، إذ جاءته ملائكة الله، فقالوا له عن أمر الله:؟فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحدٌ وامضوا حيث تؤمرون؟[الحجرات: 65] . تأويل لا يلتفت منكم أحد: لا يعرج أحد منكم تلبيثاً، وسيروا كلكم جميعاً سيراً حثيثاً، وليس تأويل لا يلتفت، ما يظن العمي الميِّت، من الإلتفات في النظر، إلى ما وراء الظهر أو إلى ما عن الميامن والمياسر، ولكنه استحثاث واستعجال، كما يقول المستحث المعجال، إذا أنذر أحداً أو أرسله، فاستحثه واستعجله: لا تلتفت إلى شيء ولا تعرج له.

ثم قال – من بعد قصة إبراهيم وأبيه – ربُّ العالمين، لرسوله ومن معه من المؤمنين: ؟ما كان للنبي والذين معه أن يستغفروا للمشركين، ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم؟[التوبة: 113]. فبيَّن سبحانه أن من والى من عاداه، فقد ضل عن حقه وهُداه، فمن جاور من ظلم وتعدَّى، وهو يجد من جواره بُدَاً، فقد قاربه بالمجاورة وداناه، ومن دانى أحداً كما قلنا فقد وَلِيَه وتولاَّه، والمقاربة كما قلنا فهي ولاية وإن لم تكن مؤاخاة، ولذلك ما طهر الله أولياءه من أن يجاوروا في دار ومحل أعداه، فأمر تبارك وتعالى لوطاً، إذ كان من هاجر عنه ظالماً مفرطاً، بالخروج عنهم والهجرة لهم، كما هاجر عن من كان قبلهم.

(155/2)

وقال رب العالمين، لمن بعد إبراهيم من الرسل والمؤمنين: ؟قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده؟[الممتحنة: 4]، وما آمن بالله ولا راقب وعيده ولا وعده،

من والى أعدآءه، وكان متبوّأهم متبوأه، ولا أناب إلى الله ولا أسلم له، ولا قبل أمره وقوله:؟وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون؟[الزمر: 54 . 55]، إذ من الاسلام والإنابة إليه، المهاجرة لعدوه فيه، كما لا يكون من أتاكم ولا ورد عليكم، مَن مشى بعض الطريق إليكم، فكذلك لا يكون عند الله منيباً مسلماً، من لم يكن للإنابة والاسلام مُكملاً مُسْتَتِمّاً.

ألا تسمعون لقول إبراهيم صلى الله عليه والذين آمنوا معه، وكل من آمن به من المؤمنين واتبعه: ؟إنا برءآء منكم؟ فقدموا ذكر التبرِّي منهم، وذكر انقطاع الولاية والمجاورة بينهم، قبل ذكرهم لأوثانهم ومعبودهم، وما كفروا لله به فيها من شركهم وجحودهم، فكما يجب الاعتزال للضَّلال، فكذلك يجب الاعتزال للضُّلال، وكما تجب الهجرة للكفرة والفجار، فكذلك تحب الهجرة للفجور والكفار، فرحم الله عبداً اعتزل الضَّآلين وضلالهم، وهجر لله وفي الله الظالمين وأعمالهم، فإنه أمر سبحانه باعتزالهم، كما أمرَ باعتزال أفعالهم، ولم يعتزلهم مهاجراً ولا مجانباً، من كان لهم في دار ظلمهم قريناً أو مصاحباً.

(156/2)

فليحذر أمرؤ – جاور مَن ظَلَم وحَآلَّه، وإن لم يفعل في الظلم أفعاله – أَخْذَ الله له وعقابه، وليذكر حكم الله عليه وكتابه، فقد سمع ما أنزل الله من ذلك وفيه، وما حكم به من هجرة الظالمين عليه، ففي أقل من(1) ذلك كفاية وغنى، ونورٌ لمن هداه الله وضياء، فقد جاءت من الله في ذلك كله البينة المضية، ووصلت إليه فيه سنن رسله وأوليائه المقبولة عند الله المرضية، التي جعلها الله سبحانه من بعدهم صلى الله عليهم تذكرة كافية، وحجة على كل من آمن بالله وموعظة بليغة شافية.

(157/2)

[هجرة المؤمنين السابقين]

وليسمع قول أصحاب الكهف إذ يقولون وهم هاربون، من قومهم في الله فارّون: ؟وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً؟[الكهف: 16]، فذكر اعتزالهم لأشخاصهم وأبدانهم، قبل ذكرهم لاعتزال أصنامهم وأوثانهم، وكانوا معتزلين لهم هاربين منهم إلى كهف الجبل، مفارقين لله وفي الله الآباء والأهل، مهاجرين بذلك في الله، من كان عدواً لله.

وأَمرُ الله سبحانه لبني إسرائيل بالخروج من قرى فرعون، ففيه بينه ظاهرة جلية في الهجرة لقوم يعقلون، قال الله لا شريك له لموسى وهارون صلوات الله عليهما ورضوانه: ؟فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بني إسرائيل؟[الشعراء: 16 . 17]، وقال سبحانه: ؟وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون؟[الشعراء: 52]، فأمرهم سبحانه بهجرة عدوّه وأخبرهم بأنهم سيتبعون، لتشتد عليهم فيما أمرهم به من ذلك المحنة، ولتعظم لهم ومنهم به في طاعتهم لله الحسنة، فلم يمنعهم خوفهم لفرعون وجنوده، من المضي لما عهد الله إليهم في الهجرة من عهوده، مع ما دخل من الخوف في اتِّباعه عليهم، وقال سبحانه بعدُ فيهم؛ إذ هاجروا – مع هائل الخوف في الله – مَن كان لله عدواً: ؟فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً؟[يونس: 9].

وقال سبحانه: ؟فلما ترآءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون؟[الشعراء: 61]، يعني سبحانه: جماعة بني إسرائيل وجماعة القوم الظالمين، فلم يمنعهم هول الرؤية والمعاينة، وما طلبوا عند ذلك من الهلكة والمنازلة، عن النفاذ على ما أمروا به من المهاجرة، منطلقين بكليتهم، ونسائهم وصبيتهم، لا يلتفتون إلى شيء قد خرجوا ليلاً سارين، لظفر فرعون وجنوده خائفين محاذرين . فهذه – هديتم – عزائم الموقنين، بالمرجع إلى رب العالمين، فأما من ضَجَّعَه تربُّصه وارتقابه، وصرعه شكه وارتيابه، فما أبعده في الهجرة عن عزمهم !! وما صاروا به إليها من علمهم.

وقال موسى صلى الله عليه، إذ عصته بنوا إسرائيل فيما عهد الله إليهم وإليه، من دخول الأرض المقدسة، وما اعتلُّوا به عليه من خوفهم لمن فيها من الجبابرة المُتعفرتة: ؟رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين؟[المائدة: 25]، سأل الله صلى الله عليه أن يفرق بينه وبينهم، إذْ أجمعوا جميعاً كلهم على ما يسخط الله منهم، إكباراً منه صلى الله عليه للمقام مع معصية الله فيهم، فكيف يُجَاوَرُ العاصون في أكثر الأحوال أو يُصَار إليهم ؟!

وفي ذلك ومثله، و[ما] رضي الله به من أهله، ما يقول الله سبحانه:؟وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً؟[النساء: 75]، فكفى بهذا كله وما تلونا منه في وجوب الهجرة بياناً وتنويراً.

وما كان من موسى صلى الله عليه، عند رجعته إلى قومه في أخيه، إذ أقام مع العاصين في مكانهم، وهم مصرون لله على عصيانهم، ففيه عبرة لمعتبر، وبيان وموعظة لمدَّكر، قال الله سبحانه، لا شريك له:؟ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئس ما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين؟[الأعراف: 150]، فأخذ صلى الله عليه برأس أخيه يجره إليه غضباً وأسفاً، وتغيظاً وتلهفاً، وإعظاماً وإكباراً، وتقبيحاً وإنكاراً، لمقامه معهم وبين أظهرهم، مع ما صاروا إليه من معصية الله في أمرهم، وهارون صلى الله عليه مباين لهم فيما هم فيه من عصيانهم وضلالهم، وما ارتكبوا فيما بينهم وبين الله من سيء أفعالهم، يأمرهم دائماً بالهدى، وينهاهم عما هم عليه من الضلالة والردى، يناديهم في إنكاره، وتقبيحه وإكباره، بصوتٍ منه صيِّتٍ رفيع، يسمعه منهم كل سميعٍ .

(160/2)

فتمسك . صلى الله عليه في نفسه، ومن أطاعه من آله وغيرهم من قومه . بِعِصَمِ الحق والرشد والهدى، بريءٌ مما هم فيه من الضلالة والردى، يقول صلى الله عليه: ؟يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري؟[طه: 90]، فما منعه ذلك كله من سخط موسى عليه، ولا من وثوبه صلى الله عليه إليه، يجره بلحيته ورأسه، وهارون في كُرَب أنفاسه، يعتذر في غمة كربه، وفيما نزل منه به، لما يراه هارون صلى الله عليه له عذراً، وعدوه من عصاة بني إسرآئيل يرى مِن فعلِ موسى به ما يرى، وهارون يعتذر إليه، صلى الله عليه، فما قَبِلَ موسى ذلك منه، ولكنه نبهه لما غفل عنه، فقال صلى الله عليهما:؟يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري؟[طه: 93]، قوله:؟أفعصيت أمري؟ يدل على أن قد كان أَمَرَه، أن لا يقيم صلى الله عليهما مع من شآقَّ الله وكَفَرَه، وقوله:؟ما منعك ألا تتبعني؟، إذ عصوا ما منعك أن لا تتركهم وتلحقني، ؟قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقولَ فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي؟[طه: 94].

(161/2)

فهل رأيتم هديتم من قولٍ أشبه بأن يكون عذراً من قول هارون واعتذاره، مع ما كان من أمره ونهيه وإنكاره، فلما علم موسى صلى الله عليه ذلك كله، وأن هارون صلى الله عليهما أَتَاه وفَعَلَه، وأن جميع ما فعل من ذلك وإن كان إحساناً، وكان لله تبارك وتعالى رضواناً، غير مقبول عند الله منه،

وإن مقامه مع الظالمين ذنبٌ يحتاج إلى الله في العفو عنه، قال موسى بعد اعتذار هارون صلى الله عليهما إليه، واستعطافه بذكر أمه له عليه، إذ يقول:؟ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي ولا تجعلني مع القوم الظالمين؟[الأعراف: 150]، فلم يستغفر موسى لهارون ذنبه، ولم يسأل العفو عنه ربَّه، حتى علم هارون أنه قد كان أخطأ في مقامه مع الظالمين، يرى ويعاين عصيانهم لرب العالمين، فعندما اعترف هارون بزلته في مقامه معهم، وتركه لاتباع موسى عندما رأى منهم، قال موسى صلى الله عليه: ؟رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين؟[الأعراف: 151]، وقول موسى لهارون صلى الله عليهما، : ؟أفعصيت أمري؟ بَيِّنٌ أن قد كان أمره وقال له إن رأيت من القوم عمى، أو ضلالاً أو ظلماً، فلم يقبلوا قولك فيه، وأقاموا مصرين عليه، فالحقني، وآتني واتبعني، فهذا وجه قوله ؟أفعصيت أمري؟، يقول فأقمت مع مَن كَفَر وظَلَم، وجاورت مقيماً مع من أجرم.

(162/2)

وفي موسى نفسه صلى الله عليه ومن كان معه وتبعه لميقات الله له من خيار بني إسرائيل، ما يقول الله تبارك وتعالى فيما نزل على محمد صلى الله عليه وعلى آله من كتابه الحكيم:؟واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين؟[الأعراف: 155]، فأخذتهم الرجفة، وحلت بهم من المعصيةالمخافة، وهم هم، ومع سخطهم لهم، فوصلت معرَّةُ العاصين منهم، إلى من قد زال عنهم، فلما أصابتهم الرجفة، ظنوا أنها الهلكة المتلفة، ولم تكن تلك الرجفة من الله لهم هلكة مدمرة، ولكنها كانت من الله لهم ولغيرهم من الأمم موعظة وتذكرة، نفعهم الله بها وأولياه، وذعر بها من الأمم أعصياه، رحمة من الله للمطيعين والعاصين، وموعظة للفريقين من رب العالمين، فتبارك الله فيها أحكم الحاكمين، والحمد لله بها وفيما كان منها لأرحم الراحمين.

ومن ذلك وفيه، فخبر الله جل ثناؤه عن عيسى صلى الله عليه، بعد الذي كان من إخباره عن موسى صلى الله عليه، بما قد سَمِعَتْه عن الله آذانكم، وأحاط به يقيناً إيقانكم، من مهاجرته صلى الله عليه، وسياحته مهاجراً على قدميه، هارباً لسخطه في الله من بني إسرائيل، إذ لم يعملوا بما في أيديهم من التوراة ولم يقبلوا ما جاء به من الإنجيل، وأَبَوا إلا الكفر لنعمة الله، والمشآقَّة بعصيانهم على الله، فلما أحس عيسى صلى الله عليه كفرهم، وتوجس في إصرارهم على الكفر أمرهم، كما قال الله سبحانه: ؟فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله؟[آل عمران: 52]، يريد: من المهاجرُ معي

إلى الله، والتابعون لي سياحة في سبيل الله، ولسياحته في الله، ونصيحته بها لله، سماه الله مسيحاً، وكان لله فيها نصيحاً.

(163/2)

ولقد قرأنا مما في أيدي النصارى لعنة الله عليها، في كل ما عندها من أناجيلها: (أن عيسى ابن مريم، لما وجَّه في المدائن والأمم، للدعاء إلى الله حوارييه، قال لا تزودوا معكم زاداً، ولا تحملوا معكم فضة ولا ذهباً، وأي مدينة حللتموها، أو أمة دخلتموها، فلم تقبل منكم، ولم يسمع الحق عنكم، فأقلّوا بها وفي أهلها مقامكم، وانفضوا من غبارها إذا خرجتم عنها أقدامكم، لكيما تكون شهادة لله عليهم، وحجة باقية من بعدكم فيهم، فخرجوا فكانوا يطوفون في المدائن والقرى، وينشرون أمر الله فيهم نشراً).

ومن مثل ذلك وفيه، ما كان يقول صاحب إنجيلهم صلى الله عليه: (للسباع مغارٌ، وللطير أوكار، وليس لي مأوى آوي إليه، ولا بيت أستكن فيه) فأين هذا ومثله ؟! وما كانت عليه أنبياء الله منه ورسله، مِن جوار مَن ظَلَم وفَجَر، وساكن وكثَّر وعمر، لا أين والحمد لله!! والحجة البالغة فلله، ونستعين فيما وجب علينا في ذلك بالله.

فالهجرة أمرها عظيم كبير، وفرضها في كتاب الله مكرر كثير، لا يجهله إلا جهول، ولا ينكره إلا مخذول، إلا أنه قد قَطعَ ذكرَها، وصغَّر قدرَها، وأَمْحَى عهودَها، وحل عقودَها، تحكُّم الناس على الله فيها، وتظاهُرهم بالمخالفة لله عليها.

والمقام مع الظالمين في دارهم محرم، حكم من الله كما ترون أولٌ مقدمٌ، قد جرت به سنة الله قبلكم في الماضين، وسار به من قد مضى قبل رسولكم من المرسلين، صلى الله عليه وعليهم، في الأمم الذين كانوا فيهم.

فكفى بهذا في وجوب الهجرة، وما حرم الله من جوار الظالمين والفجرة، نوراً وبرهاناً، وحجة وبياناً، لمن آثر الله على ما يهوى، ولم يَمِل مع هواه على التقوى.

(164/2)

فأما من لا يصبر عما يجمع ديارالظالمين من الشهوة والفكاهات، وما يأوي إليها ويجتمع فيها من المجالس الملهيات، فما أبعده وأصدَّه، وأدفعه وأرَدَّه، للبيان فيما عطَّل من هذه الفريضة وبدَّل، وافترى في خلافها ومضآدَّتِها على الله وتقوَّل، فإلى الله المشتكى من ذلك وهو المستعان، فما بعد بيان الله

في ذلك بيان، فيه شفاء لمشتف، ولا إكتفاء من مكتفٍ، وما بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون، ؟كذلك حقت كلمات ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون؟[يونس: 32 . 33].

(165/2)

فاتقوا الله في الهجرة أيها الناس، فلا يقطعكم عنها الإلف والإناس، والمعارف والأحباب، والمجالس والأصحاب، والفكاهات والألعاب، والشك فيها والارتياب، فإن الله وملائكته أنسٌ لمن هاجر إليه، وقام لله من الهجرة بما يحب عليه، من كل إلفٍ وأنيس، وصاحبٍ وجليس، ورضى الله أرضى من كل رضى، وفرض الهجرة أوكد الفروض فرضاً، فلا تثقل عليكم الهجرة فإن من أيقن بالمرجع إلى الله والمعاد، خف عليه ثقل كل رشدٍ ورشاد، ومن أيقن بقصر مدته وبقائه، فكان مراقباً لأَجَلِه وانقضائه، لم يغترر بدنياه، ولم يلهه شيء عما أنجاه، وكان أبغض الناس إليه، مَن شَغَلَه عما ينجيه، أباً كان شاغله عن ذلك أو أخاً، ولم يعد شيئاً من دنياه سروراً ولا رخاءً، ولم يرغب فيما هو فيه من الحياة، إلا لما يطلب من النجاة، وكانت الدنيا ونعيمها عنده بلاءً، وما يستحقه الجاهلون منها ثقلاً، وغروراً كلها وكذباً، ولهواً في نفسه ولعباً، كما قال الله سبحانه:؟ما الحياة الدنيا إلا لهو ولعبٌ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون؟[العنكبوت: 64]، فحياة الدنيا عند من يعقل موت، ودركها وإن أُدرك فوتٌ، وهي كما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: (الدنيا سجن المؤمن وبلاؤه، وجنة الكافر ورخاؤه) ليست بدار سرور لمن يعقل ولا أمن، ولكنها دار الفناء ودار الأذى ودار البلايا ودار الحزن، لا يغتر بها إلا مغرور، ولا يأمنها إلا مثبور، ظالم لنفسه جهول.

تم كتاب الهجرة والحمد لله كما هو أهله ومستحقه.

وصلى الله على رسوله الأمين، وأهل بيته الأكرمين، وسلم عليه وعليهم أجمعين.

(166/2)

كتاب القتل والقتال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيئين، وعلى أهل بيته الطيبين وسلم.

سُئِل القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه، عما يجب به القتل والقتال، ويحل به عند الله السباء والأموال ؟.

فقال: يحل الدم والمال والسباء، ويوجب البرآءة والعداوة والبغضاء، ويُحرم أكلَ الذبائح، وعقدَ التناكح،

الكفرُ الذي جعله اسما واقعا على كل مشآقة أوكبير عصيان، ومخرجا لأهله مما حكم الله به للمؤمنين من اسم الايمان، بخلال كثيرة متفقة في الحكم، متفرقة بما فرق الله به بينها في مخرج الاسم، لها جامع وتفسير، فتفسيرها كثير، وجماعها كلها، وتفسير جميع جُمَلِها، فتشبيه الله عز وجل بشيء من صنعه كله، أو تجويره لا شريك له في شيء من قوله أو فعله.

(167/2)

وتفسير هذا الجامع أن يجعل مع الله سبحانه إلها أو آلهة، أو والدا أو ولدا أوصاحبة، أوينسب إليه جورا بعينه أومظلمة، أويزيل عنه من الحِكَمِ كلها حكمة، أو يضيف إليه في شيء من الأشياء كلها جهالة، أو يكذب له صراحا في وعد أو وعيد قالة، أو يضيف إليه سِنة أو نوما، أو وصفا ما كان من أوصاف العجز مذموما، أو ينكره سبحانه وبحمده أو ينكر، شيئا مما وصفناه به من توحيده منكر، أو يرتاب فيه تبارك وتعالى أو يتحيَّر، في شيء مما وصفناه به مرتاب أو متحيِّر، أو يذم له فعلا أوقيلا، أويكذب له تنزيلا، أو يجحد له نبيا مرسلا، أو ينسب إلى غيره من أفعاله فعلا، كنحو ما ينسب – من فعله في الآيات، وما جعل مع الرسل من الأدلة والبينات – إلى السحر والكهانة، والكذب والبطالة، فأي هذه الخلال المفسرة المعدودة، والأمور التي ذكرنا المبينة المحدودة، صار إليه بالكفر صائر، ثم أقام على كفره فيه كافر، وجب قتله وقتاله، وحل سباؤه وماله، ولم تحل منا كحته، ولم تؤكل ذبيحته، وحرمت ولايته على المؤمنين، وكان حكمه حكم المشركين، لأنه معتقدٌ بتشبيهه من الشرك بالله لما اعتقدوا، ومعتمد بتمثيله إياه عز وجل بغيره في أي الأقوال التي حددنا لما اعتمدوا، لأن الشرك نفسه إنما هو تثبيت إلهين أوأكثر، والقول بأن مع الله إلها آخر.

(168/2)

وأي الأقوال التي وصفنا قاله قائل، أو جَهِلَه وإن لم يقل به جاهل، فهو فيه مثبت مع الله لغيره، قال بإنكاره فيه أو تجويره، ألا ترى أنه إن أنكره فقد مثَّله بمنكَر الأمور، أو جوَّره فقد أشرك بينه وبين أهل الجور، أو جَهِلَه عز وجل فقد مثَّله بمجهول، أو تحيَّر فيه فقد شبَّهه بمتحيَّر فيه غير معقول، أو زعم أن له صاحبة أو ولدا، فقد أثبت بالاضطرار أنه لم يكن واحدا ولا فردا، وإذا لم يثبت له وحدانية الأولية، فقد ثبت معه اضطرارا غيره في الأزلية، وذلك فهو معنى الشرك غير شك، ولذلك سمى الله هذه الفِرَق كلها باسم الشرك، وحكم عليها بحكمه ليعلم أولوا الألباب والنُّهى، أن باشتباههم كان حكم الله فيهم مشتبها.

فاسمع لما قال فيما أوجب من قتلهم وقتالهم، وحكم به سبحانه من سبآئهم وتغنُّم أموالهم، وأوجب على المؤمنين فيهم من البرآة، ونهاهم عنه لهم من الموالاة، وحرَّم عليهم من مناكحهم، ونهاهم عنه من أكل ذبائحهم، فإني سأجمع ذلك لك إن شاء الله كله، وأُبيِّن لكم ما ذكر الله في ذلك أجمع وأفصِّله، بآيات مُسمِعات، و أحكام متتابعات، كراهية للتكثير عليك في القول، واكتفآء لك بتفصيلهن من الإكثار في كل علم مجهول.

(169/2)

قال الله عز وجل:؟برآءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ؟ [التوبة:1 – 5].

وقال سبحانه :؟إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كآفة كما يقاتلونكم كآفة واعلموا أن الله مع المتقين؟ [التوبة:36]. يريد بقوله تبارك وتعالى:؟كآفة؟ عآمة كما يقاتلونكم عامة، لا يختصون منكم خآصة.

وقال سبحانه :؟فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها؟ [محمد:4].

وقال سبحانه بعد الدماء، فيما أحل من الغنيمة والسباء:؟ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب؟ [الحشر:7]. ولا يكون فيئا، إلا ما كان غنيمة أوسباء، لقول الله عز وجل:؟يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ؟ [الأحزاب:50]. فجعل ما أفاء الله عليه منهن ملك يمينه، وأحلَّهن الله له بالسباء في حكم دينه.

(170/2)

وقال سبحانه:؟واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير؟ [الأنفال:41].

وقال فيما أوجب من البرآءة على المؤمنين فيهم، ونهاهم عنه من تولِّيهم:؟لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير؟ [آل عمران: 28]. فنهاهم عز وجل عن ولايتهم سرا وعلانية، وحرَّم عليهم ولايتهم لهم خفية كانت أو بادية، بقوله في هذه الآية الثانية :؟إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير؟ [آل عمران:29].

وقال سبحانه:؟يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين؟ [المائدة:51]. فجعلهم بموالاتهم لهم منهم، وأزال اسم الايمان بموالاتهم لهم عنهم.

(171/2)

ثم أخبر سبحانه بحال من سارع فيهم، ودل بما في قلوبهم من المرض عليهم، فقال :؟فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دآئرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين؟ [المائدة:56]. فأبان سبحانه أن ولايتهم كانت لهم ليست إلا لخوف الدوائر، وأن ذلك لم يكن منهم لهم إلا لما في نفوسهم من مرض الضمائر. فمتى ما وُجِدَ لهم أحدٌ ممن يدعي الاسلام متوليا، لم يكن في الدين أبدا كما قال الله إلا مريضا قلبه دَوِيًّا، ومتى ما كان قلب من يدعي الاسلام مريضا مدخولا، كان لما قطع الله من ولايتهم وصولا، وفي كون كل واحد منهما كون صاحبه، وكل سبب من الأمرين فموصول بأسبابه، فلا يوالي من أشرك بالله أبدا إلا من مرض في الدنيا قلبه بالشك، ولا يمرض قلب امرئ أبدا في دينه ويقينه إلا لم يبال مَن وَالَى من أهل الكفر بالله والشرك.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه :؟لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حآد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أوأبناءهم أوإخوانهم أوعشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون؟ [المجادلة:22].

وقال تبارك وتعالى فيما حرم من مناكحتهم :؟يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولاهم

يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر؟ [الممتحنة:10].

(172/2)

وقال سبحانه:؟ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون؟ [البقرة:221]. فهذا في بيان ما حرم الله تبارك وتعالى من مناكحتهم.

وقال سبحانه فيما حرَّم من أكل ذبائحهم :؟ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون؟ [الأنعام:121].

وقال سبحانه:؟حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به؟ [المائدة:5]، والإهلال به لغير الله، ذِكْرُه وتسميته وانتحاره وذبحه لسوى الله.

وقال سبحانه :؟وما ذبح على النصب؟ [المائدة:3]. وما ذبح عليها، فتأويله ما ذبح لها، والنُّصب فحجارة كانوا ينصبونها ويتخذونها مذابح ومناحر يذبحون عندها ولها ما يذبحون، وينحرون عندها من نحائرهم ما ينحرون، فحرَّم الله ما ذُبح من الذبائح عندها، ونُحِرَ من النحائر لها.

قال: ويحل الدم بعد ذلك دون السباء، ولايحرم مناكحة النساء، لخلال أُخر من الكفر والعدوان، يعرفها كل من وهبه الله يسيرا من الفهم فيما نزل من القرآن:

منها: ظلم الظالمين، وما بيَّن سبحانه من عدوان المعتدين، فقال سبحانه :؟أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير؟ [الحج:39]. فأذن سبحانه للمظلومين بقتال الظالمين لظلمهم إياهم، وأذن للمظلومين – بظلم الظالمين – لا بغيره في أن يسفكوا دماءهم.

(173/2)

وقال سبحانه:؟ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل؟[الشورى:41]، ثم أخبر سبحانه على من جعل السبيل بالقتل والتقتيل، فقال سبحانه:؟إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم؟ [الشورى:42]. وقال سبحانه:؟لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا؟

[الأحزاب:60 – 62].
فَصَنَّفَ سبحانه من أحلَّ قتله وتقتيله أصنافا ثلاثة مختلفة، لا يشتبه اختلافهم على من وهبه الله أدنى معرفة.

(174/2)

والمنافقون منهم الذين يقولون من التقوى ما لا يفعلون، والذين بسوء فعلهم يُكَذِّبون مايقولون، ويَعِدُون الله فيما يَعِدُونه، ثم يخلفون ما وعدوه ويَكْذِبُونه، كما قال سبحانه :؟ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون، ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب، الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم؟ [التوبة:75 – 79]. وكما قال عز وجل :؟الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين؟ [آل عمران: 167 – 168]. وكما قال سبحانه :؟ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون، أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ولهم عذاب مهين، لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون؟ [المجادلة:14 – 19].

(175/2)

وما دل سبحانه من هذه الصفات كلها وغيرها على المنافقين، فموجود اليوم كثير في من يتسمى كذبا وظلما بأسماء المتقين، وهذا فهو معنى النفاق المعروف في لسان العرب وكلامها، وما يدور من معلوم اللسان فيه بين خواصها وعوآمها، لا يجهله منها صغيرٌ طفل، ولا كبيرٌ كهل، ولو كان النفاق ليس إلا ما زعم بعض الناس من إسرار الشرك وإعلان التوحيد والإقرار، لما جاز أن يقال :؟هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان؟، وكيف يقول هم أقرب إليه ؟ وهم فيه وعليه ! هذ مالا

يصلح توهُّمُه في الكتاب لتناقضه واختلافه ! وميله عن الحكمة وانصرافه ! وكيف يصح أن لا يكون النفاق إلا إسرار الشرك بالله ؟! والله يقول سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وعلى أهله :؟يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير؟ [التوبة: 73، والتحريم:9].
فكيف يأمره بجهادهم على ما طووه من شركهم سرا ؟! وهو لا يحيط صلى الله عليه بكثير من علانيتهم خبرا. فكيف يأمره بجهادهم على سر القلوب ؟! الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب!! وكل من قال بأن النفاق إسرار الشرك بالله، غير موجب على نفسه لجهاد المسرِّين لشركهم بالله، دون أن يعلنوا من الشرك ما أسروا، ثم أن يمتنعوا من شركهم ويتبرُّوا، وفي هذا عليهم حجة لعدوهم في الجهل بالنفاق قاطعة، بينة مضيئة فيما قلنا به من أن النفاق فعلُ علانيةٍ لهم مما قالوا إن أنصفوا مانعة.

(176/2)

والصنف الثاني منهم: الذين في قلوبهم مرض وهو شكوك الإرتياب، فهم الذين كانوا يتولون كَفَرَةَ أهل الكتاب، كما قال سبحانه :؟يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دآئرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين؟ [المائدة:51 – 52]. فجعلهم تبارك وتعالى بتولِّيهم لهم منهم، وأخبر – بالعلة التي بها من مرض قلوبهم تولوهم– عنهم، ولو كان معها غيرها لذَكَرَه، ولأَبانه منهم علانية وشَهَرَه، وإذا كانوا عند الله منهم، لزمهم عنده تبارك وتعالى ما لزمهم، وكان حكم المؤمنين ومن تولاهم حكمَهم عليهم، وسيرتهم في الجهاد سيرتَهم فيهم.
والصنف الثالث منهم: أهل إرجاف وعبث، وأذى للمؤمنين والمؤمنات ورفث، كانت تُرجف بمكذوب الأحاديث وترهج، ليس لها دين ولا ورع ولا تحرج، ألا ولَمَّا كان لها في الإرجاف من الشغل به عنها، ويعنيها به لما أسخط الله منها، كانت تكثر فيه، وتجتمع عليه.
وهذه الفرقة فبقيتها بعدُ بالمدينة كثيرة معروفة، وبكل ما وصفها الله به من الإرجاف والعبث والرفث فموصوفة، تشاهد به مشاهدها، وتعمر به مساجدها، والله المستعان.
وكل هذه الفرق الثلاث جميعا، فقد أمر الله نبيه عليه السلام بقتلهم إن لم ينتهوا معا.

(177/2)

وقال الله سبحانه فيما أمر به المؤمنين من قتال من قاتلهم وقَتْلِهم لهم بحيث ثقفوهم، وإخراجهم إياهم من حيث أخرجوهم، ؟وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم؟ [البقرة : 190 – 192]. فأوجب عليهم قتالهم وقتلهم، بما كان من قتال الظالمين لهم. ألا ترى كيف يقول سبحانه:؟ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين؟. فجعل قتالهم وإن كانوا على شركهم عند المسجد الحرام مُحرَّما، ثم أحله لهم إن قاتلوهم عنده وحكم عليهم بقتالهم حُكما حتما.

وقال سبحانه فيما أذن به من قتل المعتدين باعتدائهم، وبسط أيدي المؤمنين للعدوان من سفك دمائهم، ؟فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين، وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين؟ [البقرة:194 – 195]. فأمرهم سبحانه للعدوان لا لغيره بقتالهم، ونهاهم عن أن يُلقوا بأيديهم إلى التهلكة باستسلامهم لهم، وأمرهم بالإنفاق في جهادهمَ، سبحانه والإحسان، وأخبرهم أنهم إن لم يفعلوا فقد ألقوا بأيديهم إلى التهلكة لأهل العدوان. وصدق الله العزيز الحكيم الأعلى، الذي لا يرضى لأوليائه أن يكونوا أذلاء، والذي لم يزل سبحانه يحوط العز لهم حوطَ العليم الخبير، وينصرهم عند القيام بأمره نصر العزيز القدير، وأي تهلكة أهلكُ لهم ؟! من استسلامهم لمن يريد قتلهم !!

(178/2)

وفي ذلك أيضا ما أمر الله، به سبحانه من قتال البغاة، مجتمع عليه، غير مختلف فيه، في كل قراءة مدنية أو عراقية، وغربية كانت القراءة أو شرقية، إذ يقول سبحانه:؟وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءوا فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين؟ [الحجرات:9].

ثم قال سبحانه مدحا للمنتصرين من الباغين، وترغيبا في الانتصار في البغي للمؤمنين، ؟والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ؟ [الشورى:39]. فمن أظلم وأبغى، ممن تجبر وطغى، فخص المؤمنين بغيُه وطُغاه، وعَمَّت الأرضَ فتنته وَبلاه ؟! لا مَنْ إن عقل من يسمع نداء كتاب الله بتعريفه!! وقام لله بما له عليه في ذلك من تكليفه.

وفي ذلك أيضاً ما حكم الله سبحانه به في القتل على الفتنة وكبائر المظلمة، وما أذن به تبارك وتعالى من محاربة أَكَلَة الربا من هذه الأمة، فقال في الفتنة :؟وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم

النصير ؟ [الأنفال:39 – 40]. والفتنة: فهي تعذيب أولياء الله بالضرب وغيره من أنواع العذاب والبلاء، وما كانت قريش تعذب به في جاهليتها مَن كان فيها من البررة والأتقياء.
وقال سبحانه فيما آذن به، أكلة الربا من حربه: ؟يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله؟ [البقرة: 278 – 279]. عزماً منه سبحانه على حربهم بأثبت الثبوت، وحكماً لازما فيهم لكل مؤمن حتى يتوفاه الموت، لا عذر لأحد من الخلق في تبديله، ولا اختلاف في الحكم بين تنزيله وتأويله.

(179/2)

وقال سبحانه فيما أذن به من قتل المعتدين من عباده، والساعين بالفساد في أرضه وبلاده، والمحاربين له تبارك وتعالى ولرسوله من خلقه، ولا محاربة له سبحانه ولا لرسوله ولا فساد أعظم من تعطيل حقه، والإعراض عن نهيه وأمره، وإقامة المتجبر على تجبُّره: ؟إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم؟ [المائدة:33].
وقال سبحانه:؟من أجل ذلك كتبنا على بني إسرآئيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا؟ [المائدة:32]. فأحل سبحانه من قتل الأنفس بفسادها واعتدائها، مثل الذي أحل من القتل بالقصاص بينها في دمائها.
وقال أيضا سبحانه وتعالى، فيما جعل من القصاص بين القتلى:؟يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم...؟ [البقرة:178] الآية.
فهذه وجوه ما أحل الله به الدماء، وأوجب به على فعله البرآءة والبغضاء، وكل وجه – والحمد لله – من هذه الوجوه فغير صاحبه، لا ينكر وجها منها مرتاب وإن عظمت بليته في ارتيابه.
وقد قال غيرنا من مرتابي هذه العوآم الغوية، وأعوان المعتدين من ظلمة بني أمية: لا يحل قتل من قال لا إله إلا الله، وكابر ما بيَّنا كله من ما حكم به الله.

(180/2)

واليهود تقول: لا إله إلا الله، وتؤمن ببعض كتاب الله، كما قال سبحانه:؟أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون؟ [البقرة:85]. فخزي الدنيا أن يُقوِّي مسكنتهم وذلهم، وقتالهم إن امتنعوا من الذل وقتلهم، فَحَكَم الله سبحانه بقتلهم، ودمَّرهم بفسادهم وكفرهم، والإعراض عن بعض حقه، وتكبرهم على المرسلين من خلقه، فقال سبحانه: ؟قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون؟ [التوبة:29]. ولقتلهم الآمرين بالقسط من الناس أوجب لهم تبارك وتعالى في أن من صد عن سبيل الله، وأفسد على أولياء الله دعوتهم إلى الله فهو من أعدى الأعداء لله، وأعظمهم عند الله عذابا وتنكيلا، وأوجبهم في دين الله قتلا وتقتيلا.

قال الله سبحانه :؟الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون؟ [النحل:88]. فما ذكر سبحانه من صدوا فهو..... (لم يكن عليه السلام أتم الكتاب، وهذا حده الذي بلغ فيه إليه، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليما كثيرا).

(181/2)

المكنون

[دعاء]

بسم الله الرحمن الرحيم

أستعصمُ الله بعصمته التي لا تُهتك، وأسترشده إلى السبيل التي ينجو بها من الردى مَن هلك، وأستوهبه التوفيق لهدايته، والحظ الوافر من طاعته، وأرغب إليه في إلهام حكمته، واجتناب معصيته.

(182/2)

[توحيد الله]

إن الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا كفؤ له موجود، ولا والد ولا مولود، تعالى من أن يَتَخَوَّنه أبد، أو يقع عليه عدد، فطر الأرض والسماء، وابتدع الأشياء، وأنشأ المخلوقين إنشآءً، بلا معين يشاركه في التدبير، ولا ظهير يؤازره على ما أبرم من الأمور، ولم يمسسه في ذلك كلال، ولم يتخرمه نصبٌ ولا زوال، ولم تَتَوَهَّقه عن محكم الصنعة العوائق، ولم يشتبه عليه ما أتقنه علمه السابق، بل نفذ بمشيئته ما أبرم، ومضى في خليقته ما علم، بلا اختلاج اشتبهت عليه فيه الآراء، ولا تَوَهُّم تفاوتت

عليه فيه الأشياء، فتعالى عما يقول فيه الظالمون، وعز وتقدس مما يتفوَّه به العادلون، جعل الأنام شعوبا وقبائل متعارفين، وفيما تنازعهم إليه الأنفس غير مؤتلفين، مختلفة هممهم، لا يشتبه تصرفهم، وكل يعمل على شاكلته، ويسلك سبيل طبقته.

والعقول حظوظ متقسمة، والأخلاق غرائز مستحكمة، فالحازم مغتبط بما أُلهِم، جَذِلٌ بما قُسِم، والمفرِّط متأسٍّ على ما حُرِم، يقرع سنَّه من الندم، فإن قهر نفسه على تَعَوُّضِ ما فرط، أورده صغرُ الهمم في أعظم الورط، وإن تمادى في التقصير، دحض دحضة الحسير.

وإني لما زايلت قلة الآثام، وخضت في أفانين الكلام، وناسمت كثيرا من علماء الأنام، أطللت على مكنون من العلم جسيم، واستدللت على نبأٍ من ضمائر القلوب عظيم، لأن صحيح الجهر، يدل على كثير من مكنون السر.

(183/2)

[صفات العالم الرباني]

واطلعت على ذلك بخصال أُوتيتها، وأُخر تجنبتها، فأما اللواتي أوتيت فذكاة الفطنة، وقلة المشآحة في المحنة، والاصغآء لأهل الإفتنان، والقبول من ذوي الأسنان، وكثرة الاقتباس من أُولِي الحِكم والأذهان، والزهادة في الزائل الفانِ، وصحة الناحية، وتكافئ السريرة والعلانية، وسلامة القلب، وحضور اللب، فافهموا يا بني.

وأما اللواتي اجتنبتها، فمهازلة الحمقاء، ومشاحنة الأدباء، وترك ما تَشْرَهُ إليه النفس من عرض الدنيا، والمكاثرة والحقد، والظغن والحسد، والاسترزاء للحُّر والعبد، والمماكسة فيما يكسب الحمد.

يا بني فبعض هذه الخصال طُبِعتُ عليه بالتركيب، وبعضها استعنت عليه بقبول تأديب الأديب، والتمثل بالأريب اللبيب، مع رغبةٍ حداني عليها طلب الازدياد، مما أرجو به النجاة في المعاد، والزلفة يوم التَّناد .

(184/2)

[فضائل الأعمال]

فلم أرَ مما أتاه الله العبد شيئا أفضل من التقوى، ولا أنجعفي العقبى من السُّلوّ عن الدنيا، وبيع ما يزول بما يبقى، ورأيت خير ما ينشأ مع المرء العقل المولود، والمذهب المحمود، والفهم العتيد، وكمح النفس عن الشهوات، وقصرها عما تدعو إليه من المهلكات.

يا بني فمن ظفر بهذه الخصال ثم عرف فضلها، وسلك بنفسه سبيلها، فاز بالظفر، وأَمِنَ مِن الغِيَر، ولم يكثر على الفائت تأسُّفه، وقلَّ عند النوازل تأفُّفه، وأبصر ما بين يديه، ولم تُنكِصه الشبهات على عقبيه، ومنلم يَقُده الفهم إلى العقل، زلَّ في شبهات الجهل، ومن لم يُلطِف النظر في غوامض الأفطان، كاد أن يدهمه الجديدان، ومَن كثرت حيرته، ملكته شهوته، وأَرْدَته غِرته، ونظره عدوه بعين الاستقلال، واستزراه في جميع الأحوال.

(185/2)

[صفات الحكيم]

يا بني: ولَخيرُ خصال المرءِ أن يكون على خلاله مستشرفا ولأَوَدِه مُثَقِّفا، بما يكون له من غيره متعرَّفا، من جميل يُومَىُء به إليه، أو مذمومِ خليقةٍ يُطعن من أجلها عليه.

يا بني: فكل من لم يفصل بالتمييز ما يعنيه من زمنه، ويحذر مضلات فِتَنِه، ويدخر لنفسه من جِدَتِه، ما يحمد غِبَّه في عاقبته، ويختر الزيادة على النقصان، والربح على الخسران، فهو كالمآص لثدي أمه، المخدجقبل تَمِّه.

يا بني: الزمان أنصح المستنصحين، وأرشد المسترشدين، وبحسب مَن صحبه، أن يعرف تَغلُّبه، ويقفو آثاره، ويتصفح أخباره، ويسير لكل حقبة بسيرتها، ويلبس لها أخصف لبستها، حتى تستوري نار زنده، وتستحكم قوى معتقده، وتتحصحص له طبقات دهره، ما مُدَّ له المهل في عمره، ثم لا يغتر بساعات الليل والنهار، ولا يسهو سهوَ مَن صحبَ الدهر بغير الاختبار، ولا يلهو عن مصلحته كأهل الاغترار، فإذا داوم على ذلك فقد كملت خصاله، وأحاطت بالجميل أفعاله.

يا بني: ولو أن العاقل ساير الأيام طول حياته بغير الإستحكام، والنقض والإبرام، لم يكن إلا كالصبي في مهده، المدخول في خَلَدِه، لأن العاقل الذاهلهو الخائض في بحار الظُّلَم، والمرتطم في الخزاية مع المرتطم، والمعرفة أسطع نورا من المقباس، وأجلى للقلوب من الهندوان للنحاس.

(186/2)

[صفات الغافل]

يا بني: ومن أعجب العجائب، ذو شيبةمرتدٍ بالنوآئب، متسربل بالمصائب، يستنكر ريبَ التصاريف، ويفجر أمامه بالتسويف، وذلك لضعف نحيرته، ونسيانه لما يتصرف من أزمنته، وكثرة سهوه وغفلته، عما قد أفهمته خبرته، وانتظمته تجربته. ولو – غُيِّب عنالعاقل اللبيب، كل أمر عجيب، مما فُطِر

عليه المفطورون، وقصر عن الإحاطة بخبره العالمون – لكان فيما طبع عليه في ذات نفسه، وما يمر به في يومه وأمسه، من الفقر والغناء، والسرآء والضرآء، والشدة والرخاء، والأخذ والإعطاء، والبذل والإكداءوكثرة السكوت، وطول الصموت، والاكثار في المنطق، والهدوءوسرعة القلق، والجد والهزل، وغلبة الجهل على العقل – له أشغلُ شاغل عن الفكرةِ في خلائق الانسان، وتضآد ما يختلف فيه من الجهل والعرفان، فالموموقمنها معروف، والمقلي منها مشفوف. فمَن جنح إلى الأقل، كبحواستوحل، وذم غِبَّ المصدر، وكان من أمره على خطر، وأندمته آخريته، لما قد دلتهعلى علمه أوَّلِيَّته، وليس بحكيم، مَن مال إلى الأمر المذموم، والخيلاء بالفضل، مجانبٌ لسبيل العقل. ومن جعل غيره لعينه نصبا، وأظهر على من سواه في شيء من أفعاله عتبا، وكان الذي فيه لطالب عثرته أعيب، كان الواجب عليه أن يكون على نفسه أعتب، لأن من استنكر أمرا من غيره، يرضى في نفسه بمثله، فقد دل على جهله، ومن سها عما يعنيه، كان مالا يعنيه أجدر أن لا يواتيه.

فافهموا يا بني: ما عبرته لكم، وأوضحته من شأن زمانكم.

(187/2)

[صفات الأحمق]

وإن من المنكرات، فيمن يسمنفسه بميسم الخيرات، أن يضرب بطرفه صاعدا، ويكون على غيره واجدا، ولزناده زاندا، كأنه قد تهذب من الأدناس، وأَمِن مِنمعيبة الناس، واستقام على سوق الزيادة للمستزيد، أَوْ ما عرف المعدوم من الموجود، والحاضر من المفقود، والخير من الشر، والنفع من الضر، والحَرَّ من القُر، حيث سلك في أحشائه، واتصل بحوآسه وأجزآئه، ثم أَدَبَّه الأركان إلى الأركان، والروح إلى الجثمان، ثم صرفته تلك العوارض الخاطرة، والنوازل السائرة، فاستفزته إلى السخط مرة، وإلى الرضى أخرى، فأسرف في الخلتين، ومال عن النجدين، فأين مستقر القديم منه، لم يدرأ به عنه، النوازل المُمِضَّة، والآفات العارضة، ويستدعِ لنفسه بدرئه لذلك عاجل السلوة، ويَنْفِ عنها بوادر الشقوة، ويعاود ما يديم له السرور، ويدفع عنه المحذور، ولو ألهم نفسه أحسن ما يُلْهَم، لزاح عنه خواطر الهمم، ولم يعدم محمود العاقبة وعلو الذِّكر في الفئام، والصوت الرفيع في محافل الأقوام، ولأقصر عن شقشقته، وشهد بالفضل لمزايل طريقته، ولكنه لم يحم أَنْفَه، وقل عن مزايلة ما تهواه نفسه أَنَفُه، فامتشجت الأدواء في آرابه، واستلبته رصين آدابه، فابتغى السلامة من غير جهتها، والراحة بعد فوتها .

كلا لن يكون فرع من غير أصل، ولا جود إلا ببذل، ولا زكاء مخلوق إلا بفضل، يُجَشِّم فيه نفسه المجهود، ويستدعى به لها الثناء المحمود، ويجنبها الموبقات، والشهوات المُردِيات، وليس من نفس إلا وهي تراود صاحبها على الهوى، وتدعوه إلى موارد الردى، فمن أعطاها زمامه، أركبته ردعه،

ومن منعها ما تهوى، فاز بالرغبى. ففي هذا لكم يا بني: بيانٌ ومعتبرٌ، ومن لم يستظهر، بالحزم على مذآقالأخلاق ودنآءتها، ويزجر النفس عن شهواتها، قصر دون رميته، ولم يدرك الثناء الذي سما إليه بأمنيته.

(188/2)

[مؤهلات القيادة]

ومن أحب أن تخضع له غُلبُ الرقاب، ويقل في طاعته الارتياب، ويُنتَهى عند أمره ونهيه، ويقتدى برأيه، فليأصر نفسه من ذلك على ما يريده من غيره، فإن انقادت لأمره، وازدجرت عند زجره، فليضمم كفه من غيره، على إنفاذ أمره. لأن تهذيب المرء بطريقته، يدعو إلى طاعته، والمقصر عن طلب منفعته تزل موعظته من القلوب، زلول القطر من الصفوان الصليب، فأَوقِعوا يا بني الموعظة بقلوبكم.

فيا أيها المبتغي الدرك في العاجل، والفوز في الآجل، اجعل لك من نفسك موعدا، تحظ به اليوم وتفز به غدا، بصدق لا يشاب بالتفنيد، ورجاء الموعود وخوف الوعيد، واسمُ إلى ماأحببت من ذلك بالعقل العتيد، والرأي السديد، وأنا سفيرك فيه بالدرك لما تريد. وإنما أعجز الطلابَ ما إليه يسمون، تعسفُهم السبيل التي فيها عن القصد يجورون، فلم يدركوا ما طلبوا، ولم ينالوا ما أحبوا، فعن مواردهم يا بني فازدجروا، وآثار آبائكم فاتبعوا.

إياك أن تستشهد على نفسك غير معرفتك بها، ولا تقبل من غيرك تزكيتها، بما يكذبه فعلك، ويحيط بضد تزكية المزكي علمك. فإذا توسطت علانيتك، وصحت سريرتك، فتيقن بصدقِ مَن أطراك بما فيك، ولا يبهجنك الثناء من المضطر إليك، ولا يَسفَه بحلمك مُملِق مَذِق، ولا من يستبيه معروفك بالتَّملُّق.

(189/2)

[مراقبة النفس]

يا بني: فإن أقل الناس عقلا، وأبينهم جهلا، من صدَّق من سواه، بما تكذبه عيناه، والعقل آمن أمين، وأفضل قرين، فاستأمنه على أحوالك، وجميع خلالك، واعرف ما عرَّفك . وإذا حمدت من أحد مذهبا، فكن لمثله متسببا، ولكل ما تستنكره من غيرك مجتنبا، ولتكثُر من مستتر عيوبك وحشتك، وليقلّ بخفياتها أُنسك، فإن اكتتامها كالمحرض على أمثالها، وإذا امتلأ الإناء انكفأ، وإذا تُنوسخ السِّر فشا.

فكن يا بني: لجميع خلالك متفقدا وداوم على جميل ما به تُعرف، ولا ترض من نفسك بما تستقبح من غيرك إذا انكشف، وأردف جميل غدك، بجميل يومك، ولا تغتر بستر الله عليك، فتتعرض لما يُندِمك عجبا بما يُومَى به إليك، وتظن أن سالف الحسنات، يمحو مؤتنف السيآت.

ومن استصغر سيئته، فيوشك أن تحبط حسنته، ولكل نعمة حاسد يدير بها الدوائر، وبحسبك أن يبصركبالجميل أهل البصائر، فيشغب حاسدك، فيما يرجو أن يهدم به ركنك، ويمعن في الطعن عليك في كل ندي مشهود، ليقبض المتفوّه فيك بكل أمر محمود، فينقبض انقباض المحسور، ولا يجد السبيل إلى التغيير.

وأحذرك يا بني: البغي، والتهمة والظن، فإنهما ملصقان، بكل إنسان، فلا تجعل لمتهمك إلى تهمتك سبيلا، ولا تكن في غيرك بما تكره أن يُقَال فيك قؤولا، وانظر ما كنت به مما يوجد به السبيل إلى الطعن عليك فعولا، فكن له قاليا وعنه حؤولا، مع نظرك، لنفسك . وإن أردت أن تظفر من الدنيا بزينتها وزخرفها، وعزها وشرفها، وبالبهاء الذي يستنار به في كل مكان، والثناء الذي تسير به الركبان إلى جميع البلدان، فعليك يا بني: بالطاعة التي لا تدفع بالعصيان، والمحبة المنتشرة بكل لسان، فاجعل المروءة لك شعارا، والصيانة لنفسك دثارا، فإن مَن صابرهما، وألزم نفسه الصبر عليهما، تَغَرنَقَ في الغرانيق العُلى، وتمكَّن في قُلَل الشرف القُصا، وإن لم يكن ذا غرض من الدنيا.

(190/2)

يا بني: والمروءة غير مبيعة بثمن ربيز، ولا حرز حريز ولا مطلب عزيز، ولو لم يدركها الرآئمون، إلا بجزيل ما يطلبها به الطالبون، لكان ما تعيد وما تبدي، أجزل منه وأوفر في العواقب والبَدِي، ولو كانت لا توجد إلا في أبعد الأمصار، أو في لجج البجار، بالقناطير المقنطرة من الأمور الكبار، لكان الواجب على ذوي العلم بخطرها، والمعرفة بقدرها، التعلقُّ بأغصانها، والبذلُ للنفيس من أثمانها . لكنما اشتملت عليها داياتك، وحَبِيَت عليها مُستكنَّاتك حتى تبثها عنك إذاعتها، وتشيع لك فضيلتها، بأن تمسك عن الأمر المردي، وتعرض عن القبيح الذي لا يغني، وتملك نفسك فيما ملكت، من كبار الأمور وصغارها. تم ربع كتاب المكنون بمنِّ الله وعونه، وحسن توفيقه.

(191/2)

[المروءة]

يا بني: ولا تَجُر عن قصد السداد، فيما أنت فاعله وتاركه إلى يوم التناد، وكل ما أوجَبَتْه عليك

الحقوق، تأدَّيتَ منه إلى كل عدو وصديق، فافهم، يا بني: ما أصَّلت لك من فروع الأدب والحكمة.
ومن زعم أن المروءة لا تصلح إلا بالمال، فقد أضلَّ في المقال، لأن المروءة قد تنقاد لذوي الإقلال، وتصَّآعب على ذوي الأموال.
وللمال موقع من بعض القلوب، يكاد أن يخرج صاحبه إلى الأمر المعيب، حتى تذهب مروءته، وتغلب عليه حلاوته، فَتَنَهَدَّ ذروته، وينطمس كرمه وحريته.
وللمروءة في المال أنصبآء، تتشعب فيه شعبا، وليست المروءة بمعدومة في أحد إذا جد في طلبها، وأتاها من بابها، وليست لها أثمان تباع بها، إنما هو جميلٌ تقولُه، أو خير تفعله، أو معروف تبذله، أو إقصار عن الاكثار إذا لم يكن للكلام موقع، فهذه خلال يكون لك بها في المروءة قدر وموضع، تستوجبه بها، إذا لم يمكنك الاستكثار من غيرها، وكلما ازددت، أدركت ما طلبت، وقد أوضحت لك ما تطلب به المروءة بأحسن الإيضاح، وكنت لك أنصح النُّصاح، فإن أخذتها باللِّين – يا بني – سَلِسَ لك مقودها، وإن غلَّظت شسع عنك عتيدها، وصار نحسا عليك سعودها، فأَسعِد الأدب يا بني بالحكمة.

(192/2)

[الحسد]
وإياك والحسد فإن للحسد نفرة على صاحبه مضرة، فأبرده عند اضطرام تسعُّره، بكثرة التبكيت، وتعريفه صغر صاحبه الممقوت.
يا بني فإن الحاسد لا يدرك في حسده نقيرا، ولو أزيح عن المحسود ما حسده عليه لم يظفر منه قطميرا، وليس من أحد من المخلوقين إلا وعليه من الله نعمة ظاهرة أو مكتتمة، أصناف مقتسمة، صغير ما يولي الله العبد منها ويبليه، ويهب له ويعطيه، منصحته، وطول عافيته، وما يصرف عنه من البلوى، خير له من ما بين الأرض والسماء. يا بني: وكم من ذي نعمة متجددة، يحسده مَن دونه على نعمة منتكِّدة، ولو أشعر نفسه ما يجب عليه من شكر المنعم، كان ذلك أزيد للنعم وأصرف للمُلِمّ.
وفي الحسد ست خصال:
* طول الاغتمام بما لا يجدي.
* وكثرة الاهتمام بما لا يغني.
* وتكدير المعاش.
* والخساسة عند الأخيار والأوباش.
* وحرقة القلب.

* ومضآدة الرب.

واعلم يا بني: أن البغي دآءٌ لا دوآء له، فمن كثر في المحظوظة تشكُّكه، طال في البغي محكُّه، والبغي فرع الحسد الأعظم، وبه تحل النقم، وتزلزل القدم، والباغي مخذول، مفلول، والمبغي عليه بالخَبَرِ عن الله مؤيد بتعجيل النصرة، في الدنيا والآخرة، فإياك والبغي أن تلهج به فتكون صريعه الذي لا ينتشع، وقتيله الذي لا يمتنع.

(193/2)

[مفردات أخلاقية]

وأحذرك يا بني: العجلة وإياك أن تكون عجولا، فيما تجد إلى التثبت فيه سبيلا، وتَبَيَّن في صدور أمورك من قبل أن تبدو لك عواقبها، وتتكشف لك معائبها.

واعلم – يا بني – أنك المشار إليه عند عجلتك، بما تسمعه أذنك، فيمن قلَّ تثبتُّه، وذُمَّ على ما تكسبه عجلته! فأَكثِر من العجلة التقيَّةَ، وعلى نفسك من قبح القالة البقيَّة، وإياك أن يوردك الغضب موارد العطب، ويُشعلك إشعال النار للحطب، فادفعه بالاحتمال قبل أن يضطرم، فيهريق الدم ويَصِم العظم ويسلّ اللحم، فأخمِدْه قبل أن يتلظى، فإنه إن استعر بهظك بهظا، ثم دفن ما كنت تُذكر به من المحاسن، وأعلن ما كنت تكتمه من المقارن.

واعلم يا بني: أن آفة السلطان، الجور والتجبر على الانسان، إياك إن كنت سلطاناً أن تستظهر ذنوب المذنبين، أو تعاقبهم عقوبة المغضَبين، وإن كنت سوقة فماذا يضرك مما يلمزك به الناس من المنطِق فيما ترجو به الرفعة، والعلو بعد الضعة، وإياك أن تغضب على مَن دونك، أو تستصغر مَن فوقك، وَجُدْ بالفضل على من ناواك، وبالصفح عمن عاداك.

واعلم أنه لا بد للمكارم أن تعلو، وللمحاسن أن تفشو، من ناشر لها يُلبسك هيبتها وجلالها، ونبلها وجمالها، حتى يَنسُم عليك روحُها، ويشيع لك حمدها، ويتجلى بها عنك الغماليل، ويرد بها من قلبك الغليل.

(194/2)

يا بني: عليك بالحلم فإنه ليس يسمى الرجل حليما حتى يملك نفسه عند الغضب، ولا جوادا حتى يفيد إذا ازلأَمَّ الأزب. وإنما يوصف بالنجدة، من باشر أهل البأس والشدة. وللمحاسن والمحامد بوآدٍ معتمدة، تَطَلَّع إليها الأفئده، ثم يُبذل فيها الغالي من الأثمان، وتُنضَا بها العيس إلى جميع البلدان،

فمَن سرَّه أن يشهر بالجميل والاحسان، فليشهد التي منها يتناقلان، ثم ليظهر منهما ما يسير به في الآفاق خَبَرُهُ، ويَعظُم به في الناس خَطَرُه، ثم ليقوِّم من نفسه بحسن التعاهد أوَدَهَا، وليأخذ منها لها ما يزين به غدها، فإن الأخلاق إذا سمحت، والعلانية والسريره إذا صحَّت، كانت غنائم يرتحل إليها المرتحلون، وأحاديث حسنة ينقلها الناقلون، وتبجيلا لصاحبها في العالمين، وغبطة يُغتَبَطُ بها يوم الدين.

(195/2)

[الخلق والمال]

والواجب في الأخلاق أكثر من الواجب في الأموال، وأفضل في جميع الأحوال، وإنما يُعَظَّم ذو المال ماكان موئلا، فإذا تُخرِّم ماله عاد دحيرا قليلا !! والأخلاق لا يبلى جديدها، ولا يطيش سديدها، وفضل صاحبها باقٍ في حياته، وبعد وفاته، والمال ثوبٌ تخلق جِدَتُه، وتسمل سداه ولُحمته .

وأحق الأشياء بالصون العرضُ الصحيح، والحسب الصريح، ومن آتاه الله قلبا ذكيا، وزنادا وريا، وخلقا مرضيا، وسخاء مذكورا وعقلا زكيا، وفهما مرضيا، وعلما بتقلب الأحوال، وتصرف الأيام والليال، ولسانا يؤدي إليه معرفة خلف الأزمان، ويمتهنه فيما يعود عليه نفعه كل الامتهان، ثم زمَّ نفسه عن الكُبرة، واعتاض من التجبر حسن العشرة، وقلَّ افتخاره عند مناظرته، ولم يستدع نظيره إلى مباحثته، ولم يجار المجاري له من طبقاته، في طريق مساواته . ولم يخرج من القول إلى مالا يعلم، ولا من الفعل إلى ما يُستَعظم، فقد شرى لنفسه محمدة الحاضر والباد، واجتهد في مصلحته أشد الاجتهاد، واستحق التعظيم مِن جميع مَن ضمته أقطار البلاد، واجتمعت له الطرائق السمحة، وزاحت عنه المذاهب المستقبحة، وجرى عليه اسم الخِيَرَة، ونظرته بالنواظر المبجِّلة كلُ عين مبصرة، وجاز حد الأكفاء، واعترف له بالفضل النظراء.

ولا بد أن في كل منفوس، آلةً تطلع إليها النفوس، ويفتقر إليها حاجةً المفتقرون، ويتشوف إليها المشوفون. فمن قَصَّرعن علمها، عظم في نفسه صاحبها، وجل في عينه بحسب ما يدلُّه، عليه عقله، وحاول أن يكون له على أمره ظهيرا، وارتفعت عنده درجته من أن يكون له نظيرا، ومن اتسع بُدَدُه، لضده ونده، كان على قدر ذلك عِظَمُ شأنه، وارتفاعُ مكانه.

وكم من جامع لمال ! يجود به لينال هذا المنال، ويستدعي من الجميع محبتهم، وينفي به حسايفهم، فلا يدرك من ذلك ما يريد، ولا يؤديه إلى ما يؤمل من العوآم مالُه الممدود.

(196/2)

[العلم والمال]

وذو المال – يا بني – مذموم ومحمود، وذو العلم مومموقٌمودود، وفي العظماء معدود، وعند التباس الخطوب معمود مشهود، وبعد الوفاة مفقود، ومن أُتِيَ إليه ما يُستنكر في الملأ، فتغمد ذلك بصبر وعزاء، فقد نال من الشرف منالا، محمودا في الآخرة والأولى.

(197/2)

[الصفح الجميل]

ومن اعتذر إليه، من أساء فيالمقال والفعال عليه، فأَسرَعَ في القبول، والعطف عليه بالجميل، فقد أبدى جَهْل متناوله بصفحه، وخسرانه بزيادته، وركاكته بركانته، وطيشه بحلمه، وسخافته بتكرُّمه، وجوره بعدله، واستطارتهبعقله، وعجلته، بمهلته، وبآء المعتذر إليه، بسوء الصنيع لديه، وأفاده خير الفوائد، وألبسه عند من كان به جاهلا ثوب المحامد، وأعلن من نبله ما كان مستترا عن الغائب والشاهد، وأظهر إعزازه وتطوُّله، بما كان من تذلُّلِه له، وجثوّه بين يديه، متنصلا إليه، ملحا في مسألته، كالعبد المعترف بزلته، يبذل له من نفسه الصبر، ويعطيه التوبة إلى آخر الدهر.

فياويح معتذر أسلكته في مضايق الذل عجلته !! وألبسته ثوب الخضوع والاستكانة هفوته، وأعلنت لصاحبه عليه يداً، أكسبته حمدا ما كان الأبد أبدا، ولَرُبَّ مغتبطٍ بمنال شريف الثناء، لولا ما لا يأمنه من قلة الاغتفار للأذى، لَرَغِب إلى الله فيه في كل صباح ومساء، لِتَعظُمَ باحتماله عند الناس حظوتُه، وتكبر عندهم منزلتُه، ومن نزغت به النزغات فيما بينه، وبين صنوٍ له، كان بمودته ضنينا، وله على ملمات دهره معينا، فعزم على مقاطعته، وباينه مباينة أهل عداوته، وحاول به الغدر والمكر ليقطع من أسبابهأسبابَه، وفجع به أحبابه، ثم لم يدفع غضبه بالرضى، وصدوده بالوفاء، ونزغة الشيطان بالحياء، ويرجع إلى ما هو به أولى، من محض الصفاء، وخالص الإخاء، ويميز ما مُنِي به من الأمور المؤلمات، وما كان قد أضحك به سنه وأطال به سروره في الليالي الخاليات، فإذا أوضح له التمييزُ تطاولَ الحسنات على السيئات، فأداسها بقدمه، ولم يصفح عن صنوه وعن جُرمه، فليس من أهل الحِكَم، ولا السامين إلى مراتب الهمم، وعما قليل سَيَئُول إلى الندم، إذا تحاماه الإخوان، وطرقَه الزمان، بما ليس له عليه أعوان .

(198/2)

وإن سلَّ من قلبه السخائم، وجرى في ميدان المكارم، ولم يأت أمرا يكره أن يؤتى إليه مثله، سكن غليله، وصفت له عيشته، وطالت سلوته، وكثرت راحته، ورسخت في القلوب محبته، ونقيت من صدره ضغينته، وأشرقت بالفضل صفحته، وعادت له من صنوه مودته، وتأكدت في رقبته منته.
ولعله إن طال تمعزه، أن يكثر عما يروم به عجزه، فيريه الغيظ والحَرَد، ويغلغله الحزن والكمد.
تم نصف كتاب المكنون والحمدلله رب العالمين.
ألا وإن أحمد الناس مذاهب، وأكملهم ضرائب، وأحسنهم فعلا، وأرسخهم في اللب أصلا، من تجافى عن هفوات إخوانه، ووادع أيام زمانه، وصاحب بالمسالمة خدينه، وبالمناصفة قرينه، ورضي من دهره بالموجود في غيره، وساير الناس كلا على ما طبع عليه في عصره، فإن أعظم النوائب، وأقبح النواكب، أن يسكن قلبَك البغضةُ لمن كنت له وامقًا، وتقل ثقتك بمن كنت به واثقا، وتستوحش ممن كان لك نصيحا، وكنت إليه حين تحزبك الأمور مستريحا.
واعلم يا بني: أن الحقد والحسد والغضب إذا اعتلجت في قلبٍ أوقدته، وأعمدتهوأقلقته، فربما تهيَّجَ من ذلك الداء المستكن فاستوحش له البدن، وأظهر من غوامض الأوجاع ما بطن، فتغيرت لذلك الطبيعة، واستُدعِيت القطيعة.
فالواجب على الأريب العاقل، أن يسلو فيما نزل به سلوَّ الذاهل، وأن يتسبب لدفع ما ألظَّ به من محاورة الأوداد، بالملاينة وترك البعاد، وإخماد ما يتشبب بالأحقاد، ويتطلف للمسالمة والراحة، وما فيه عائدة المصلحة، حتى يعود إلى ما تعوَّدَ من السرور في قديم العهد، ويُبعِد عنه خواطر البال أشد البعد، ويَدفع عنه طَول الحمية، وبُعد أهل الجاهلية، فإن الضمائر المذمومة أشر ذخيرة، ادَّخرها أهل المكرمة والبصيرة، وليس تنجع المواعظ إلا في ذوي العقول، وأهل الرأي الأصيل.
يا بني: فأما ذوو الأذهان المستلَبة، الممنوعون حسن النظر في العاقبة، فغير سآدِّين ببصيرة ولا فكرة، في أمر دنيا ولا آخرة.

(199/2)

فصاحبِ الناسَ بحسن المعاشرة، وألبس كُلاًّ بالمساترة، ولا تَثِقَنَّ بكل أحد فتعجز ، وكن هينا لينا كثير التحرز .

(200/2)

[واجبات الأُخُوَّة]

وآخ من آخيت بالستر لعورته، والإقالة لعثرته، ولا تُطِل معاتبته إذا هفا، ولا جفوته إذا جفا، ولا تأخذه بالغاية القصوى، فإن زل فَأَقِلْ، وإن قصَّر فاحتمل، وإن كملت عندك بصدق المعرفة خلالُك، وتيقنت أنك لاتجد كفؤا لك في مثل أخلاقك، فلا تمحض مودتك لمن يكون بمعزِل، عما لست عنه فيه بذاهل، واطَّرِح عنك ثقل مؤنته، وأدرِج له في مثل مودته، فإن للناس مذاهب مختلفة، وأخلاقا غير مؤتلفة.

يا بني: فإن الكامل في جميع الحالات، المعدود في أهل المروءآت، لا يكلف الأخلاء ما يُعدَم في الطبع الذي رُكِّبت عليه الأجسام، ولا يُحَمِّلهم ما تقصر عن بلوغه الأفهام، فلا تراود أحدا على مالا يوجد في خليقته، فتكون قد ظلمته بمراودتك له على معنى لا تناله مقدرته.

يا بني: وخالقِ الناسَ بالبشر والبشاشة، واللين والطلاقة، وسلامة الضمائر، واستدعاء ما إليه يشخصون في الظاهر.

(201/2)

يا بني: وكن سهلَ الجناب تحمد، وأكثر التَّبذُّل ترشد وتسعد، ومن عاشرته من الناس يا بني فعاشره على قدر عقله، ثم سائره على حسب ساعات نهاره وليله، واجرِ مع كل يوم كما يجري، فإن الأيام تُقَلِّب المرء أطوارا وإن كان لا يدري، فلا يذهب بك القياس، إلى ما كان عليه في أمسِكَ الذاهبِ الناس، فإن لكل يوم وليلة ممرا، يحول فيه عن سالف خلائقه المرء، فإن مَن سعى مع يومه بغير ما يوافقه، وخالقه بغير خُلُقه، طالت معتبته على الصديق، وكان كالسائر في غير الطريق، فلا تذهب نفسك بالحسرات، في طلب الوفاء ممن ليس لك بالمُوَات، ولا تشغل قلبك بالتفكر فيمن يخيس بعهدك، فإنك إن عثَرَتْ لك قدم، أو نزل بك مُلِمّ، صرف وجهك عما كنت تشخص إليه منه باليأس، وأخلفك حسن الظن فيه كما أخلف من كان قبلك من الناس، فاقطع عنك هذا الطمع الكاذب، ولا تُسْلِك بين جوانحك الرجاء الخائب، واقبل ما به حُبِيت، وإليه دُعِيت، بالرأي الجازم، والعزم اللازم، فإنك خليقٌ عند القبول، والعمل بما أقول، أن لا تنقطع مروءتك حين يصد عنك الخليل إذا أسلمك عند النازل بك، وأفردك بما يسكن جوى الأحزان في قلبك.

فتأدب يا بني: بأدب آبائك، واطرح عنك صفحا من يمزج لك من لسانه العسل، ليوهمك بغروره أنك تحل منه في أرفع المحل .

يا بني: إياك والطمأنينة إلى من قد حبيت على النكث جوانحه، ورُكِّبت على الغدر جوارحه، فكن لأوليائك متهما، ومنهم متسلما، وباليأس منمن وفائهم عالما، فإذا صار ذلك في صدرك مستحكما،

فانظر ما كنت تطمع به منهم، فكن أنت على مثله لغيرهم، تُضرب إلى بابك القلائص، وتشخص إليك عند النوائب العيون الشواخص، وتصير كهفا للاجئين، ومعتمدا للقاصين، وزينا للأقربين.

(202/2)

إياك يا بني: أن تستن بسنن أهل الاختيال، أو تعمل بعملٍ يُستقبح من الأعمال، وإن كان ذلك في الناس كثيرا، وفي غيرك مشهورا، فإنما يستحق اسم السؤدد، عند كل أحد، مَن قلَّ اختياله، واستُحسِنت أعماله، وجاد بالمعروف، وعطف بالفضل على الضعيف، وطبع نفسه بطابع المروءة، وصانها عن الأخلاق المذمومة، ومن صح عنده كرمه، وظهرت على غيره نعمه، وزال لمزايلة ما تهواه نفسه ذمُّه، برَّز في السبق، وصار محمودا عند الخلق، وبان عن سواه، وتكاملت أسبابه، وليس كل عاقل مفضل بعقله، حتى يحتمل مِن عاذله كثرة عذله، فلا تؤدب العاقل بما يُستثقل، ولا تُحمِّله مالا يُحتمل، فإن مداوي الجرحى، قد يحميهم ما لا يحمي منه الأصحاء. وليس بطبيب ولا برفيق، مَن أَمَرَ من الدواء بما ليس له المأمور بالمطيق. ومَن ادعى المعرفة بالتفرُّس قبل الامتحان، فقد سبح في الغَمر الذي ليس له به يدان .

(203/2)

[أصناف الناس]

يا بني: الناس رجلان، فرجل ذو عين باكية، على ممر أيامه الخالية، متأسٍّ على أخدان له سلفوا، وَآلافٍ له انقرضوا، يَشرَقُ بغصته، ويأخذه الشجا في حنجرته، فلا يتهنأ بطعم، ولا يتلذذ بنوم، فُقدًا لسالف معاشريه، وتوجعا على ما فاته من قديم عهده بمؤالفيه، حتى كأن لم يفارق مصافيا، ولم يعدم مؤاخياً، إلا في ذلك الحين الذي هو به، فحُرقته لا تنجلي عن قلبه، فذلك المواسي عند حلول النوازل، الجواد بمهجته في الخطوب الجلائل، الذي لا يلهيه عن الاحتيال فيما يحل بأخدانه، من نوائب أزمانه، حتى تنجلي بُهمَتُها، وتنكشف كربتها، فذلك الرقيق قلبه، المداوم على الحفيظة أربه، فاشدد به يدك، تقرّ عينك، من غير أن تترك الاحتراس، لتقلُّب الأيام بالكثير من الناس.

وآخر ساهٍ عن ذكر مَن تولى، كثير السلوّ عند نزول القضاء، طويل الغفلة عما يُلِظُّ بالأخلاء والأقرباء، دائم الجفوة والقسوة، إذا انقضت ساعته، انجلت غمته، وبردت حرقته، فذلك الذي لا يرنق صفوَه كدرٌ ، ولا يثق بوفائه بَشَر .

يا بني: ومَن أحب أن يصلح خلقه، وتسدد إلى الخيرات طرقه، فليصحب الكرام، وليَقِلّ – فيما يعود

وبالاً عليه – الكلام، وليصن لسانه عن مفاكهة اللئام، ونفسَه عن مخالطة الكهام. وليس من مخلوق إلا وله دليل يُستدل به عليه، وسائسٌ يشرع بالأبصار إليه، فصن نفسك يا بني عن موضع الرِّيب، ومهازلة الحمقاء.

(204/2)

واعلم يا بني: أن مخآلة الرعاع والأوباش والأوغاد، ربما آلَ بالطبع الحسن إلى الفساد، غير أن المغرس إذا كان كريما، والفرع محضا صميما، أيقظ المرء عن سنته، ورده إلى أوليته، ومحَّصَ من العلل دَرَنَ غريزته، ومَن رِيضَ ولا غريزة له بأدب سَلِسَ ثم رجع إلى الحران ودحض به عن الاستقامة القدمان، وقَلَّما انفردت غريزة من عقل ولا عقل من غريزة، فمن طُبع على واحد منهما كان الآخر له لاحقا، ومن خلا من واحد منهما كان الآخر له مفارقا، ومن ألانَ جناحه للمخاشن، وجعل وجهه بَسَطا للملاين، وألقى مِقْوَدَه إلى المحاسن، فقد ارتقى في ذروة المكارم، واستُعين به على العظائم، واقْتَرَفَ الحمد من المباعد والملائم .

(205/2)

[مكارم الأخلاق]

يا بني: فتَعَوَّد القولَ الجميل، وأَصبِر على ذلك نفسك صبر الحازم البهلول، وآسِ من رآك لحاجته أهلا بالكثير والقليل، ولا تَشخص بطرفك، إلى مكافأة الممتاح لعرفك، فيذهب صنيعك ضياعا، وتكون بمنزلة من أعطى صاعا ليأخذ صاعا، وإياك ومذآقة الأخلاء، والاستطالة بالغناء، والاستقصاء في شيء من الأشياء.

وألزم نفسك يا بني: الكرم والتذمم، وقلة التعظم، وأعظم شأنك بالتصامم عن اللغو المنكر، وبالتغافل عن الأمر المصغر.

يا بني وكن للراغب إليك وصولا، وللضعيف الطارئ عليك مُنيلا، بذات يدك إن أمكنك، أو بجاهك إن أعجزك ما أمَّل منك، ولا تتبع عورات الجيران والجارات، ولا تبحث عما استتر عنك من العثرات، وتغطَّ بستر الله عليك قبل أن يهتك بحثُك عن أستارك، فينكشف ما استتر من عوارك .

(206/2)

[الكذب]

وتهذَّب من الكذب، فإنه مسخطة للرب، مفسدة للقلب، ضعة للنبيل، نقصٌ لذوي العقول، وهو ضرب من الفحشاء، وشيمة من شيم الحمقاء، ورأس مال أصحاب المُنى، وربما استحلت به الدماء، ورُكب به الدهماء، واستبيحت به القرى، وعظمت به البلوى.

فكن يا بني لعرضك منه صؤونا فإنه إذا تضمنته الأحشاء، جاشتبه إلى الصدور الحوباء، ثم تَلَقْلَقَ به اللسان، وفشى منه الكتمان، وفارت به الشفتان، فوران المرجل بوقود النيران.

يا بني: وإذا تمكن من قلب خرب، وغلب عليه كل الغلب، وكاد لا يفارقه آخر الحقب. وكم من صاحب له يريد انتزاحه منه فلا ينتزح، و إصلاح لسانه منه فلا يصلح، لكثر غلبته، وشدة ضراوته، والكذب مجانبٌ للحق، مكذَّبٌ مَن عُرف به في الصدق.

(207/2)

[قواعد أخلاقية]

فتأدب يا بني: بأحسن أدب المتأدبين، واقتد بهدى الصالحين، واستغشِ بثوب السلامة، ولا تَدَرَّع سرابيل الملامة، وتودد للخآصة والعامة، وأَجمِل البِشرَ في اللقاء، للعدو ولذي الصفاء، وابذل له الانصاف في كثرة الاصغاء لكلامه، والاستماع لحديثه، ولطف الاجابة له على مقالته، والمكافأة بما ترضيه في عشرته، واستبرز في حديثه، ولا تستطل ريثه، فإن لكل واحد في نفسه قدرا، كبيرا كان أو صغيرا، وأكثر تبسطه إليك، وقاربه ليألف ما لديك، واستعمل عقلك في كل زمان بما يصلح له من الأدب، واسعَ مع أهله في كل عَدْوٍ وخَبَب، يَفِر لك عرضك، وتستوطئ بك أرضك، ويستحكم لذلك إبرامك ونقضك، ويستتر عنك مُدَّعِي بغضك.

ولا تحمل الحقد على أترابك، ولا تحملنك المماحكة في الأحكام، علىملآدّذوي الأحلام، فربما أورث المحكُ الشحنا، وأبان لك من خليلك ما كان عنك مستكنا.

تم الجزء الثالث من المكنون والحمد لله رب العالمين.

واقبل نصيحة من حباك بنصيحتة، واتعظ لموعظته، لا تجانب السداد، واحتمل قوارع الفؤاد، واسْلُ عما كنت له آلفا، حتى تظفر بما صرت له مستأنفا، وتَصَرَّفَ لك نفسك تصرفَ الذلول في زمامك، وتكون عيوبك أمامك، ترمقها بعين العِيافة، حتى تعود إلى ما به أُمِرت من المؤالفة، وإياك أن تكون على ما لا تَمُقْه من غيرك مقيما، فتكون عند الناس مذموما، ولا تدع إصلاح ما يذمه منك غيرك، باجتنابك له ما مُدَّ لك عمرك.

يا بني: فإن عجزت عن استئصاله، فَحُل به بالتحلق عن محآلّه.

(208/2)

[الكبر]

يا بني: واجتنب الكبر فإنه رداء الجبار، والمعطل للديار، والمحل لصاحبه دار البوار، والمغير للانعام، والمعجل للانتقام، وعليك بتحصيل الأشياء وفحصها، وقرع أبواب زيادتها ونقصها، وتصريفها على جهتها، وقلة العجلة في التبصر بها، حتى تتضح لك آثارها، وتُسفِر لك أوجهها، ثم استقبلها في أوان العنفوان، ولا تَنقَدْ بالهوى إلى الوَخَمن الأعطان، فتجرحك الأوهام، ويصرعكما ليس لك عليه قوام، فقد عاينت جرحى الأيام، وقلة رأفتها بالكرام، وكثرة رجوع صرعاها على أنفسهم بالملام.

(209/2)

[شهادة الليل والنهار]

واعلم يا بني: أن الليل والنهار ينقرضان ثم لا يعودان، وبالحسن والقبيح يمران، وعلى كل صغير وكبير أفعالَه يُثبتان.

يا بني فإن قدرت أن تدفع في كل ساعة تمر بك مُوبِقالسيئات، بصالح الحسنات، وتبني مكرمة تحظى بها يوم القيامة، وتنجو بها من الندامة، ويثلج بها في الدنيا صدرك، ويُفسح لك بها قبرك، فافعل وعجِّل ثم عجِّل، وأنت في حين المهَل، ولا تكثر التسويف فيطول عتبك، وينقضي بخطلٍ يومك، فإن في ساعات الليل والنهار سجلات مطوية، تؤدي ما استُودِعت بصدق الرَّوِيَّة، فَضمَنِّها الجميل تؤدِّ عنك باقيا، كنت أو فانيا، كحسب ما أدت من الودائع، في الليالي الخوالع، من مكارم الكرام، ومثالب اللئام، ثم لم ينطمس ذلك مع الرسوم الطوامس باقيا ما بقيت الدهارير، حتى تحيط بالعالمين ملمات المقادير.

وكلُ مَن لم يَسمُك على ما بَنَتْ له الجدود، بناء يعلو له فيه التشييد، فالمحامد منه بعيد، وركن الشرف الذي اعتمد عليه مهدود، لأن الساكن في غير ما يحوي فهو منه خارج، يا بني: ومَن لم يشرِّفه فعالُه فليس في شرف سلفه بوالِجٍ، إذا لم يُزَيِّن الشرف التليد، بالفعال الحميد !! لأن السلف الماضين، إنما شرفوا في الخلف الباقين، بالمكارم المعدودة، والخلائق المحمودة.

(210/2)

[رقابة الناس]

يا بني ومن أَسَّسَ له أوَّلُوه أركانا، ثم لم يُعلِ عليها بنيانا، فهو بمعزل مما أسسوا، خِلوٌ عن رِباب ما اغترسوا!! ومن أحيا بعز أيامه أيام الأباء والأجداد، فَاشَ ذكره كما فَاشَ ذكرهم في العباد والبلاد، فلا تُكذب نفسك الخبر، فإنه سيمحصُ منك المختبرَ، عيونٌ جساسون، عيَّانون بحاثون، ولخطأك مُحصُون، ولما يكون منك حافظون، فجنب قدمك مواضع الدَّحضَات، ولا تسعَ بها في مهايعالمنكرات، فإن الناس، حفظة على الناس، ما يأتون وما يذرون، فربما ذكَّرواالمرء في الأحيان، بسالف ماذهل عنه بالنسيان، وأتاه عنهم ما قد غيب عن فِكَرِ الأذهان، فليطل منهم حذرك، وليكثر لهم قهرك، بتنزيه نفسك عمايتطلعون إليه من سقطتك، ويبتغون هدَّه من ذروتك، وليكن التَّرقِّي في ذرى الشرف من همتك. ولا تَشُبِ الشك باليقين، ولا المعرفة بسوء الظنون، فينتقض ما أبرمت، ويتغير ما عليه عزمت، ويلحقك الضعف، فتقف عن العمل وقوف المغلول من الكف.

(211/2)

[القناعة]

يا بني: وإياك وكثرة الحرص، فإن التخلق به يرجع بك إلى النقص، ويُذهب عن صاحبه الهيبة، وتكثرله من الناس الغيبة.

يا بني: ألزم نفسك التجمل بترك السؤال، ما وجدت البلغة بما قل من المال، فإن رزقك في كل يوم، يمر بك مقسوم، والالحاف في السؤال أمرٌ مذموم، وبهجةالبهاء معه لا تستقيم، ولا مروءة لمن لم يكن الصبر له غالبا، والاحتساب له صاحبا، فادخر لنفسك القنوع بما يبلغك المحل وإن قل، فإن ذلك من شمائل أهل الفضل، حتى تنغلق عنك أبواب العسرة، وتنفتح لك بما تحب أبواب الميسرة، فإن ذا القناعة قد يمنح من الله النصرة، في الدنيا والآخرة. وأَخلِق بذي التأني أن يظفر بحاجته، وأن يعطيه الله أفضل أمنيته، مع ما يتطول به عليهمن عونه وكفايته!! ولَرُبَّ ملهوفٍ عُجِّل له غواثه، وقل عليه ارتياثه. ولربما أدَّب الله عبده بالفقر وابتلاه بالعسر اختبارا، ليجعل له في عاقبة ذلك خيارا، يُعلي له به ذكرا في الحظ من لدنه، وهو في ذلك راض عنه! فلا تقطف ثمرة لم يَبدُ لك صلاحها، ولا تطلب حاجة لم يأن لك نجاحها، فإنك تذوق معسول الثمرة في إبانها، وتظفر بحاجتك عند بلوغ أوانها، والمنفرد لخليقتهبالتدبير، أعلم بالمدة التي يصلح فيه التقدير، فاستَخِرِ اللطيف الخبير، يَخِرِ لك في جميع الأمور.

يا بني ولا تجعل الدهر يوما واحدا، فإن مع اليوم غدا، واطلب حوائجك بَدَدًا، ولا تطلب جميع حوائج

عمرك في يومك، فيكثر قنطك ويتغلغل صدرك.

يا بني: خَاشِ الجديدين، في كلتا الحالتين، تظفر بإحدى الحسنيين، اصحبهما بأجمل ما به يُصحبان، وامرر معهما كما يمران، ولا تصاعبهما فيصاعباك، ولا تكاشفهما فيكاشفاك، بمكروههما، وأقلل من معاتبتهما، وأكثر موادعتهما، وأَطِل بالرضى مسالمتهما، يثلج من الهموم صدرك، ويَصْفُ لك بلذيذ العيش عصرك، واحذر عسفهما فإنهما إن عَسَفَاك عجزت ولم تنتصر، ولم يدافعهما عنك أحد من البشر.

(212/2)

يا بني: ومن كثرت مراقبته، طالت نعمته، والنعم أسرع شيء زوالاً عن البَطِر، وليس لها عنده مستقر، وليس يدركها ذو الفظاظة والغلظة إلا بالمحتوم من المقادير.

يا بني: وربما حُبِيَ القاسي الذي ليست من شكله منها بالسرور، وقد يكون استدارجا للتحرير، وسببا للحسرة والوبال، على المهذب من الرجال، فاحجب بينك وبين المحبوب بستر لا تَنهتُك أطنابه، ولا تَنبتُك أسبابه، وعليك بالصبر عند نفاره، لكيلا تفجعك فرقته عند إدباره، لحادث يصرفه عنك، ويستنزعه منك، فإنَّ مَن لم تَحسُن - بديهته عند نائبته، ويغلب جميلُ عزائهجليلَ مصيبته، قبل أن تدور الدوائر بفجيعته - عِيلَ صبره، وامتلأ بالرزايا صدره، إذا هجم عليه غائبها، وبرك بكلاكله على كاهله نائبها.

يا بني: رَبِّ النعمَ بالشكر فإن النعم أقسام، تقسمها الأيام، ثم تضرب لها أجلا، وتجعلها بين الخلائق دُولا، تُمَتِّع بها قوما وتُعدِمها آخرين، ثم تسلبها بالكلية من الناس أجمعين، وليس عليها شرائط للمستفيدين، يستوجبونها دون الآخرين، ما كانوا في الأحياء المرزوقين، ويستحيل أن يكون ذلك في أمل الآملين، وإنما هي بلاغ وعارية إلى حين.

(213/2)

[المبادرة إلى الخير]

يا بني: وما كان لأوله ابتداء، فلآخره انقضاء، ولا بد أن يجري عليه عند نهايته الفناء، وإذا أوجبتَ العطية فأسرع بها البدار، وأنجز موعدك لأهل الاضطرار، قبل أن يذهب نشاطك، وينقبض انبساطك، وعجِّل بالمعروف، كي يتجدد لك شكر الملهوف، وإذا أردت إنعاما وإتحافا فلا تُرد بذلك مطلا، وكن عند نفسك لما دعتك إليه من ذلك أهلا، ولا تُكَدِّره بالتأخير، ولا تستدع الذم فيه بضرب

المعاذير، فإن ذلك منقصة لك عند الصغير والكبير.
يا بني: ارعَ سالف الحرمة وأدِّ حقها، وسدد طرقها، ولا تنس ذمتها، ولا تَمَلّ طول صحبتها، فيعود ذو الثقة بكمن وفائك يائسا، ويُظهِر لك بعد الاسفار وجها عابسا، وأرفد من أتاك متسترفدا، وكن له بما يمكنك مستعدا، فإن عجزتَ عن رفده، فاردد عليه ماء وجهه بما يَحسُن مِن ردِّه، مع بِشرٍ تبسطه، وتُحِلّ من ورطه، فإن ضربت له عذرا عَذَرَ، وإن أَولَيتَه وأنلتَه معروفا شَكَرَ، وعد القليل مع الانبساط كثيرا، والكثير مع الجبروتحقيرا.

(214/2)

[نصائح ملوكية]

يا بني: وإذا وجدت للرخاء موضعا منفسحا، لم تكثر به إلى الطماح مرحا، وإن كنت ممن يصحب الملوك، فاصحبهم بالجلال والتعظيم يكرموك، ولا يحملك كثرة الأنس بهم، على الحرص فيما ينقصك من مودتهم، وأكثر الهيبة لهم، فإنهم إنما أطالوا الحجاب، وصفدوا دون العوام الأبواب، لتملأ القلوبَ هيبتهم، وتُرعِد الفرائصَ سلطنتهم، فعلى حسب هذا فاصحبهم، وإلا فأقصر عن الاتصال بهم.
يا بني: ولا يكثر من دهرك يأسك، ولا عند تثبطه بأملك إبلاسك، فإن جميع من يُحسد على ما أفضى إليه، لم يدركه إلا بعد تأبِّيه وتعذُّره عليه.

(215/2)

[التأمل]

يا بني: وأكثر التأمل فيما يشخص إليه طرفك، وتمنَّاه نفسك، مما أوتيه من هو أجلُّ منك قدرا، وأكثر منك يسرا، إلى ما تؤول إليه العواقب، وماذا تُدِيره عليه النوائب، فربما كان ذو الاقلال، أنعم بالاً وأحسن حالا من صاحب الأموال، ومن سَقَتْه الدنيا من صفو لذاتهاكأساً ملأ، جَرَّعته من كريه مرارتها ما يعود عليه وبالا، لأن صفوها ممزوج بالكدر، وأملها متنكدٌ بالغِيَر، وعلى كلِ رائق منها للناظرين، رقباء غير غافلين، يستلبون المهج، ويدرسون بهجة المنهج، مع كثرة الإعراض، وسرعة الإنعاض، وتضييق الغلاصم، بخفي العظائم، والحفظ بعيد عمن غَلُظ طبعه، وضاق خلقه.
واعلم يا بني: أن العاقبة، نعمة كاملة، وإن أعطي الانسان من دهره المنى، وأُتحف منه بالرضى.
ومن كثرت دعته، وحَسُن خلقه ومروءته، فقد استكمل الفضل، وحاز بفوزه الخصْل.

يا بني: ولو شُرِي الخلق الحسن بجميع الدنيا لكان رخيصا، وكان شاريه وإن بقي فقيرا بالظفر مخصوصا.

(216/2)

[حوادث الأيام]

واعلم يا بني: أن الأيام نبلٌ مسمومة، والخلق أهداف مرمية، والزمان لهم مرشق يرميهم في كل يوم بنافرة، وتدور على الكواهل بأدمعٍ دائرة، حتى يدع اللحم عريضا، والعظم مهيضا، ويستغرق كل يوم من أجزاء الانسان جِزوًا، يُصَيِّره به نضوا، فماذا يُبقِي من الأجسام ممرُ الليالي والأيام، وكم ذا يكون صبرها على نوافر السهام، فيأيها ذا الذي دلاه الغرور بالغرور، وزيَّن له ما يُستقبح في عواقب الأمور، لو هُتِكَت لك مسدلاتُ الأستار، عما يَخترم منك الليل والنهار، وما يَكِرُّ به لينجزما بقي منك العشيُّ والإبكار، لأَمَضَّك الجزع وقل منك الاصطبار، ولأوحشك من الساعات التكرار، ولكن تدبير من بيده الأقدار، يعزب عن أن يعلم كنهُه بالاعتبار.

يا بني: فاسلُ بكثير غوائل الدنيا عنها، وخذ ما صفي منها، فإن ضجيعها مغبون، والراكن إليها مفتون، والوافر الحظ منها فيها محزون، وهي أقل من كل قليل سماه المسمُّون، وقد عجز عن وصف عيوبها الواصفون، وقصر عن علم عجائبها العالمون.

تم كتاب المكنون بحمد الله ومنِّه وتوفيقه، وحسن إعانته.

والحمد لله كثيرا بكرة وأصيلا.

(217/2)

سياسة النفس

حدثنا أبو محمد، عبد الله بن أحمد، قال: أخبرني أبي رحمه الله أحمد، بن محمد، بن الحسين، بن سلام قال: أنفذ إلينا أبو محمد، القاسم بن إبراهيم، بن إسماعيل، بن إبراهيم، بن الحسن، بن الحسن، بن علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أهله الأئمة الأكرمين، أول ما أنفذ إلينا من كتبه، كتابا يقال له: (سياسة النفس).

قال أبي رحمه الله: فلما قرأنا الكتاب وكنا لا نرحل إليه، ونرحل إلى غيره من أهل البيت عليهم السلام، فأسفنا على ما فاتنا منه، وقلنا: ليس من حق علوي يحسن أن يقول مثل هذا، إلا أن نكون جوابَ كتابه. فرحلنا إليه، فأقمنا عنده في أول رحلتنا إليه سنة، ثم بعد ذلك كنا نرحل إليه في

الأوقات، ثم سمعنا منه هذا الكتاب، وأوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

بالله أستعين

(218/2)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً. ونسأل الله ولي نعمة الابتداء، ومسهّل سبيل قصد الاهتداء، أن يمنّ علينا وعليكم بشكر نعمه في ابتدائه، ويحسن إلينا وإليكم بعونه على سلوك سبيل أوليائه، التي أرجو أن تكون أنفسكم . لها وفيها، ولما أنتم عليه لله من التمسك بها والقصد إليها . من الأنفس التي أذن الله بعمارتها، ورمى إليها بأسباب حياتها، فقد عقد الله لكم لذلك لدينا عَقدَ الخلة والاخاء، ووكّد بذلك لكم علينا أخوّة الخاصّة والأولياء، فأيقنوا أنه لم يُوصل سببٌ من الأسباب بين المتواصلين، ولم تعقد خلّة من الْخُلل بين المتخآلّين، من الأولين من خلق الله لا ولا من الآخرين، بغير ما يرضي الله سبحانه من التقوى، ويستحقه جل ثناؤه من الطاعة له والرضى، إلا كانت وصلةَ حسرةٍ وانقطاعٍ، وندمٍ غداً واسترجاع، يدعو أهلها فيها بالويل والعويل، ويصيرون بها في الآخرة إلى خزي طويل، ذلك قوله جل ثناؤه :؟ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين؟[الزخرف: 67]. وقوله تعالى عن القائل غداً:؟ يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولاً ؟[الفرقان:27- 28].

ونحن نرجو ولِيَكم الله أن يكون وُصلة ما بيننا، وما عقد الله – فله الحمد – عليه خُلَّتنا، سبباً عقده الله بالايمان، وأسَّسه منه على رضوان، فمن أحق بالتعظيم منا لِما كانت الأبرار تعظمه، ومن خير ما قدمناه فيه ما كانت الأتقياء تقدمه، من كل ما كان لهم على بغيتهم من النجاة دليلاً، وإلى ما يلتمسون من فوز حياة الخلد عند الله سبيلاً، من التذكير من بقاء الآخرة وفناء الدنيا بما ذكَر، والأمر في عاجل هذه الدنيا من التقوى له بما به أمر.

(219/2)

فافهموا ذلك فَهَّمنا الله وإياكم سبيل الخير، ونفعنا ونفعكم فيها بمنافع التذكير، فإنه يقول سبحانه:؟ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين؟ [الذاريات: 55]. والدنيا وإن كان أمرها قصيراً، وبقاء أهلها فيها قليلاً يسيراً، فاعلموا رحمكم الله أنها وإن كانت كذلك في البلوى، فإنها متجر لأرباحِ فوائد التقوى، ومكسب غنمٍ لمن كسبها فيها، ومحلٌ مُخصب لمن تزود إليها منها، ومعبَرٌ لمن تَبلَّغ بها عند ظفره

بكسبها، إلى دار مقام، ومحل دوام، ليس عنها لمن نزلها انتقال، ولا منها بعد طولها زوال، والدنيا فإنما خلقها الله سبحانه لعبادته، وأمر خلقه فيها بطاعته، ونعاها إليهم قبل فنائها، وأخبرهم جل ثناؤه بقصر مدتها وبقائها، فقلَّل بأحق الحقائق في أعينهم ما يستكثرونه من كثيرها، وقصَّر في كتابه الناطق عندهم ما يستطيلونه من تعميرها، فقال :؟ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟ [النساء: 77 . 78]. وقال سبحانه:؟ إنما أنت منذر من يخشاها، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها؟[النازعات: 45: 46]. وقال تبارك وتعالى:؟ ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين؟[يونس: 45]. وقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه:؟ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون؟[الأحقاف: 35].

(220/2)

[الدنيا الغرور]

فالدنيا أحق منزلٍ بأن لا تُملَّ مكاسبُ غُنمه، ولا يغفل في حث ولا جدٍّ ولا اجتهاد عن تغنُّمِه، ولا يذم سعي من عمل له، واغتنم فيه مدته وأجله، بل المستحق للذم فيها من أوطنها، على يقين العلم بالنقلة منها، وسعى للنيل فيها، مع يقينه بفنائها، فأصبح مشغولاً بالفراغ مما شغله، فارغاً من الشغل الذي فُرِّغ له، مصيخاً إلى الغرَّة، موطناً لدار النقلة، لا جاهلاً فيُعذر، ولا ناسياً فيُذكَّر، فكأنّ الموصوف المفتون بما يسمع ويرى، ليس بموقنٍ بزوال الدنيا، بل كأنه لم يوقن بمواعيد ربه غداً إذ تأخر ذلك عنه، ولم يصدق بما حُذِر إذ قصر به دُنُوُّه منه، بل كأنه نسي أن الدنيا جعلت دار بلوى، ولم تجعل لأحد من ساكنيها دار مثوى، وجعلت إلى غيرها معبراً، ولم تجعل لساكنيها مستقراً، وأنها لأهلها ممر سبيلٍ، ومنزل نقلة وترحيل، وأن كل من فيها إلى دار قراره غير لبيثٍ، ومن الآخرة في السير حثيث، فلو كان يصير من فيها بعد موته إلى غير معادٍ ولا مصير، لما وسعه إن نظر أو عقل ففكر أن يركن إلى ما يزول، وينصب لما يفنى فلا يدوم، وكيف وهو مبعوثٌ ومحاسب، وموقوف غداً للحساب فمعاتب، فيما أفنى من عمره، بل في كل أمره، من صغير محصوله، وجميع فعله وقوله، يحضر له كله يوم البعث في الحساب، ويجد ما كان فيه من خطأ أو صواب.

فيا ويله أما سمع قول الله تبارك وتعالى فيه، وما حكم الله به من عدل حكمه عليه، إذ يقول سبحانه:؟ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ؟[الكهف: 49].

(221/2)

فبادروا رحمكم الله لعظيم المغنم، وأجدوا في الهرب من أسف الندم، واتقوا صفقَة الخسار، فإنها بين الجنة والنار، ولا تبغوا من الراحة ما يُفضي بأهله إلى النصب الدائم، ولا من النيل إلى ما يؤدي إلى حرمان الغنائم، وأكثروا ذكر السقم والوفاة، وما رأيتم فيهما وبهما من البغتات والفجآت، فكم قد رأيتم بهما من مبتَغَتٍ وصريع، وكم سمعتم عنهما من خبر هائل فضيع، ولا تؤثروا ما لم تخلقوا له على ماله خُلقتم، ولا تكثروا تشاغلكم بطلب الرزق فقد رُزقتم، قديماً في ظلم الأرحام، وبعدُ إلى حين أوان الفطام، ثم مذ كنتم في الناس شيئاً مذكوراً، فكفى بذلكم على كفاية الله دليلاً ونوراً.
فاعرفوا كفايته لكم بما عُرِّفتم، وقوموا من ذلك كله بما كُلِّفتم، واضربوا عن طلب الدنيا عنكم بفادح الأثقال، وتكلف ما أنتم فيه لطلبها من الأشغال.
أفلستم بموقنين، ببتِّ يقين، لستم بمرتابين، أن الحظ من الدنيا إلى نفاد، وأنكم من الموت على ميعاد، فما بالكم لا تنظرون في عاقبة الدنيا، ولا تتأهبون إن كنتم موقنين لدار المثوى، أترون ذلك زُلفاً عند ربكم، وليست لكم أم بوسيلة وليست معكم، أم بحسن عملٍ ولم تقدموه، أم بعظيم الرجاء ولم تحققوه.

(222/2)

فيا أيها الراكن إلى الدنيا وزخرفها، والآمن لنوائب تصرفها، والمغتر في معاشها ومكالبتها في طلبها، والمؤثر لها على ربها، والمشغول بما كفى منها، والجاهل بخبر الله عنها، هَبْكَ لم توقن بما دعا الله إليه من ثوابه! ولم تخف سطواته فيما حذرك من عقابه! ألم تك ذا عقل فتفهم عن الدنيا خبرها ؟! وتسمع منها موعظتها ؟! فلعمرها ما قصَّرت في موعظة، ولا تركت لذي عقل فيها من علة، لقد أخبرتك عن القرون، بما أحلت به من المنون، فخربت الديار، وعفَّت الآثار، هَبْكَ أصم في هذا كله عن سماع موعظتها، وما كشفت لك بذلك عنه من سوآتها، أَلَمْ تُرِك عياناً فيمن معك من نوازل مناياها ؟! وما أوصلت إليك في فقد الأحبة من رزاياها ؟! أو لم تكن في طول ما جربت من أسقامها ؟ وما حل بك خاصة في نفسك من آلامها ؟ وما علمت من استدعاء القليل من موجودها، للكثير الجم من مفقودها، حتى في كل أمرها، بل في خطرات ذكرها، فهي فقرٌ لا غناء معه، وشَرَةٌ

لا قناعة له، وحرصٌ لا توكُّلَ فيه، وطلب لا انقضاء للميعاد منه، وغدرٌ وختْرٌوكذبٌ وخيانة، ليس فيها صدق ولا وفاء ولا أمانة.

أفما كان في ذلك ما يدعوك إلى الزهد فيها، والتنزه بَعدَه من الميل إليها، وإدخال الراحة على نفسك من الشغل بها، وما حملك الشَّرهُ من أحمال ثقلها ؟! فكيف وأنت زعمت أنك موقن بمواعيد ربك، وذلك فما لا يتم – إلا به – إيمانك، فكيف وقد فهمت من الدنيا خبرها، وعلمت يقيناً موعظتها، وأيقنت أنه لا يدوم لك فيها خلود محبة، ولا يتم لك فيها سرور بمعجَبَة، ولا يتبعك منها تراث تَرَكْتَه، والموت فسبيل كأن قد سلكتَه، فكل هذا منها فأنت منها في منهج وسبيل، مع أن الذي هو فيها وأدل عليها من كل دليل، خَبَرُ الله سبحانه عنها، وما وصفه من صدق الخبر منها.

(223/2)

فاسمعوا لذلك من الله فيها، وتفهموا عن الله دلالته سبحانه عليها، بفهمٍ من قلوبكم مُضي، وعقلٍ من ألبابكم حَيِي، فإنه يقول سبحانه:؟ وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهو وللدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون؟ [الأنعام: 32]. ويقول سبحانه:؟ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور؟[فاطر : 5].

ثم قال سبحانه:؟ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون؟[هود: 15 . 16].

ثم قال سبحانه:؟ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً؟[الإسراء: 18 . 19].

وقال سبحانه:؟ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذي يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدنٍ يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، والذي ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ؟[الرعد : 19 . 26]. فحياة الدنيا وعمرانها عند من يعقل عن الله خراب وبُورٌ، وكل ما في الدنيا من غير طاعة الله فلا يغتر به إلا هالك مغرور.

(224/2)

وفي فروع هذا كله وأصوله، وما نزل الله فيه من بيانه وقوله، فقد رأيتم ما قال الله سبحانه عياناً، وسمعتم نداه إعلاناً، وكلا لو رأيتم لعمركم إذاً لأبصرتم، ولو أبصرتم إذاً لاغتنمتم، ولكنكم نظرتم بأعين عميّة، وسمعتم القول فيه بآذانٍ دوية، ودبرتم الأمر فيه بقلوب سقيمة، غير بريَّة من أدواء الأهواء ولا سليمة، فآثرتم ذميم ما حضركم، على كريم ما غاب عنكم، وما عجل إليكم ولكم، على ما قَصَرَ علمُه دونكم، كما قال الله تبارك وتعالى:؟ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون؟[الروم: 7]. وكذلك فلم يزل العُتَاة الجاهلون، أما لو نظرتم إليه بأعيان جليَّة، وسمعتم القول فيه بآذانٍ سويّة، ودبرتم الأمر فيه بقلوب حَيِيَّة، لعلمتم أنكم من الدنيا في إدبار حثيث، ومن الآخرة في إقبال غير مكيث، فكأن ليلَكم ونهاركم في مرورهما بكم، وكرورهما عليكم، قد وقفا بكم على آجالكم، وأفرداكم عن غرور آمالكم، وكشفا عنكم أغطية أبصاركم، فحسر رأيكم إن لم يرحمكم ربكم.

(225/2)

[الانسان المغرور]

فيا ويل المغرور من نفسه، المخطئ لسبيل حظه، من أي يوميه يُشغل ؟! بل من أي حاليه يغفل ؟! أيوم رجوعه إن عُمِّر إلى أرذل عمره ؟! وحاله حين يصير عَيال عِياله وأسير منزله وداره، أم عن يوم وروده داراً لم يتخذ بها منزلاً ؟! ولم يُقدِّم إليها من صالحٍ عملاً، أم لأي يوميه يفرغ أَلِيَوم حَبرةٍ، يتبعها عَبرةٌ ؟! وفرحة، يعقبها ترحة، وزخرفٍ يعود حطاماً، وفخر يحول بواراً، أم ليوم شغل لما فرغ منه ؟! وتفرغ لما أُمر بالاعراض عنه، واحتقارٍ لما نعي إليه فراقه، وَحِرصٍ على لزوم ما هو مُفارقه، كأنه لا يستحيي مِن حمدِه لمذموم، وركونه من الدنيا إلى ما لا يدوم، واستبطائه لغير دار خلوده، وتكذيبه بفعله لما يزعم من محموده.

فيا عجباً كل العجب كيف ركن إلى ما ذمَّ مختبره ؟! وكيف استفرغه الفرح بجمع ما هو شاخص عنه ؟! وكيف تعقبه الأسف على فوات ما لا يدوم له ؟! وكيف يثق بما ينفد على ما يبقى ؟! وكيف يُغفِلُ – بما هو فيه من النصب لمواتاة دنياه – ما يلقى ؟! مع علمه ويقينه بأنه لا يبلغ منها غايةً إلا دعته إلى غاياتٍ، فمتى إن لم يَرْفض الدنيا يستريح من حاجة فيها تدعو إلى حاجات ؟! ومتى يقضي شغلاً إذا هو فرغ منه فقضاه ؟! عرض له أكبر منه فطلبه وابتغاه.

ففكروا رحمكم الله وانظروا، تعلموا إن شاء الله وتبصروا، أنه ليس لكم من سراء دنياكم، وإن طالت صحبتها إياكم، إلا كطرف العيون، فهي للجاهل المغبون، من ذي دناءة أو لوم، أو فاجر عميٍّ

ملعون، قد صارت الدنيا كلها له، فليس يأخذ أحدٌ منها إلا فضله، فقدرته . وإن لَؤُمَ ودنا، و كان فاجراً معلناً، على كثير من كرائم النساء، ونفيس المراكب والكساء . قدرة الأبرار، وأبناء الأحرار.

(226/2)

والدنيا أعانكم الله فيما خلا، وإذ كانت تضرب لفساد أهلها مثلاً، وإنما كان يمسخ أهلها وأنسها، فمسخت الدنيا اليوم نفسها، فلم نترك – والله المستعان – مِن ذكرنا لها زينة ولا بهجة، وعادت الدنيا كلها غرقاً ولجة، فأمورها اليوم كلها عجائب، وكل أهلها في مكالبتها فمغتر دائب.
وقد بلغني أن عيسى بن مريم صلى الله عليه، كان يقول لمن يحضره ولحوارييه: (بحق أقول لكم أنه لا يصلح حبُّ ربِّين، وما جعل الله لرجل في جوفه من قلبين، لا يصلح حب الله وحب الدنيا في قلب، كما لا تصلح العبادة إلا لربٍ)، وكان يقول صلى الله عليه (بحق أقول لكم: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وكذلك فحب الله – ولا قوة إلا بالله – فعاصم لأهله من كل سيئة) .

(227/2)

أفيرجو من آثر الدنيا ؟! على الله أن يكون مع ذلك لله ولياً، هيهات هيهات أطال من آثر الدنيا، عنانَ عمله الغيُ والهوى، فجمحت به نوازغ الغي المردي، وعتت به مطايا الهوى المضل المغوي، حتى أحلته دار الندامة ولاتَ حين مندم، ثم أسلمته من الحيرة إلى شر مَسلَم، فما ينكشف عنه قناع غرةٍ، ولا يتيقظ من نومِ سكرةٍ، رانت على قلبه بوادر أعمال السيئة، وفِتنُ دهرِه المضلة المعمية، فقاده أهل الدنيا، وأعنق به قائد الهوى، ومنَّتْه نفسه بالاغترار طولَ البقاء، وأسرعت الغفلة في أيامه بالفناء، وكذبته نفسه في أي حين وأوان، وفي أي حالٍ – رحمكم الله – ومكان، حين لا رجعة ينالها، ولا إقالة يُقالها، وعند معاينته الأهوال، وما لم يخطر له ببال، مِن هتكِ ستور السوءآت، وهو في حالِ أحوج الحاجات، إلى ما كان تركه فقراً وبلاء، وغيره هو الخفض والغناء: ؟ يوم الآزفة إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع؟[غافر: 18]. ؟ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ؟[النور: 24 . 25]. يومٌ خافَتْه رجال فمدحهم الله وزكّاهم، وأحسن على مخافتهم له ثوابهم وجزاهم، فقال سبحانه فيهم، وفي حسن ثنائه – بمخافتهم له – عليهم :؟ رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب؟[النور: 37 – 38]. ويقول

سبحانه:؟ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا معكم منتظرون؟[الأنعام: 158]. ويقول سبحانه:؟ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين ؟ [الشعراء: 89 . 91]. ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين

(228/2)

؟[المطففين: 6]. ؟ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ؟ [الأنبياء: 106].

فرحم الله امرأً، أحسن لنفسه نظراً، فرفع عن الوناء ذيله، واغتنم من الله سبحانه تمهيله، فحسر عن ذراع، وشمر بإجماع، وانتبه عن وسن غفلة الغافلين وإن لم يشعروا، وتيقظ من نوم جهل الجاهلين وإن لم يسهروا، فعلم أن من رحمة الله بنا، وحسن معونته لنا على أنفسنا، أن جعلنا نسقم ونتغير ونبتلى، بمثل ما يُرى من تغيُّرِ أحوال الدنيا، في فناء ليلها ونهارها، وما يُغتذى به في برها وبحارها، من كل مأكولٍ، أو لباس نسج معمول، أو غير ذلك من ألوان فتونها، وما سخر الله من ضروب ماء عيونها، فنبهنا بذلك كله، وبما أرانا من تغيره وتَبدُّله، من قصر مدة آجالنا، وعلى أنه لا بقاء ولا دوام لنا، ولو جعلنا ندوم أبداً أو نبقى، لما جعل بين الدنيا والآخرة فرقاً، ولكان مَنْ عتا الخليقَ ببقائه بادعاء أخبث الدعوى، ولما امتنع من العاتين ممتنع من سهوٍ ولا هوى.

(229/2)

[النفس]

ولكنه سبحانه عرَّفنا أنفسنا وفناها، وألهم كل نفسٍ منها فجورها وتقواها، فجعل فجورها غياً وتقواها هدى، وجعلنا تبارك وتعالى نموت ونفنى، لنستدل بالموت وتصاريف طبائع الخلق، على حكمة تدبيره لنا في الفطرة والصنع، وليدعونا خوف الفناء، إلى طلب حياة البقاء، وجعلنا تبارك وتعالى من جزأين اثنين نفس وجسد ثم ألف بينهما بلطيف تدبيره، وأحكم تركيبهما بأحسن تصويره، فجعلهما بعد تباينهما شخصاً واحداً مكملاً، وجعل لبقائه وأيام حياته مدة وأجلاً، ثم أمره بعد كموله فيه، برشده وحضِّه عليه.

فإنْ نفسه سمعت له وأطاعت، وأجابت إلى ما دعا إليه فسارعت، رشد عند الله واهتدى، وفاز من الله بثوابه غداً، وإن نفسه عصته والتَوَتْ عليه وأبت، ما دعي إليه من الرشد فغوت، ولم تعتصم بالله، ولم تذكر رحمة من الله، ضل عند الله فعطب، وهلك في القيامة وعُذِّب، فنفس المرء إذا لم

ترشد له فشر صاحب، ودعَّاةٌ إلى كل هلكة ومعائب، لأنها لو لا عصمة الله لها في خطاياها أبداً كرارة، ولصاحبها إلى ما حرم الله أمّارة، كما قال يوسف صلى الله عليه :؟ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ؟[يوسف: 53]. وكما قال شعيب صلى الله عليه في توفيق الله ومعونته له على عبادته، وحسن نظره وعصمته، ولما كان عليه من رعاية حق الله وأمره من إرادته::؟ إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟[هود: 88].

فمن خالف نفسه في خطاياها، ومال مع الحق عليها، لم يضرره لها هوىً ولا أمر، ولم يدخل عليه منها خطأ ولا ضرر، ومَن قَبِلَ عن نفسه ما تأمره به من سوٍّ، كانت نفسه له أعدى من كل عدوٍّ.

وقد بلغني أن بعض الصالحين كان يقول: محاربة المرء لنفسه بمخالفته، يثبت فيها طلب ثواب الله وطاعته.

(230/2)

[الصبر]

واعلم أنه ليس يسلك سبيل مرضات الله إلا من أيده الله بروح الهدى، وأن ليس يُوصَل إلى سبيل مرضاته جل ثناؤه بالمنى، دون أن يحمل النفس عليها، ويصبر لأمر الله وحكمه فيها، كما قال الله سبحانه :؟ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ؟[النساء: 123]. وقال سبحانه :؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريبٌ؟ [البقرة: 214]. ويقول سبحانه :؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذي جاهدوا منكم ويعلم الصابرين؟[آل عمران: 142]. وفي مثل ذلك من ابتلاء القائلين، ما يقول رب العالمين :؟ ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذي صدقوا وليعلمن الكاذبين ؟[العنكبوت: 1-3].

(231/2)

[التقوى]

فتأهبوا رحمكم للبلوى، وانتهوا إلى ما أمرتم به من التقوى، ونَقُّوا قلوبكم من دنس الدنيا وإيثارها على الله كيما تنقى، وطيبوها بالبر والتقوى وكونوا مع مَن برَّ واتقى، فمتى ما تكونوا مع أولئك، تنجوا

بإذن الله من المهالك، ويكن الله جل ثناؤه معكم كما قال لقوم يسمعون :؟ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ؟ [النحل: 128].

(232/2)

[التفكير]

واعلموا وَلِيَكم الله أن من أبواب التقوى ومفاتحها، وأقوى ما تَقَّوى به مَن رَشَدَ بإذن الله على قبول نصائحها، حسن الفكر في الدنيا وفنائها، وتقلُّب سرَّآئها وضرآئها، وفي حال جميع من فيها من ملوك الأمم خاصة، ومن دونهم من الخلق جميعاً عامة، فإنكم رحمكم الله إن تفكرتم . فتروا، بعين الفكر وتبصروا . تعلموا أنهم جميعاً منها وإن اختلفت أحوالهم في السراء والضراء، في مضامير بأقدار أحوالهم فيها من السعادة والشقاء.

وقد ينبغي لمن سلك سبيل مرضات الله وآثرها، وعظَّمها بما عظمها الله به من رضوانه فوقَّرها، أن يتحفظ من نفسه فيها، ويجمع كل أشغاله ولا قوة إلا بالله إليها، فإنه لو تفرغ لخدمة بعض ملوك الدنيا، لَحَقَّ عليه الاجتهاد في بلوغ الغاية القصوى، فكيف بمالك الملوك إذا برز لعبادته، ونابذ في الله عدوه من الجن والإنس بمحاربته، فليتحرَّز . مَنْ سلك سبيل ولاية الله ومرضاته، ومن يريد القيام بما أوجب الله عليه من فرض حقه وطاعته . من السقط والخلل، وليستيقظ من الغفلة والزلل، وليتيقظ وليعرف قدر ما يعرض لأهل ذلك من البلوى والفتنة، وما ينصب له وفيه من المباينة، وعلم بلواها وفتنها فيجوز في مواطن العزم والشدة، ولا يصبر عند نزول البلوى المؤكدة، فإن ذلك، إذا كان منه كذلك، فليس له به حول، ولا لمن صار إليه إلى الله به وصول، وإنما وصفت لكم هذا فيها، لكيلا يقدم مقدم عليها، إلا بعد علمه بهذا منها، وفهمه لهذا من الخبر عنها، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تم نصف الكتاب.

(233/2)

واعلموا أن القلوب كالآنية المصدوعة، فيما تنازع إليه من غرائزها المطبوعة، فإن لم يُرهم مصدوعها، لم يصح مطبوعها، على بنية اعتداله، فيما فطرها الله عليه من كماله، فزُمُّوها بالعلم بكتاب الله وتنزيله، والوقوف على محكم تأويله، ففي ذلك لها تقويم وتعديل، وهداية ونور ودليل، على منهاج خالص الطريق المسايرلها في حب الله وطاعته، وما أوجب الله على العباد من أثرته وعبادته، وبكتاب الله يتجلى عن القلوب ظُلَمُ الحيرة، وبلطيف النظر فيه يُدرِك حقائقَ العلم أهل البصيرة،

وبسبل الله فيه المطَّرِقَة، تكون هدايات المتقين في الثقة، من نيل الغايات القصوى، وبلوغ الدرجات العلى.

وقد زعم بعض أهل الحيرة والنقص، ومن لا يعرف عين النجاة والتخلص، أن الإلطاف في النظر، يدعو صاحبه إلى الخيلاء والبطر، وإنما يكون ذلك كذلك عند من يريده للترؤس، لا لما فيه وما جعله الله عليه من حياة الأنفس، فانفوا مثل هذا عن ضمائركم، وسدوا ثلمة عيبه في سرائركم.

واعلموا أن البحر لا يجاز يقيناً بتًّا إلا بمعبرَ، وأنه يحتاج الشجاع المحارب السلاح في الحرب فكيف بالعيِّ المغتر، فلا يتعاط أحد سبيل التقوى، وما قرن الله بها من التمحيص والبلوى، إلا وقد تحصّن بالعلم والبصر والنظر، الذي ميز الله به بين أهل الخير والشر، فلا تَدَعُوا – رحمكم الله – حسنَ النظر في الأمور، والاستضاءة في ظلمها بما جعل الله في العلم من النور.

(234/2)

واعلموا أن من أبواب ذلك ومفاتيحه، وأضوأ ضياء نوره ومصابيحه، إخلاصُ العمل لله، وصدقُ التوكل على الله، وسبب الطريق إليها، وعون من أراد مما فيها، (حسن الفكر في الدنيا وفنائها، وتقلب سرآئها وضرآئها، وفي حال جميع مَن فيها من ملوك الأمم خاصة، ومَن دونهم من الخلق جميعاً عامة، فإنكم إن تفكرتم فتروا، بعين الفكر وتبصروا، أنهم جميعاً منها وإن اختلفت حالهم [في السراء والضراء، في مضامير بأقدار أحوالهم] فيها من السعادة والشقاء)، فقد غشيهم من همومها كأمثال الجبال، ورمت بهم من غمومها في مثل لجج البحار، فالملك في شُغلٍ من ملكه، والمملوك في سطوة مالكه، والمكثر من إكثاره، والمُقلُّ من إقلاله.

(235/2)

[أحوال الخلق في الدنيا]

ولن يحاط بوصف أحزانها، وأوجاع غموم سكانها، ويَحِق بذلك منزل سريع زواله، قليل ما تمتع بالراحة فيه نُزَّاله، بأسآؤه أبداً فيه متداركه، ونجاة أهله فيه مهلكة، وغمومهم فيه متراكبة، وهمومهم به مكتسبة، فلا الغني يخلو من غم الجمع وكدّه، ولا الفقير ينجو من الكد فيه بجهده، يسعى الغني فيه خوفاً من العدم، ويكد الفقير طلباً للمغنم، فجدة الغني فيه فقر، ومغنم الفقير منه خسر، يخاطرون لذلك في أهوال البحور، ويركبون لطلبه كل باب من أبواب الفجور، فأقرب ما يكونون من السرور به، أقرب ما يكونون من الغم بسلبه.

فكم في الدنيا من غريق في لجج البحار ؟! وكم فيها ولها من مبتلى بقتل أو أسارٍ ؟! وكم لطالبها، وإفراطه في حبها، من ميتٍ غريب نآءٍ عن الولد والأوطان، بين غُتم لا يعرفونه، وطماطم من السودان ينكرونه، لم يبكه هنالك ولده ولا قرباه، ولم تأسف عليه كما أسف عليها دنياه، بل تخلَّوا جميعاً منه، وأعرضوا سريعاً عنه، فَوَرِثُوْهُ غَير حامدين له فيما جمع، وأسلموه إذ مات لما عمل وصنع، ولعل قائلاً منهم أن يقول: ما كان أفحش حرصه وإيعاثه، أو قائلاً منهم يقول: ما أقل أو ما أكثر تراثه، تلعُباً بذكره، وتفكهاً في أمره.

(236/2)

فأعرضوا هذا – رحمكم الله – على قلوبكم لأن ينجلي لكم إن شاء الله ما فيها عن الدنيا من العمى، وانظروا إلى من زالت عنه القدرة من أبناء الملوك والعظماء، كيف صاروا إلى الضعة بعد الرفعة، والضيق بعد مضطربهم من السعة، بل انظروا بعد هذا كله، إلى من كان هذا أكثر شغله، ألم تروا غلطهم في مسالكهم، ومرتطمهم في مهالكهم، فاعتبروا بهم قبل أن تغرقوا في بحرهم، وتقعوا في مهالك أمرهم، وآثِرُوا سبيل أحباء الله على كل سبيل، واستدلوا بما كان لهم على سبيلهم من دليل، فإن سبيلهم فيه، وعونهم كان عليه، ما خالط فكرهم، وأحيوا به في الفكر ذكرهم، من نعيم الآخرة الدائم المقيم، وما أعد الله لمن حآدَّه من العذاب الأليم.

ففكروا – رحمكم الله – كما فكروا، تبصروا إن شاء الله من فضل سبيلهم ما أبصروا، وفوِّضوا أموركم في ذلك كلها إلى الله، واعتصموا في ذلك كله بالله، فلا تَدَعُوا فيه يقظة الجدِّ والاجتهاد، بعد التوكل على الله ربكم فيه والاعتماد، وابذلوا لله فيه كل جهدٍ، وأخلصوا له منكم في كل قصد، فإنكم إن تفعلوا . ذلك له، وتقصدوا فيه ما يجب فعله . تَوَلاكم الله فيه فعصمكم، وكفاكم به مهمكم، ولا تحدثوا أنفسكم بعد أن يمن الله عليكم بهذه النعمة، وبعد الدخول منكم في هذه السبيل المكرمة، بالخروج ما بقيتم منها، ولا بالإعراض أبداً ما حييتم عنها، ولكن وطِّنوا نفوسكم على احتمال صعاب الأمور فيها، ولا تخافوا – ولا قوة إلا بالله – تخويف مَن خوَّفكم عليها.

واعلموا أنه لن يكون أحد في فعله خلصانياً، ولا فيما تتوق إليه نفسه من ولاية الله ولياً، إلا بعزمه على طاعة الله وإقدامه، ومحافظته على ما حكم الله به عليه من أحكامه، فاعزموا على التقوى عزمَ مَن يوقن بفضلها، تكونوا بإذن الله من أوليائها وأهلها، واصرفوا قلوبكم إلى تقوى الله، تكونوا من السابقين بالتقوى إلى الله، فقد نبهكم الله لها وأيقظكم، وأمركم بما تعملون منها فوعظكم.

(237/2)

[الموت]

والموت رحمكم الله فقد أبان النداء، وداعيه فغير مُفتر في الدعاء، يختطف – ملحّاً دائباً – النفوس، ويميت الكبير والصغير المنفوس، لا يُغفِل غافلاً وإن غفل، ولا يؤخر مؤملاً لما أَمَّل، بل يكذب الآمال، ويقطع الآجال، ويفرق بين الأجساد والأرواح، وفي أي مساءٍ يأتي أو صباح، بل في كل حالةٍ وساعةٍ، فكم من بلية أو مَنِيِّة فَجَّاعة، تمنع من روح الأنفاس، وتقطع إلف الإناس، قد رأيناها عياناً، وعلمناها إيقاناً.

وإذا وطَّنتم أنفسكم إن شاء الله على سلوك هذه السبيل، وهداكم الله إليها بما جعل الله في فضلها لأهلها من الدليل، فارضوا بالله فيها بدلاً من الدنيا، واقصدوا قصد وجوه البر والتقوى، واعملوا عمل من يوقن بحصاد مزدرعه وزكائه، وثقوا من الله فيما عملتم من ذلك بحسن جزائه، إذ تحملتم له ولأمره طلب الرضى، وفارقتم لوجهه أهل الدنيا، وحرَّمتم على أنفسكم عارض شهواتها عند اشتهائه، وآثرتم ما أعد الله من الخيرات الباقيات لأوليائه.

واعلموا أنكم إذا أَمَتُّم عارض شهواتكم لله، فقد طبتم وزكيتم وأشبهتم المصطفين من عباد الله، وفي غدٍ ما يقول لكم ملائكة رب العالمين: ؟ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ؟[الزمر: 73].

(238/2)

واعلموا أنكم إذا رفضتم غرور زينة الدنيا، فكأنكم بقلوبكم في السماوات العلى، فاجعلوا القيامة لكم غرضاً ترمونه بصالح الأعمال، ولا تقتدوا في ذلك بمنتهى سبيل الأخيار فتكونوا بعرض ملال، يحط من كبار الأعمال إلى صغارها، ومن تفضيلها إلى احتقارها، ولكن تناولوا طرفاً من الصيام، وطرفاً في الليل من القيام، وتفهَّموا ما تتلون فيه من أجزاء القرآن، وسبحوا لله واذكروه في آناء الليل وأطراف النهار، فإنه يقول سبحانه :؟ اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبحوه بكرةً وأصيلا ؟[الأحزاب: 41 . 42]. ويقول سبحانه:؟ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ؟[المزمل: 1 . 4]. ويقول سبحانه :؟ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا ؟[الإسراء: 79].

(239/2)

[جوهر الدين]

واعلموا أن شهوة الشراب والطعام، والنوم عن التهجد والقيام، أوقع سروراً للنفس، وأدعا لما في طبائع

الأنفس، من الظمأ والصيام، ومن التهجد والقيام، ولن يملك امرؤ ضبط نفسه وفكرته، ويقوى على ما يفوز به في آخرته، حتى يقوى على ترك شهوته، ويؤثر محبة الله على محبته، وكما لا يضبط صعاب الخيل إلا بثقيل اللُّجم، فكذلك لا يقوى على النفس إلا بمنعها من كثير من شهواتها في المشرب والمطعم.

وإذا صمتم فليكن مع صيامكم من المطعم والمشرب، صيام عن التكبر والعجب، فإنهما ينتجان الفتنة ويوقدان نار الغضب، واجعلوا أفكاركم، وصفاء أذهانكم، في الله ومحل أوليائه، وفي التماس منازل أحبائه، ولا يُنال ذلك إلا بكلفة متكلفة، يتقدمها متقدَّمُ معرفة.

واعلموا أنه لن يعرفها أحد حق معرفتها، إلا خف عليه ما يستثقله الجاهلون من كلفتها، فلا تطلبوا التقوى طلب الجاهل بطلبته، المُغترِّ بسوء التقدير عن نيل بغيبته، جهلاً بما بينه وبينها، وما جعل له من العلاج دونها، فيقل صبركم، ويعسر عليكم فيها أمركم. ولكن اعرفوا منها ما قصدتم له، وسلكتم إلى الله عز وجل فيها سبيله، فإن غلبت عليكم الغفلة فيها، أو فترتم بخطيئة عن النهوض إليها، فهيجوا قلوبكم عليها، وادعوا أنفسكم إليها، بأصوات الأحزان، والبكاء إما بأنفسكم وإما بغيركم من القرآن، فإن القرآن نور وعبرة لمن اعتبر، والبكاء والأحزان تذكرة لمن تذكَّر.

فإن تعسر عليكم في مطالبكم من التقوى مطلب، أو ضاق عليكم من مذاهبكم مذهبٌ، فخذوا في غيره مما يقربكم، ويتسع لكم به من مذهبكم، ولا تطلبوا الله في كثرة الركوع والسجود، دون تحقيق الإخلاص لله من قلوبكم باعتماد قصدٍ من ضمائرها معمود، فإنما يراد بذلك كله وفيه، الوصول بتعظيم الله إليه.

(240/2)

وألطفوا نفي الهمّ عنكم، وقطع أسباب الغم دونكم، فإنهما يفسدان الأعمال، ويورثان الملال، ويفلان عزائم الجد، ويشغلان عن سلوك القصد، وإن عرض في نفوسكم، أو خطر بقلوبكم، بعض خواطر النفس الدواعي إلى غير البر والتقوى فاحذروا أن يغلب عليكم فيه، ما يوعِّر عليكم سبيل ما قصدتم إليه، وانفوا ما عرض لكم من ذلك كله من أمر الله بما ينفيه، ففي ذلك ولا قوة إلا بالله ما تقوون عليه، وانفوا الهمّ عنكم فيه برجاء الفرج وتأميله، وبما رأيتم من تغيير أمر الدنيا وتبديله.

واعلموا أن الفرَج والسهل بعد الهم والوعر، والراحة واليسر بعد النصب والعسر، كما قال الله تبارك وتعالى:؟ فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسرا؟[الانشراح: 5 . 6]. وقال الرسول عليه السلام، فيما قد نقلته العوام: (اشتدي أزمة تنفرجي). واستعدوا الصمت عمَّا لا يعنيكم، فإن ذلك إذا غلب عليكم، جلا عنكم بإذن الله ما في قلوبكم من العمى، وإن عين القلب لا تبصر إلا في الضياء وبعد الجلى، وجلاء القلب صمته عما لا يعنيه، ونظره فيما له من الله وعليه، والمرآة ذات الصدى، لا

تُرِي إلا بعد أن تُجلى، وكذلك فلن يصل أحد إلى أن يخلص حبا لله وارتضائه، والسرور بما أعد في دار البقاء لأوليائه، والعجب بما أراه الله من عظمته، إلا بعد الجلاء للقلب من درن خطيئته، ولا يقتصر أحد في سلوك هذه السبيل على ترك الطعام، وإدمان قراءة القرآن، دون أن يخلط ذلك بالنظر إلى ما عند الله بقلبه، ويتفهم في ما يقرأ كل ما أمر الله به، فإنه لا غنم لمن جعل ما هو فيه من صيامه، ليس إلا تركه لما ترك من طعامه، ولا من جعل قراءته بالتلاوة شغلاً، ومِن فهمه لما فيه عن الله بدلاً.

واصحبوا الراسخين في العلم، فإن فيهم عصمة لمعصتم، واقتفوا وفقكم الله صلاح آثارهم، وانفوا الوحشة عنكم بصحبتهم واختيارهم.

(241/2)

ومن سلك هذه السبيل المكرمة الخالصة، فعارضه فيها من الوساوس المغوية، ما يوعر عليه سبيلاً، أو يدخل قلبه من فترة دخيلاً، فليذكر أنه في مسلك سبيل أولياء الله الذين اصطفى، وأنهم باحتمال ما هم فيه من المؤنة استحقوا عند الله المنزلة والزلفى، وبها وصلوا إلى ثواب الله الأكرم، ومحل أوليائه الأعظم.

(242/2)

[مثل طالب الدنيا وطالب الآخرة]

ثم ليقس نفسه فيه، وفيما يرجو من جزاء الله عليه، بمن يغوص في لُجِّ البحر، لابتغاء الدر، وهو يوغل في حفر المعادن لابتغاء الذهب، ويسير له في آفاق الأرض بجهد الطلب، وينصب نفسه لمقاساة المُلك الزائل، ويقاتل عليه وفيه كل بطل منازل . ومن يطلب مالا يفنى ويزول، ولا يغيّره مغيِّر من البلاء فيحول، من الملك الباقي السرمدي، والنيل الدائم الأبدي، أيهما أولى بالصبر على التعب، والاجتهاد بصدق الطلب، فقد يعلم أنه لا أحد أخسر في صفقته، ولا أفحش في الحمق من حمقته، ممن اعتاض زائلاً بمقيم، وبؤساً . إن كان عاجلاً . بنعيم، فأشعِروا أنفسكم هذا وذكره، يسهل عليكم ما وعَّرتِ الوساوس أمره.

وإن عرض لكم سوء تفكير، وشنع عليكم حالاً من حال الخير، يشغل بوسواسه ضمائر قلوبكم، فميزوا بين ذلك وبين ما عرض بصحيح عقولكم، ولا ترضوا من أنفسكم فيه بغير صحيح أموركم، فإن أخونَ الناس لنفسه، وأجهلهم بيومه وأمسه، من رضي بتشبيه العلانية، وأنكر صدق السريرة

الباطنة.

واعلموا أنكم إن رضيتم، أو خضعتم في ذلك وأغضيتم، فَتَنَكُم فيه عدوكم، وسبى بغروره فيه عقولكم، فاعتصموا بالله عن سبياته، واستدفعوه لا شريك له لبلياته، فإنه عز وجل غاية الاعتصام، واقْصِدُوا قَصدَ ما برزتم له بالتمام، فإن كل من نكَل عن بغيته، بعد أن أنصب نفسه في طلبته، أسوأ في ذلك حالاً، ممن لم ينصب فيها اشتغالاً.

واذكروا ما وُعدتم من النعيم الدائم المقيم، وما أوجب الله لمن لم يجب دعاءه من العذاب الهائل الأليم، ثم اسألوا الله فيما اعتصمتم به بنفي غمكم، واكتفوا بمعونة الله فيه يقلُّ همكم.

(243/2)

[التوبة]

ومن عثر في هذه السبيل بعد سلوكه لها فلا يقطع من الله رجاه، ولا ييأس مما أعد الله لكل من أخطأ خَطَاه، من رحمته التي وهب منها أفضل الموهبة، وجعلها للخاطئين عند الخطيئة في قبول التوبة، فإن الله تبارك وتعالى لم يقم للتائبين منهاجاً، ولم يجعل لكل نفسٍ تائبة إليه من العقوبة إخراجاً، إلا لما أحب من بسط العفو والمغفرة، وتعريف مكان حلمه بالعفو بعد المقدرة، فإن أنتم زللتم عن طاعته، فلا تزولوا عن طلب عفوه ومغفرته، فإنه يبلغكم بسعيكم في طلب عفوه، منازل الساعين في طلب ثوابه، وكما أن الله تفضّل من ثوابه بأكثر من عمل العاملين، فكذلك تفضل بالعفو على من أناب إليه من الخاطئين، وكما أن طالب الضالة محبٌّ لوجودها وأدائها، والطبيب محبٌ لإبراء المرضى إذا عالجها من أدوائها، فكذلك الله تبارك وتعالى يحب توبة من دعاه إلى الإنابة من المذنبين، ولذلك مدح سبحانه إنابة من أناب إليه من المنيبين.

(244/2)

[حذر النفس والهوى]

واعلموا أن من سقط في البحر، وألقى بيده في لجج الغَمر،، ولم يتحرك في طلب الحياة، لم يُطمَع له يقيناً بتَّاً بنجاة. ومَن وطَّن نفسه على الهلكة، يئس من أن يدركه الله بنجاته المدرِكة، ومن يئس من الأسباب المنجية، لم يتب من قبيح سيئةٍ، ومن يَحسُن ظنه بربه، لا يعدم حسن الجزاء في ظنه به، ومن يسوء ظنه بالله وفيه، فلا يعرف إحسانه إليه، ولا يستوجب منه ثواباً، ولا يأمن له – إن عقل – عقاباً، وثواب الله على حسنِ ظنٍّ مِنْ عبدِه به، عوضٌ من جزائه له على حسن عمله.

فالحذر الحذر فإن المنفعة في الحذر عظيمة، والاستعانة بمعرفتها حصن وغنيمة، فاستعينوا بالحذر والتيقُّظ عن الغفلة، وما ليس بمأمونٍ أن يعارضكم من الملالة.
واعلموا أن الأنفس تؤثر حب الخفضوالراحات، وكل ما كان لها فيه من عاجل سرور وفرحات، بغلبة غالبة لها عليها، وصغوٍّ مصغٍ شديد إليها، فإن أهملتم أنفسكم أغارت غارة السبع في شهواتها، وملكتها الغفلة فخالفتكم في أكثر حالاتها، وإن انتبهتم وحذرتم، قويتم على بلوغ ما طلبتم، وإن وَنَيتم وقصرتم، وعميتم عما بُصِّرتم، غلبت عليكم غوالب الحيرة والهوى، وأسلمكم الله إلى ما آثرتم عليه من غير التقوى، ألم تسمعوا لقول الله تعالى، فيمن غلب عليه العمى، وجانب سبيل الهدى :؟ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله على علمٍ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟[الجاثية: 23]. فلما اتبعوا أهواءهم أعماهم، ولما آثروا تقواهم هداهم، ألم يسمعوا قول الله تبارك وتعالى، :؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم، والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم ؟ [محمد: 16- 17].
فليكن حذر الهوى من شأنكم الأكبر، والهرب بالجدِ من حظكم الأوفر.

(245/2)

فإنه بلغني أن بعض الصالحين كان يقول: النار تلحق ذا الخطو البطيء، وحديقة العاجز لا تعرى عن الشوك والحلافي، فكذلك قلوب أهل التقوى إن غلب عليها الوناء والعجز والغفلة، غلب عليها الخطأ والفساد وهي عنه ذاهلة.
فلا تتكلوا على ما سلف من أعمالكم، فتضيعوا فيما تستأنفون من بقية آجالكم، واجعلوا على فكركم من عقولكم رقيباً، كيلا تجول بكم فيما جعله الله ذنباً، وكذلك فاجعلوا على ألسنتكم لكيلا تنطق بما يسخطه، وعلى أسماعكم وأبصاركم لكي تفرغ لما يحبه، وزنوا . فيما بينكم وبين الله . جميع أموركم، وارفضوا الفضول فيها من فعلكم وقولكم، واقتصروا على بغيتكم تستريحوا، وتَفَرَّغوا لها تنجوا به وتفلحوا.

(246/2)

[الاخلاص]
واعلموا أن الزَّراع الحكيم لا يثق في نفسه بسلامة ما بذر من زرعه فيه، حتى يستودعه الخزائن فتؤيه، فلا تثقوا بعملكم قبل الورود عليه.

واعلموا أن ما يعرض من الآفات، ويدخل على أهله من الغفلات، في طلب الآخرة أكثر منها في طلب الدنيا، وذلك لفتن الشيطان بحب المدح والرياء، واستشعار الكبر والخيلاء، وغير ذلك من معاريض مكره وكيده، وما يقاسَى فيه من الاخلاص وشدائده، فإن لم تَحْتَرِسُوا منها، وتحتجبوا بالله عنها، عارضتكم فيها الهلكة والتلف، ثم لم يكن في أيديكم إلا الحسرة والأسف.

فعليكم بقراءة الكتب الدَّآلة على حِكَمِ الله وعجائب قدرته، ولا تقرأوا ما قرأتموه منها للتزين في أعين الناس بقراءته، وانفوا عنكم تثاقل التلهية، بذكاء الفكر والنية، وإذا أُعطيتم فاشكروا، وإن فرحتم فاذكروا، وإن ابتليتم فاصبروا.

واعلموا أن الصلوات، ليست بطرب الأصوات، ولكنها بالباطن الظاهر، والفكر المنير الزاهر، والنية الصادقة، والضمائر المحققة، فاستعملوا ضمائركم بصحيح الاستعمال، ولا تميلوا إلى ظاهر المُراءاة باللسان، تكن أعمالكم مطيبة زاكية، وضمائركم لله خالصة نقية، ولن يكون الانسان في فعله خلصانياً، ولا فيما تتوق إليه نفسه من ولاية الله ولياً، إلا بإخلاصه لصلاته وصيامه، ومحافظته على ما حكم الله به عليه من أحكامه، فأطيعوا الله ما استطعتم، وأخلصوا له الطاعة إذا أطعتم، واصرفوا قلوبكم إلى تقوى الله، تكونوا من السابقين دون غيركم إلى تعظيم الله، فقد نبهكم الله لها فأيقظكم، وأمركم بما تعملون منها فوعظكم. فالعجل العجل والحذر الحذر! والنجا النجا! والوحاء الوحاء! فقد حدانا الرسول على رفض الدنيا وأجهر، وحرَّك إلى قبول أمر الله فيها فاستنفر، كل نفس سوية مفكرة، ذات عين صحيحة جلية مبصرة، فما لأحد من عذر ولا علة، في وناءٍ ولا تقصير ولا غفلة.

(247/2)

فهل من مستجيب لله في ذلك مذّكر ؟! وهل من رائح إلى الله أو مبتكر ؟! منيب إلى الله مستسلم، ومتعلق بحبل الله معتصم، فقد أرانا الله من معائب الدنيا ومساويها ما أراه، ففاز مَن بادر إلى الله في الإجابة برفضها إذ دعاه، فوجل من الله وأشفق، وسارع إلى الله فسبق، ولم يأخذ منها إلا ما طاب لله وزكا، ولم يختر على ما جعل الله من الحياة فيها سخطاً من الله وهلكاً، ولم يَغترِر بما أمده الله به من ماله وبنيه، وبما ظَاَهرَهُ الله من آلائه ونعمه إليه، فإنه يقول سبحانه:؟ أيحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون، إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، ولا نكلف نفساً إلا وسعها، ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ؟[المؤمنون: 55 – 62]. ويقول سبحانه :؟ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم، وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ؟[المؤمنون: 73 . 74]. ويقول سبحانه :؟ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون، واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم

من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون، أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فطرت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين، بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ؟[الزمر: 54 . 60]. ويقول سبحانه :؟ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجإ يومئذٍ وما لكم من نكير ؟[الشورى: 47]، فكفى بتذكير الله عز وجل وأمره فيما ذكَّرنا به وأمرنا من كل أمرٍ وتذكير، فأسعدكم الله بقبول تذكيره، وأيدكم في ذلك بتوفيقه وتبصيره، وبلَّغكم الله برحمته صالح أعمالكم،

(248/2)

ونستودع الله لنا ولكم، ولجميع أحوالكم.
تم كتاب سياسة النفس والحمد لله كثيراً.
وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليماً، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير.

(249/2)

[مفاهيم إسلامية]

[العلم]

بسم الله الرحمن الرحيم

العبادة بالعلم، أفضل منها بالعمل، وفي العلم من الهدى والضلال، مثل الذي منهما في الأعمال، فلما كان العلم بأحكام الله، مما يكون هدى عند الله، والجهل بأحكام الله مما يكون ضلالاً عند الله، تُرِكَ المكلفون من العباد، بعد أن نزل عليهم من الله ما نزل في ذلك من الرشاد، ليهتدوا فيها ويجهلوا، كما تُرِكوا في الأعمال ليعملوا أولا يعملوا، لكي يهتدوا فيها أو يضلوا، فأهدى الهدى فيها العلم، وأضلُّ الضلال الجهل، وهو لكل واحد منهما فيها كسب، وعمل يثاب على أيهما اكتسب أو يعاقب، ثوابه أو عقابه على غيره من أعماله، ويجزى فيه على ما صار فيما بينه وبين الله من هداه أو ضلاله.

والعلم منهما ففرض قدَّمه الله قبل فرض الأعمال، وبه وبما فرض الله منه ما أبان الله به عند المؤمنين فرق بين الحرام والحلال.

(250/2)

[الإسلام والمسلمون]

ما أعز الإسلام ولا أكرمه، ولا وقّره فيما وقَّره الله به ولا عظمه، مَن توهم أهل هذا الدهر من أهله؛ لأن الإسلام هو دين ملائكة الله ورسله، فمن زعم أن أهل هذا الدهر ممن يستحق اسمه، فقد أوجب لهم إخاءه وولآءه وحكمه.

فزعم أنهم مع ما هم من حالهم، وما عليه من سوء أفعالهم، إخوة الملائكة المقربين، وأولياء الأنبياء المرسلين، والله سبحانه يقول: ؟إنما المؤمنون إخوة؟ [الحجرات:10]. فآخا منهم بين من في السماء والأرض وقال: ؟ المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعضٍ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم؟ [التوبة:71]. فوصف المؤمنين بصفة، فيها لمن أراد معرفتهم أعرف المعرفة.

فكيف يأمر بالمعروف من يميل عليه، وينهى عن المنكر من يدعو إليه، ومن هو مقيم ليله ونهاره فيه ؟!

وكيف يقيم الصلاة بحدودها ؟ في قيامها وركوعها وسجودها ؟ من شُغله بأصغر دنياه أشغل له منها! ومن هو بأقل هواه معرض به عنها!

وكيف يؤتي الزكاةَ – مَن جعلها الله له – مَن يغتصب كل مسكين نفسه وماله.

وكيف يطيع من هو مخالف، إلا في أقل القليل لله لا كيف، إلا عند عميٍّ جاهل، لا يفرق بين حق وباطل. والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وعترته الطاهرين وسلامه.

(251/2)

[واجب المؤمن مدة الجبارين]

بسم الله الرحمن الرحيم

وإنه ليجب على المؤمن في مدة الجبارين، أن يكون حجة لله قوية، وساحته من معاونتهم على ظلمهم برية، وأن يكون الرزق أقرب متقربه، وأسرعه إلى الفراغ به، ليُقبِل قبل شغله، وما وكله الله به من عدله، ولكن لن يفلح أيام دنياه، ويبلغ المفروض عليه من تقواه، إلا من اتخذ الجوع أُنسا، واستشعر العُريَ لباسا، ووضع الصبر على البلوى أساسا، فأما مَن شأنه النُّقلة والرحيل، والطلب في كل مسلك وسبيل، ومن شغله اجتلاب أنواع الطُّرف، ومقامه مقام الجبار المترَف، فهيهات، هيهات

من النجاة، غرق الشقي في بحر شقائه، فهو مضطرب بين أكناف أرجائه، فإقباله إلى الخير إدبار، ومقاربته عن الحق نفارٌ .

(252/2)

العالم والوافد

[امتحان للوافد]

بسم الله الرحمن الرحيم

روي بالإسناد الصحيح أن وافداً (وهو محمد بن الإمام القاسم) وفد على عالم من علماء آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وهو الإمام القاسم)، فلما نظر الوافد إليه رأى رجلاً جسمه لا يشبه اسمه: فسلم عليه، فرد السلام، فأطال الوافد الوقوف، وأطال العالم السكوت.

فقال الوافد: إن لكل طالبٍ حاجة.

فقال العالم: ولكل حديث جواب.

فقال الوافد: صدقت، لأن الله تعالى يقول :؟ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ؟ [النحل: 43، الأنبياء: 7]. فعلم العالم أن الوافد يريد منه علماً.

فقال: إن العلم بحر عميق.

فقال: ولكل بحر سفينة ينجو بها راكبها.

قال العالم: وما سفينة بحر العلوم ؟

فقال الوافد: المعرفة.

فقال العالم: المعرفة اسم أم رسوم ؟

فقال الوافد: اسم ورسوم.

(253/2)

[النفس]

فقال العالم: كم رسوم المعرفة ؟

قال الوافد: تعرف نفسك، وتعرف ربك، وتعرف دينك، وتعرف دنياك، وتعرف آخرتك، فإذا عرفت ذلك فلا حاجة لك إلى غيرك.

قال العالم : كيف تعرف نفسك ؟

فقال الوافد : أعرف حدثها، وأعرف ضعفها، وأعرف فاقتها، وأعرف عجزها، فأجهدها في طاعة ربها، وأحملها على الخوف لخالقها، كي أرى خوفها، واحتمال الأذى، وأروضها وأحثها على الطلب لما فيه نجاتها، وأصرفها من الكذب إلى الصدق، ومن الطمع إلى الورع، ومن الشك إلى اليقين، ومن الشرك إلى الإخلاص، وأخرجها من محبوبها في الدنيا، وأريضها في السفر حتى تنال كرامة الله تعالى في الآخرة.

(254/2)

[معرفة الله]

قال العالم: وكيف تعرف ربك ؟

قال الوافد: أعرفه بما عرَّف به نفسه من الوحدانية، ولا أشبهه بشيء من البرية، لا يحد بالحدود، ولا يوصف بالصفات، إذ هو سبحانه وتعالى خالق كل صفة وموصوف.

(255/2)

[الدين]

قال العالم: وكيف تعرف دينك ؟

قال: الوافد أعرفه بالشريعة التي سنها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وصدَّقها المحكم من التنزيل، وشهدت لها قرائن العقول. وهي على ثلاثة وجوه: قول وعمل واعتقاد، وسبيلها واضح، وطالبها رابح، قد بهر دليلها، وشهد لها بالصدق من ذوي العلم عقولها، فقد كفونا مؤنة الطلب بهذا الإحتجاج، وقطعوا عنا علائق الإعوجاج، حتى ما بقي في ذلك شك ولا اختلاج. فقصدت عند ذلك بينة صحيحة حتى عرفت الأصل والفرع، وبحثت بغائصِ عقلي، فوجدت ذلك واضحاً مبيَّنا، وفي كتبهم مشروحاً معيَّناً، كلاما مبرهنا، قد حملوا صلوات الله عليهم عبء ذلك وثقله، وأوضحوا فرع ذلك وأصله، حافظين فيه الأمانة، مجتنبين الغش والخيانة، قد شيدوا بنيانه، وعظموا سلطانه، وأثبتوا في العقول برهانه، فليس لأحد من بعدهم مطلب، ولا لمسترشد من دونهم مذهب، ولا عاقلٌ في غير مذهبهم يرغب.

(256/2)

[الدنيا]

قال العالم : فيكف عرفت دنياك ؟

قال الوافد: عرفت فناها وتقلُّبَها، وغدرها وخدائعها فحذرتها، ونظرت وميزت، فإذا الدنيا تغر طالبها، وتقتل صاحبها، تفرق ما جمع، وتغير ما صنع، فعرفت أنها تفعل بي مثل ما فعلت بالأولين.

(257/2)

[الآخرة]

قال [العالم]: فكيف عرفت آخرتك ؟

قال الوافد: عرفت أنها دار باقية فيها الحساب والعقاب، والمجازاة والثواب، يبلغ أمدها، ويطول أبدها، فريق في الجنة وفريق في السعير، فمن كان في أصحاب الجنة فشآبٌ لا يكبر، وغني لا يفتقر، وقادر لا يعجز، وعزيز لا يذل، وحي لا يموت، في دار قرار ونعيم مقيم، وسرور وقصور، وأبكار راضية، وقطوف دانية، وأنهار جارية، ومُلك لا تحد سعته، ونعيم لا تحصى صفته. ومن كان من أهل النار فحمل ثقيل، ومقام طويل، وبكاء وعويل، وخشوع ضفيف، وقلب حفيف، في دار جهد وبلية، وغم ورزية، وضيق لا يتسع، وعذاب لا ينقطع، حيث السلاسل والأغلال، والقيود والأكبال، والضرب والنكال، والصياح والأعوال، وأكل الزقوم، وشراب الحميم، ولفحات السموم، وظهور المكتوم، ولباس القطران، وزفرات النيران، والخزي والهوان، داخلها محسور، وواردها مضرور، وساكنها مدحور، وصاحبها مقهور، واللابث فيها مهجور.

(258/2)

[الجنة والنار]

قال العالم: كيف يصنع من وُعد بهذين الدارين ؟

قال الوافد: ينبغي لمن وُعد بهذين الدارين أن ينظر إليهما، ويتصور ما وعد الله فيهما لأهلهما، ثم ينظر إلى الجنة وقصورها، وما وصف الله فيها من النعيم المقيم، والفواكه والأزواج من الحور الحسان، والأكاليل والتيجان، والأنهار الجارية، والأثمار الدانية، والسرر المصفوفة، والزرابي المبثوثة، وأسبابها ولباسها، وفراشها وحجراتها، وطعامها وشرابها، ونعيمها ودوام ذلك فيها، فيخاف أن لا يكون من أهلها، فهنالك تتتابع زفراته، وتكثر حسراته، وتفيض عبراته، ويطيع ربه ويعصي هواه، ويترك دنياه، ويطلب آخرته، ويعلم يقيناً أن إلى الله مصيره.

[معارف الحكماء]

قال: فلما انتهى الكلام منهما إلى هذا الحد، وعلم العالم أنه ذو فطنة ونباهة ونبالة، ونظر وتمييز، ورغبة في طلب العلم سأله لينظر معرفته.

قال العالم: من أين ؟

قال الوافد: من فوق الأرض ومن تحت السماء.

قال العالم: كم لك ؟

قال: كذا وكذا سنة.

قال له العالم: ما ترى ؟

قال: أرى أرضاً وسماء، وما بينهما.

قال: فما ترى في السماء ؟

قال: أرى شمساً تحرق، وقمراً يشرق، ونجوماً تزهر، وماء يمطر، ورياحاً تذري، وسحاباً يجري، وطيراً يهوي، وليلاً ونهاراً، وأياماً مختلفة.

قال العالم: فما ترى في الأرض ؟

قال الوافد: أرى براً وبحاراً، وسهولاً وأوعاراً، وتراباً وأحجاراً، وأثماراً وأشجاراً، وأنهاراً وقراراً.

قال العالم: فكم الدنيا ؟

قال الوافد: ليلٌ ونهار.

قال العالم: فكم الخلق ؟

قال: ذكر وأنثى.

قال العالم: فكم الناس ؟

قال الوافد: الناس أربعة: واحد فيه خير وشر، والثاني شر بلا خير، والثالث خير بلا شر، والرابع لا خير فيه ولا شر.

قال العالم: فكم الناس وما هم بعد ذلك ؟

قال الوافد: نُبل وسَفَل، فلا النبل لهم قدر عند السفل، ولا السفل لهم قدر عند النبل.

قال العالم: فكم الكلام ؟

قال الوافد: أربعة: خطاب، وجواب، وخطأ، وصواب.

قال العالم: ففيم العجب ؟

قال الوافد: في سبعة.

قال العالم: من هم ؟

قال الوافد: عبد عرف الله وعصاه، وعرف الشيطان وأطاعه، وعرف الدنيا فجمع لها، وذكر الموت فطابت نفسه، وعرف الآخرة فبغضها، وعرف الجنة فلم يرغب إليها، وعرف النار فلم يرهبها.

(260/2)

[الإيمان]

قال العالم: فما خير الأشياء ؟

قال الوافد: خير الأشياء الإيمان بالله، والملائكة، والكتاب، والنبيين.

قال العالم: كم شهود الإيمان ؟

قال الوافد: أربعة شهود: محكم الكتاب، ومحكم السنة، وحجة العقول، وإجماع الأُمة.

قال العالم: وما هو ؟

قال الوافد: عمل، وقول، واعتقاد.

قال العالم: وكيف ذلك ؟

فقال الوافد: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان.

قال العالم: فما ضد الصدق ؟

قال: ضده الكذب.

قال: فما ضد العمل ؟

قال: ضده النفاق.

قال: فما ضد الإعتقاد ؟

قال: ضده التشبيه.

قال العالم: فما أعظم الأشياء ؟

قال: معرفة الله على الحقيقة، وهي: التوحيد والتعديل، والتصديق، وذكر الله على كل حال، في الليل والنهار.

قال العالم: فما أفضل الأشياء ؟

قال الوافد: أفضل الأشياء: طلب العلم من العلماء، حتى يعرف الطالب الحق فيعمل به، فمَن زَهَرَ مصباح الهدى في قلبه أخلص العمل والنية الصادقة لربه، وأنطقه الله بالحكمة.

قال العالم: فما أخبث الأشياء ؟

قال الوافد: الجهل. لأن بالجهل الهلاك والعطب، وأن الجاهل إذا أراد أن يصلح شيئاً أفسده بجهله وقلة علمه، وهو يجلب جميع الآفات، ويتولد منه الكبر والطمع والحسد، والحرص والشهوة والبخل

والسخرية.

قال العالم: فما أقبح الأشياء ؟

قال الوافد: اللهو، والغيبة، والنميمة، والخيانة، والكذب، والزنا، والرياء، وحب المدح، وحب الفاسق، وصحبة المنافق، والتهمة وسوء الظن.

قال العالم: فما أدنس الأشياء ؟

قال الوافد: السؤال للناس، ومقاربة الأنجاس، والثقة بكل الناس، ومفارقة الأكياس.

قال العالم: فما أنفع الأشياء ؟

قال الوافد: حسنة تكون بعشر أمثالها.

قال العالم: وما هي هذه الحسنة ؟

(261/2)

قال الوافد: تطعم أخاك المؤمن من جوع، أو تكسوه من عري، أو تقضي عنه دينا، أو تفرج عنه غماً، أو تكشف عنه هماً، فمن فعل هذا لأخيه المؤمن جاء يوم القيامة ولوجهه نور يضيء كنور القمر، وتتلقاه الملائكة بالبشارة، وتدخله الجنة آمناً، وأعطاه الله من الثواب ما لا يصفه واصف، ولا يحيط بمعرفته عارف.

قال العالم: فما أضرّ الأشياء ؟

قال الوافد: سيئة تتبعها سيئة، ولا يكون عليها ندامة، ولا يرجع صاحبها إلى توبة.

قال العالم: فما أطيب الأشياء ؟

قال الوافد: العافية مع المعرفة، ووضع الأشياء في مواضعها، وفي مجالسة العلماء، ومدارسة الحكماء، وحضور مجالس الذكر، والتفكر في الصنع، والمبادرة في أعمال البر، وإصلاح ذات البين، والتجهيز للرحلة، والإستعداد للموت.

قال العالم: فما أهول الأشياء وأعظمها فزعا ؟

قال الوافد: إذا نفخ في الصور، وبعثر ما في القبور، واجتمعت الخلائق إلى الموقف المتضايق، فهنالك الفزع العظيم، والخطب الجسيم، كل إنسان يقول: نفسي نفسي، لا يسئل ذلك اليوم والد عن ولده، ولا أخ عن أخيه، كل نفس بما كسبت رهينة.

(262/2)

[نجاح الوافد في الإمتحان]

قال: فلما انتهى الكلام بالعالم والوافد إلى هذا الحد عرف العالم أن الوافد حسن المعرفة، جيّد الفطنة، رصين الدين، صحيح اليقين، متين الورع، كثير الفزع، أقبل عليه العالم بوجهه وقال: أيها الوافد الصالح، والتاجر الرابح، والخليل الصالح الناصح: اسأل عما بدا لك يرحمك الله.

(263/2)

[مكنون الحكمة]

فقال الوافد: أيها العالم الحكيم الناطق، والبر الشفيق الصادق، انشر علي من مكنون حكمتك علماً، وزدني من نوادر معرفتك ما أزداد به فهما، فلعل الرَّين الذي على قلبي أن يخلص ببركتك، وينجلي عني بجود صحبتك.

قال العالم: جُرَّ لك الصلاح، ووُفِّق لك الفلاح، ويُسِّر لك النجاح، وعليك بستة أشياء فالزمها واعمل بها، واحرص فيها وحافظ عليها.

(264/2)

[معرفة الله]

قال الوافد: وما هي بيِّنها لي يرحمك الله ؟

قال العالم: أولها المعرفة بالمعروف فهو الله عز وجل، والإيمان به، والإسلام، والطاعة، والعلم، والعمل. ثم تعرف المعرفة ما هي إذا صرت عارفا، رددت المعرفة إلى المعرفة فلحقت من المعرفة ما قدرت عليه. ثم تعرف الإيمان ما هو وكيف هو ؟ حتى إذا صرت مؤمنا أسلمت للذي آمنت به، حتى إذا صرت مسلما احتجت أن تطيع للذي أسلمت له، حتى إذا صرت مطيعا احتجت إلى علم تطيع به، وتعرف العلم ما هو وكيف هو، حتى إذا صرت عالما احتجت أن تعمل بما علمت، ثم تعرف العمل ما هو وكيف هو وما ثمرته، وإلى ما يوصلك وما عائدة نفعه.

قال الوافد: أيها العالم بيِّن لي المعرفة ما هي وكيف هي ؟

قال العالم: أما ما هي فإصابة الأشياء بأعيانها، ووضعها في مواضعها، ومعرفتها على حقائقها، وأما كيف هي فإصابة المعاني، فما من شيء إلا له معنى يرجع إليه، فإصابة الأشياء بالنظر والتفكر والتمييز والسمع والبصر، وإصابة المعاني بالتفكر والإعتبار والعقل.

قال الوافد: فما معرفة الله تعالى ؟

(265/2)

قال العالم: هو أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد، لا تدركه الأبصار ولا يحويه مكان، ولا يحيط به علم، ولا يتوهمه جَنان، و لا يحويه الفوق ولا التحت، ولا الخلف ولا الأمام، ولا اليمين ولا الشمال، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، لا يعلم كيف هو إلا هو. فتعرفه بهذه المعرفة، فما توهمه قلبك فربك بخلافه عز وجل، وذلك قوله في محكم كتابه العزيز لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم :؟قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا؟ [الإخلاص:1 – 4].

فتقول كما أُمرت، وتعمل كما قلت، وتشهد بما علمت، وتعمل كما شهدت، أن الله الواحد القهار الملك الجبار المحيي المميت الحي الذي لا يموت، خالق كل شيء (ومالك كل شيء، الكائن قبل كل شيء، الباقي بعد فناء كل شيء، ؟ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؟ [الشورى: 11]).

وهو على كل شيء قدير، فهذه معرفة الله تعالى بالذكر.

وأما المعرفة بالتفكر والنظر بالقلوب، والتمييز بالألباب، فهي في عظيم قدرة الله تعالى وارتفاعه، وعلوه وبقائه، ونفاذ أمره، وبيان حكمته، وإحاطة علمه، وكثرة خلقه، وسعة رزقه، وقرب رحمته، وجُود كرمه، وكريم تطوله، وبيان حكمه، وحسن رأفته، وجميل ستره، وطيب عافيته، فلله الحمد على ذلك كثيرا.

(266/2)

[الإيمان]

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: الإيمان بالله والإقرار به، وبما جاءت به الرسل من عند الله تعالى، وتؤمن جوارحك حتى لا تستعملها في شيء مما يكرهه منك خالقها، فتكون قد أمنتها من عذاب النار. ومن الإيمان أن يأمن الناس من يدك ولسانك وظنون قلبك، فإذا فعلت ذلك فأنت مؤمن. ومن الإيمان الرضى بالقضاء، والشكر على العطاء، والصبر على البلاء. ومن الإيمان المحافظة على الفرائض والسنن، والقيام بالنوافل والفضائل.

ومن الإيمان تعلم أن الله حق، وقوله حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، والثواب حق، والحشر حق، والقيامة حق، والعرض حق، والحساب حق، وأن الله على كل شيء قدير، وأنك منتقل من هذه الدار الفانية إلى الآخرة الباقية . مسئول عن أعمالك، موقوف على فعالك وأقوالك، وإقلالك وإكثارك، وإعلانك وإسرارك، فتجد ما فعلت قد أحضر إليك . وأنت اليوم في دار المهلة، ومكان

الفسحة، فلا تذهب أيامك سدى، واعمل فيها بطاعة ربك، وعلق قلبك في ملكوت إلهك، واجعل دليلك القرآن، و قرينك الأحزان، وفعلك الإحسان، وطعامك الفكر، وحديثك الذكر، وحليتك الصبر، وقرينك الفكر، وهمك الحساب، وسعيك الثواب، وجليسك الكتاب، وأملك الرجاء، وسريرتك الوفاء، وسيرتك الحياء، وفاقتك الرحمة، وعملك الطاعة، وطلبك النجاة، وسؤالك المغفرة، وسبيلك الرضى، وخوفك العقاب، ورغبتك الثواب، وخُلُقك العفاف، وعزيمتك الكفاف، فمن سلك هذه الطريق سبق، ومن تكلم بمثل هذه صدق، وهي عروة فمن تعلق بها استوثق، والحمد لله رب العالمين.

(267/2)

[الإسلام]

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: الإسلام، وهو أن تسلم للذي آمنت به. ومن الإسلام أن تسلم كليتك إلى أعمال الطاعات، فإذا بلغت ذلك سلمت من العقاب، وسلم الخلق منك، ويكون إسلامك بالظاهر والباطن، حتى لا يخالف قولك فعلك ولا فعلك يخالف قولك، فيكون ظاهرك باطنك، وباطنك ظاهرك، وتكون موقنا بالوحدانية، مقراً بالربوبية، معترفا بالعبودية، مجللا بالعظمة، هائبا للجلالة، فرحا بالمكروه، محبا للطاعة، طالبا للرضى، خائفا للبعث، راغبا في الجزاء، راهباً للعذاب، مؤديا للشكر، مداوما على الذكر، معتصما بالصبر، عاملا بالفكر، فهذا عمل الباطن.

وأما عمل الظاهر: فالإجتهاد في أداء الفرائض والسنن والفضائل والنوافل، منها الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقراءة القرآن.

ومن السنن الختان، وصلاة العيدين، وحلق العانة، وتقليم الأظفار، ونتف الإبطين، وقص الشارب، والسواك.

ومن الفضائل صيام رجب، وشعبان، والأيام البيض، ويوم عاشوراء، ويوم عرفة والإثنين والخميس.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

(268/2)

قال العالم: وراء ذلك المواصلة والمعاونة والمؤاساة والمؤاخاة في الله، والمحبة لأولياء الله تعالى، والبغضة لأعداء الله، وصلة الرحم، وبر الوالدين، ورحمة اليتيم، ومعاونة الضعيف، وتعليم الأولاد وتأديبهم، وإنصاف الزوجة فيما تسألك عنه وهي ناظرة إليك، والعناية في تعليمها، والأمر لها فيما لا

بد لها منه، والنهي لها عما لا حاجة لها إليه، ولزومها لمنزلها، وطول الحجاب، وتصفيد الأبواب، وتعليم الحكمة والصواب، مع لزوم العفاف، والرضى بالكفاف، والصيانة لها عن التبرج في الفُرَج والأبواب، والتشرف إلى أهل الفحش والإرتياب، ومنع الداخلات إلى دار المسلمات، ممن لا يشاركهن في الدين والأحساب، فأولئك هاتكات الستور، ومبيحات كل محظور، والناقلات الكلام الزور، الجالبات للفحشاء والفجور، والمبغضات للنعمة، والمدخلات على المسلمات التهمة، والمفرقات للألفة، والداعيات للكشفة.

ولقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال : أحب إلي أن أجد في منزلي مائة لص يسرقونه أهون علي من أن أجد فيه عجوزاً لا أعرفها. ومن ذلك إنصاف الخادم فيما لا يقدر عليه، والنهي له عن مالا حاجة له فيه، والرفق به فيما لا يقدر عليه به، والنظر له فيما لا يدري، (وصيانة الدآبة فيما تحتاج إليه، والرفق بها فيما لا تقدر عليه)، فهذا الأمر بالمعروف.

وأما النهي عن المنكر: فمن المنكر القول السيء، والقول بالفواحش، والكذب.

ومن الفعل: القتل، والربا، والزنا.

ومن النية: الرياء، والكبر، والحسد، والبغضاء، والشحناء، والفحشاء.

ومن الفعل: أخذ أموال الناس سراً وجهراً، ومن القول الغيبة، والنميمة، وشهادة الزور. فهذا من النهي عن المنكر.

(269/2)

[مراتب العرفان]

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: تطيع الله الذي أسلمت له.

قال الوافد: وما هي الطاعة بيِّنها لي – يرحمك الله تعالى – حتى أعرفها وأعمل بها ؟

قال العالم: الطاعة اتباعك لما أمرك الله به، واجتنابك لما نهاك الله عنه، وذلك على وجهين: شيء قد علمته، وشيء لم تعلمه.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: اجتناب ما نهاك الله عنه، وهو على وجهين: شيء قد عرفته، وشيء لم تعرفه، فتعرف مالك وما عليك، فيما نهاك الله عنه، فعليك بما قد علمت به، التوبة والرجوع والإنابة والتضرع، ولك في ذلك المغفرة. فإنك إذا خفت ربك تبت إليه، وتعرف الخوف ما هو وكيف هو.

قال الوافد: ما هو يرحمك الله ؟

قال العالم: أما ما هو فمعرفة الذنب، وشهادة الرب. وأما كيف هو: فوجل القلب، ودمع العين. فإن

لم تكن كذلك فلست بخائف فيما قد علمت. وأما الذي لم تعلمه فعليك منه الرهبة والتقوى، فإذا اتقيت الله لم يجدك حيث نهاك، وإذا خفته لم يفقدك حيث أمرك، فإن الله يراك، ويعلم سرك ونجواك، ويسمع كلامك، فهنالك ترهبه وتخافه حتى كأنك تراه.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: وراء ذلك التقوى.

قال الوافد: وما التقوى ؟

قال العالم: تحفظ لسانك وعينك ويدك ورجلك وفرجك وظنون قلبك، فلا تنظر بعينك إلى مالا يحل لك، فإن النظرة الواحدة تزرع في القلب الشهوة، وهي سهم من سهام إبليس، وتحفظ لسانك عن الكلام فيما لا يعنيك، فإن اللسان سَبُعٌ إذا أطلقته أكلك، وهلاكك في طرف لسانك، فلا تقل مالا يحل لك، ولا تمدد يدك إلى ما لا يحل لك، فإن لم تفعل فما اتقيت الله تعالى، وإن فعلت فقد اتقيت، ولك في ذلك المغفرة والرحمة وذلك قوله سبحانه: ؟ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ؟ [طه: 82].

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

(270/2)

قال العالم: القيام بما أمرك الله به، حتى تعرف عملك، وتضع كل شيء منه في موضعه، وتعرف خطأه وصوابه، ويكون ذلك العمل تابعا للعلم مطابقاً له، ويكون فيه الرغبة واليقين والإخلاص والمحبة والحياء والإستقامة، وتعرف الرجاء ما هو، وكيف هو، ومن ترجو.

قال الوافد: بيِّن لي ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: هو أن يكون رجاؤك الله في كل أمورك، لدنياك وآخرتك، ولا يكون رجاؤك للخلق أكثر من رجائك للخالق، فتحبط عملك، ويبطل أجرك، فإن الله تعالى يقول وقوله الحق : ؟ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ؟ [الكهف: 110]. فتقوم بما أمرك الله به ظاهراً وباطناً، فيصح ظاهرك وباطنك، فإن الظاهر الجلي، يدل على الباطن الخفي. ويكون قلبك متعلقا بذكرِ مَن ناصيتك بيده، ورزقك عليه، ورجاؤك له وشدتك وعافيتك وبلواك ومحياك ومماتك ودنياك وآخرتك، وترجوه للشدة كما ترجوه للرخاء، وترجوه للآخرة كما ترجوه للدنيا، وتخافه كما تخاف الفقر.

قال الوافد: فما وراء لك يرحمك الله ؟

قال العالم : الرغبة، تعرفها ما هي وكيف هي ؟

قال الوافد: بيِّنها لي يرحمك الله تعالى ؟

قال العالم: إن الرغبة في التطوع بعد الوفاء بما أمرك الله به، فإنك إذا رغبت ازددت إلى الخير خيراً، وإن لم ترغب لم تزدد وأنت متطوع ولست براغب. وأما كيف هي: فالتضرع عند الدعاء، فإنك إذا رغبت تضرعت، وإذا لم ترغب كان دعاؤك بلا رغبة، وذلك قوله عز وجل: ؟ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ؟ [الأعراف: 55]. فمن خاف تضرع، ورحمه الله وأجابه.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: وراء ذلك اليقين.

قال الوافد: وما هو اليقين ؟

قال العالم: صاحب اليقين ذنبه لا يكتب، وتوبته لا تحجب.

قال الوافد: بيِّن لي ذلك ؟

(271/2)

قال العالم: صاحب اليقين يعلم أن العلم متصل بالنية، فكلما خطر خاطر في قلبه، علم أن الله قد علمه فيلحقه الخوف، ويبادر بالتوبة قبل أن يعمل الذنب، فتوبته مقبولة، وذنبه غير مكتوب، وإنما يكتب ذنبه لو أصر عليه ولم يتب منه.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: الإخلاص في الدين، وهو في القول والعمل والإعتقاد، قول خير، وعمل خير، واعتقاد خير، أما سمعت ما قال الله تعالى: ؟ ألا لله الدين الخالص ؟ [الزمر: 3].

قال الوافد: بيِّن لي ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: هو أن يعلم العبد أنه بين يدي الله عز وجل، يراه ويسمع كلامه، ويعلم ما في نفسه، فيجعله أمله، وتكون الطاعة عمله، ولا يغيب عن مشاهدته، ولا يزول إلى معاندته، زالت الدنيا من عينه، وتعلقت الآخرة في قلبه، فقيامه طاعة، وقوله نفاعة، وكلامه ذكر، وسكوته فكر، قد قطع قوله بعمله، وقطع أمله بأجله، وخرج من الشك إلى اليقين، فقلبه وجل، ودمعه عجل، وصوته ضعيف، وكلامه لطيف، وثقله خفيف، وحركته إحسان، وتقلبه إيمان، وسكوته أمان.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: حب الحق، وبغض الباطل، وحب من أطاع الله قريبا كان أو بعيداً، وبغض من عصى الله قريبا كان أو بعيداً، فإن حب الباطل يدخل النار، وحب من أحب الله قريبا كان أو بعيدا يدخل الجنة.

قال الوافد: كيف أحب من أطاع الله قريبا كان أو بعيدا ؟

قال العالم: يسوؤك ما يسوءه، ويضرك مايضره، ويسرك ما يسره، وتدخل السرور عليه، فإن كان

أعلم منك تعلمت منه، وإن كنت أعلم منه فعلّمه، وحفظته في محضره ومغيبه، وواسيته وأعنته، ورعيت صحبته، وجعلت ذلك لله وفي الله، ولا يكون في ذلك منٌّ ولا أذى.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: الحياء من الله.

قال الوافد: بيِّنه لي ؟

قال العالم: ذلك على ثلاثة وجوه:

(272/2)

أولهن: أن يعلم العبد أن طاعة الله عليه واجبة، وأن رزقه على الله، أفلا يستحيي العبد من الله أن يراه حريصا على رزقه، كسلانا عن طاعة ربه، يمن على قومٍ أجسادُهم معافاة، وعقولهم ثابتة، وقلوبهم آمنة، ونفوسهم طيبة، قد أحسن الله إليهم، فلا ينظرون إلى شيء من قدرة الله، ولا إلى نعمه عليهم فيشكرون، ولا إلى من كان من قبلهم فيعتبرون، ولا إلى ذنوبهم فيستغفرون، ولا إلى ما وعدهم الله في الآخرة فيحذرون، أفلا يستحيي من آمن بالله أن يراه الله مع أولئك مقيما، لا بثاً ساكنا ومؤانسا، حاضراً مجالساً.

وأما الثاني: فإن الله أعطى وقضى يعطي وهو راضٍ، أفلا يستحيي العبد أن يرضى برضى ربه عند عطاه، ولا يرضى برضاه عند القضاء، كما يرضى برضاه عند العطاء.

وأما الثالث: فإن الله يرضى لعبده الجنة، ويأمره بالعمل الصالح لما يصلح له من الخير، فيعمل العبد مالا يرضى الله له، ويكره ما يرضى الله له من الخير، ولا يترك المعاصي والشرور ولا يرضى برضى الله له، ويكون له ولد يحبه ويريد له الدنيا، وربما قبضه الله إليه وهو له ولي، أفلا يرضى العبد برضى الله كما رضي أولا بعطائه، وهو يعلم أن موت ولي الله خير له من حياته في هذه الدنيا الفانية، المحشوة هموماً وغموماً ونغصاً وغصصاً وآفاتاً وشروراً.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: وراء ذلك الإستقامة. أما سمعت قول الله عز وجل: ؟ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم لا هم يحزنون ؟[الأحقاف: 13].

قال الوافد: بيِّن لي ذلك يرحمك الله ؟

(273/2)

قال العالم: الإستقامة هي: أن ترى الدنيا قيامة، فلا تلتفت فيها إلى كرامة، ولا تبالي فيها بالملامة، والإستقامة تؤدي صاحبها إلى السلامة، والمستقيم صادق، وبالحق ناطق، عمله في خضوع، وقلبه في خشوع، وروحه في رجوع، وسروره في نزوع، وجسمه سقيم، وقلبه سليم، مقيم بلا التفات، مداوم على المراقبات، ملازم للأمر، مدمن على الزجر، طالب للأجر، تارك للهوى، مقيم على الوفاء، حريص على التقى، مجتهد في الصفاء، ليله قائم، ونهاره صائم، إلف مُؤآلف، صابر عاكف، تآم الصحبة، دائم المحبة، مجيب، غير مريب، مفوض، غير متعرض، مطيع، غير مريع، طالب راهب، مسلم مستسلم، مقر لا منكر، محتقَر لا محتقِر، متواضع غير مستكبر، مقبل غير مدبر.

وعلامة المستقيم أن يستقيم به كل معوج، ويُسلَك به خير منهج، ويكون عالما يهتدى به، ودليلا يقتدى به، ولا يكون مـ؟ من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ؟ [الحج: 11].

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: أما علمت أن الدنيا شدة ورخاء.

قال: بلى.

قال: فليكن حالك في الشدة كحالك في الرخاء.

قال: بيِّن لي ذلك يرحمك الله ؟

قال: أليس في الرخاء حساب، والشدة ثواب ؟

قال: بلى.

قال: أيهما أحب إليك الثواب أم الحساب ؟

قال: بل الثواب.

قال: أما علمت أنك في وقت الشدة ترجو الرخاء، وفي وقت الرخاء تخاف الشدة، وذلك قوله عز وجل: ؟ إن مع العسر يسراً؟[الإنشراح: 6]. فتعَّرف حد الشدة فتكون راجيا، وتعَّرف حد الرخاء فتكون خائفا، لأن الرخاء والشدة يعتقبان، فاستعد للحالين جميعاً. ولست أعني لك شدة الدنيا ولا رخاءها، إنما عنيت بذلك الآخرة، لأن (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر).

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: الرضى بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على العطاء.

(274/2)

[الحمد والشكر]

قال الوافد: وكيف يكون الشكر ؟

قال العالم: الشكر على سبعة أشياء.

قال: وما هي ؟

قال: الخلق، والمِلك، والرزق، والعافية، والعلم، والقِدَم، والقدرة. فتنظر إلى ثبات عقلك، وتمام خلقك، فتحمد الله العظيم على ذلك كثيرا.

ثم تنظر إلى الملك كم من ذي روح غيرُه له مالكٌ، والله مالك كل شيء، وأنت لا مالكَ لك، فتحمد الله على ذلك كثيرا. ثم تنظر إلى مالك وولدك وطعامك وشرابك، ولباسك ونومك وإيقاظك، وتنظر إلى اختلاف الليل والنهار، كيف يقربان البعيد، ويبليان الجديد. ثم تنظر إلى العافية، وإلى كل شيء تخافه على نفسك في ليلك ونهارك، مما تراه ومما لا تراه! فتعلم أنه لا يدفع ذلك ولا يصرفه، ولا يكفيك ما ترى وما لا ترى، إلا الله سبحانه وتعالى، فتحمد الله على ذلك كثيرا.

ثم تنظر إلى المصائب التي تصيب الناس في أبدانهم المركبة عليهم، فتعلم أن في تركيبك مثل ما في تركيبهم، فتحمد الله الذي ستر عليك ما ظهر على غيرك من العلل والآفات.

ثم تنظر إلى مَن كان مِن قبلك وإلى من هو كائن من بعدك في دنياك وآخرتك.

ثم تنظر إلى القِدم فتعلم أن الله قديم لم يزل ولا يزول.

ثم تنظر إلى القادر فتعلم أن الله قادر لا بقدرةِ غيره، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

ثم تنظر إلى العلم فتعلم أن الله قد علم ما هو كائن قبل أن يكون.

ثم تنظر إلى ما سخر لك الله من جميع الخلق، وذرأ وبرأ من السماء التي زينها بالكواكب والشمس والقمر، وأجرى ذلك لمنافع الخلق. وما جعل من الرياح والسحاب، وما جعل في الأرض من الحيوان المسخر المجبور المقهور المنقاد إلى المنافع، فتحمد الله على ذلك كثيرا.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: الصبر على قضاء الله سبحانه، فما جاء من عند الله حمدت الله عليه، ولم تسخط ذلك وسلمت الأمر لله، ورضيت بقضاء الله وحمدت الله على ذلك كثيراً.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: تنظر بعد ذلك إلى نفسك، وتعلم أن الله خلق الإنسان من نطفة تقع في رحم مظلم، فتقيم في الرحم (سبعة أيام، ثم ترجع دما فيكون ذلك الدم علقة) أربعين يوما، ثم يجعلها الله مضغة ذكراً أو أُنثى، فيكون فيه الروح لسبعة وسبعين يوماً، ثم يخلق الله له العروق والعظام والعصب، ثم يصيره الله تعالى بعد ذلك لتمام مائتين وسبعين يوماً، وذلك ستة آلاف وأربع مائة وثمانون ساعة، فجميع حمل الولد لتمام حمل أمه كاملة أشهره وأيامه وساعاته.

فأشهره تسعة أشهر، كل شهر ثلاثون يوماً، وأيامه مائتان وسبعون يوماً، وساعاته ستة آلاف وأربع مائة وثمانون ساعة، فهذه أيام الولد كاملة، أشهره وأيامه وساعاته.

وفي تركيبه الحرارة والبرودة، واليبوسة واللين. فالدم حآر ليِّن، والمِرَّة الصفراء حآرة يابسة، والمِرَّة السوداء باردة يابسة، والبلغم بارد رطب.

وتركيب الإنسان إثنا عشر وصلة، وله مائتان وثمانية وسبعون عظما، وله ثلاث مائة وستون عِرقا، فالعروق تسقي الجسد، والعظام تمسكها، والعصب واللحم يشدها.

ولكل يد أحد وأربعون عظما، فللكف من ذلك خمسة وثلاثون عظما، وللساعد عظمان، وللعضد عظم، وللتراقي ثلاثة أعظم، وكذلك اليد الأخرى، وللرِّجل ثلاثة وأربعون عظما، للقدم من ذلك خمسة وثلاثون عظماً، وللساق عظمان، وللركبة ثلاثة أعظم، وللورك عظمان، وكذلك الرِّجل الأخرى.

وللصلب ثمانية عشر فقاراً، ولكل جنب تسعة أضلع، وللرقبة ثمانية أعظم، وللرأس ستة وثلاثون عظما، وللأسنان من ذلك اثنان وثلاثون عظماً. وطول الأمعاء سبعة أذرع.

فسبحان خالق الإنسان ؟خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو؟ [الزمر: 6] !!

(276/2)

حتى إذا حان أوان خروجه من بطن أمه إلى الأرض، لم يقدر أحد على إخراجه أبداً، ولو اجتمعت الإنس والجن ما أحسنوا ذلك، فسبحان من أخرجه سويا لا يعرف أحدا، ولا يسأل رزقا قد أوجد الله له رزقه في صدر أمه لبنا يغذوه به لضعفه وقلة بطشه.

حتى إذا جلَّ عظمه، وكثر لحمه، وقطع سنه، وطحن ضرسه، وبطشت يده، ومشى على قدميه، وعرف أن الله خالقه، وأنه الذي أفضل عليه رزقه في بطن أمه، وبعد خروجه في مهده، نسي ذلك كله وجحده، وجعل يطلب رزقه من مخلوق مثله، !!! ؟قتل الإنسان ما أكفره؟[عبس: 17]. أما علم أن الذي رزقه في ضعفه هو الذي يرزقه في وقت قوته ؟! أما سمع ما قال الله تعالى في كتابه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ؟ لا نسئلك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ؟ [طه: 132]. أما سمعت قول الله تعالى حيث أقسم في كتابه فقال عز من قائل: ؟ وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ؟ [الذريات: 22 – 23].

أما سمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال (لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها)، وقال: (لو أن أحدكم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت).

وقيل لأمير المؤمنين علي عليه السلام يا أمير المؤمنين: (من أين يأتي الرزق إلى الإنسان ؟ قال: من حيث يأتيه الموت) .

قال الوافد: أيها العالم الحكيم أخبرني ما أفضل ما أُعطي العبد ؟

قال: العقل الذي يعرف به نعمة الله ويعينه على شكرها، وقام بخلاف الهوى، حتى عرف الحق من الباطل، والضر من النفع، والحسن من القبيح.

قال الوافد: فما وراء ذلك يرحمك الله ؟

قال العالم: الإيمان، وحقيقة الإيمان: الإخلاص وصدق النية، حتى إذا عملت عملا صالحاً لم تحب أن تذكره، وتُعظَّم من أجل عملك، ولا تطلب ثواب عملك إلا من الله، فهذا هو إخلاص عملك، فإن عملت عملا وأحببت أن تُذكر وتُعظَّم من أجله، فقد تعجلت ثوابه من غير الله، ولم يبق لآخرتك منه شيء.

(277/2)

[المناجاة]

قال الوافد: فما تقول في المناجاة ؟

قال العالم: لا تكون المناجاة، إلا على الرجاء والمصافاة، بقلب سليم من الآفات، والظنون والغيبات، ثم تقول: إلهي إن لم أكن لحقك راعياً، لم أكن لغيرك داعياً، وإن لم أكن في طاعتك مسابقاً، لم أكن لأعدائك مطابقا، وإن لم أكن لك عابداً، لم أكن لآياتك معانداً، وإن لم أكن لحبك واجداً، لم أكن لغيرك ساجداً، وإن لم أكن إلى الخيرات مسارعا، لم أكن لباب الخطيئات قارعاً، وإن لم أكن لحدودك حافظاً، لم أكن بكلام السوء لافظا، وإن لم أكن في الصلاة خاشعاً، لم أكن لأعدائك خاضعاً، وإن لم أكن في سبيلك مجاهداً، لم أكن لدليلك جاحداً.

إلهي كيف يصافيك من لا يأتيك ؟! وكيف يرجوك من لا يتقرب إليك ؟! أنا المتخلف عن أقراني، أنا الضعيف في أركاني، أنا الفريد بحفرتي عن إخواني، أنا الذي لم أحقق إيماني، سيدي قد أتيتك بفاقتي، وجئت إليك لما عدمت طاقتي، أنت العالم بجُرمي، المطلع على ظلمي، المحصي لخطيئتي، الشاهد على طويتي، الناظر لي في خلوتي.

إلهي كسدتْ بضاعتي، وخسرتْ تجارتي، ولم اتزود من حياتي، وقد أتيتك وقد قربت وفاتي.

إلهي إن لم تقبلني فأين الملجأ، وإن رددتني فأين المنجا، وإن لم تغفر لي فأين الملتجا ؟!!! من للعبد إلا مولاه ؟! ذهبت أيامي، وبقيت آثامي، فلا تذل مقامي، ولا تحجب عني أمامي، يا من ابتدأني بفضله، وأكرمني بتطوله.

ما الحيلة أعضائي ذليلة، ما الحيلة أحزاني طويلة، ما الحيلة حسناتي قليلة، ما الحيلة وليس لي وسيلة.

(278/2)

لا حيلة لي غير الرجوع، والتضرع والخضوع، والإقبال والإياب، وتعفير الوجه في التراب، والتذلل عند الباب، وقراءة آيات الكتاب، والسجود لرب الأرباب، وترك الإشتغال بالأشغال، والإقبال على مقدِّر الأرزاق والآجال، وترك المعارضة، ورفض المناقضة، وحنين وحرقات، وأنين وزفرات، وسهر دائم، وليل قائم، ونهار صائم، وقلب هائم، ووعظ لائم، فرار، بلا قرار، فراق كل محبوب، والبين عن كل منسوب.

الحيلة ترك الإستراحة، في طلب الراحة، ودوام النياحة، مع القيام على السياحة، وترك الخطايا، واستعداد المطايا.

الحيلة أن تخضع حتى تسمع، ويخاف القلب ويخشع، وتعبر العين وتدمع، اقرع الباب، يأتيك الجواب.

قال الوافد: قد سمعت لذيذ المناجاة، كيف أصنع في داء قد تمكن في قلبي حتى أقلعه وأحسمه ؟

قال العالم: من أوجعته علته، أظهر عند الطبيب زلته، وأبدى إليه شكيته، مَن عدم مراده، قلق فؤاده، ومَن قلق فؤاده، بان منه رقاده، ارفع خواطر القلب إلى الرب، فهو يجلي الكرب، ويغفر الذنب، ارفع حوائجك إلى ربك، كما ترجوه لغفران ذنبك، اكتب قصة الإعتذار، بقلم الإفتقار، امش إلى باب الجبار، بقدم الإضطرار، في وقت الأسحار، وارفع يديك بالإستغفار.

(279/2)

[البكاء]

قال الوافد: فما تقول في البكاء ؟

قال العالم: لأن تبكي وأنت سليم، خير من أنت تبكي وأنت سقيم، وفي النار مقيم بين أطباق الجحيم، والشيطان لك قرين خصيم.

واعلم أنك دخلت الدنيا عند خروجك من بطن أمك باكيا عابساً، فاجهد أن تخرج منها ضاحكا مستأنسا، لأن تبكي وأنت في الطريق، خير من أن تبكي وأنت في وسط الحريق، البكاء مع السلامة، خير من البكاء مع الملامة، اليوم ينفعك البكاء لو بكيت ندماً، وغداً لا ينفعك البكاء لو بكيت دماً، البكاء قبل المعاينة، خير من البكاء يوم المباينة، ابك لضعف فاقتك، ابك لقلة طاقتك، ابك لكثرة معاصيك، ابك لعظم مساويك، ابك لإفلاسك، ابك لعدم إيناسك، ابك لقلة عملك، ابك لقلة حيلتك، ابك لعدم وسيلتك، ابك لكثرة وزرك، ابك لثقل ظهرك، ابك لفساد أمرك، ابك لظلام قبرك،

ابك لقسوة قلبك، ابك لخبث سرك، ابك لمضي دهرك، ابك لكشف سترك، ابك لساعة موتك، ابك لانقطاع حياتك، ابك لغربتك في لحدك، ابك لتوديع دارك، ابك لتوقع قرارك، ابك اليوم بوارك، ابك لاستقبال أهوالك.

قال الوافد: كيف أصنع إذا لم أستطع البكاء ولم تدمع العين ؟!

قال العالم: ما جمدت العيون إلا بقساوة القلوب، وما قسات القلوب إلا من كثرة الذنوب، وما كثرة الذنوب إلا برضى للعيوب، وما وقع الرضى بالعيوب إلا بعد الإجتراء على علام الغيوب، جمود العين، من وجود الرين. وقال في ذلك:

تزَّود من حياتك للممات .... ولا تغترَّ في طول الحياة
أترقد والمنايا طارقات .... كأنك قد أمنت من البيات
أتضحك أيها العاصي وتلهو .... ونار الله تسعر للعصات
أتضحك يا سفيه ولست تدري .... بأي بشارة يأتيك آت
فيا قلبي فلم تزدد رجوعا .... وتعرض عن عظات ذوي العظات

(280/2)

ثم قال: أتبغي صفاء الفؤاد، مع بقاء المراد، تُضيع الأصول، وترتكب الفضول، ثم تطمع بالوصول، وأنت لا تتبع ما جاء به الرسول، أتطلب الزاد، مع كثرة الرقاد، وقلة الإجتهاد، أتطلب المساعدة مع قلة المجاهدة، إن هذا من علامات المباعدة !!! لن تنال الأماني إلا بترك الفاني، لا بالكسل والتواني، أسهر العيون، تصبح غير مغبون، لن تنال الجِنان، إلا بصفاء الجَنان، وخالص الإيمان، وقراءة القرآن، وتوحيد الرحمن، وإطعام الطعام، ورحمة الأيتام، وكثرة الصيام، وطول القيام، من طالت مناجاته ارتفعت درجاته، وقلَّت في القيامة فزعاته.

(281/2)

[عناصر الإيمان]

قال الوافد: بما ينال العبد جنة الخلود ؟

قال العالم: بحفظ الحدود، وبذل المجهود، وطاعة المعبود، والوفاء بالعهود، وكثرة الركوع والسجود. من أراد الأمان، فليخلص الإيمان، ويفعل الإحسان، ويقرأ القرآن. لن ينال جنة النعيم، إلا من جاء بقلب سليم، لن تنال من الله المزيد، إلا بصدق التوحيد، وكثرة التمجيد للواحد الحميد، من أراد البر،

لم يكتسب الوزر، من أراد العطاء، صبر على الأذى والبلاء.

لن تنال شهوات الآخرة إلا بترك شهوات الدنيا، (لن تنال النعيم، إلا بترك النعيم، لن تنال معانقة الحور، إلا بصلاح الأمور)، ومجانبة الشرور، ورفض المحذور، لن ينال الشفاعة، إلا من قام لأخيه المؤمن بالنفاعة، وحافظ على صلاة الجماعة، وأطعم الأيتام في المجاعة، من أحب الشرب من حوض الرسول، فليترك كلام الفضول، وتثبَّت فيما يقول، فإنه لا بد مسؤل.

قال الوافد: صف لي الحياء ؟

قال العالم: من عمل بالرياء فُقِد منه الحياء، وحجب منه الضياء، وتكدرت عليه الدنيا، وعاش في الناس يهودياً، وحشر يوم القيامة مجوسياً.

قال الوافد: كيف أنال حلاوة الطاعة ؟

قال العالم: لا تدرك الحلاوة، إلا بإدمان الفكر في التلاوة، ولا تنال حقائق المعاني إلا بترك الأماني، ولا يتمكن في قلبك الخوف والوجل، إلا برفض الدنيا وقصر الأمل، وإخلاص العمل، وهجران الكسل.

(282/2)

[الورع]

قال الوافد: صف لي محض الورع ؟

قال العالم: لن تنال الورع، إلا بكثرة الخوف والفزع، واختيار الجوع على الشبع، وترك الشهوات والطمع، [فإن فعلت زكى لبك]، وصفا عند ذلك قلبك، ونلت لذيذ السهر والقيام، وقربت من ذي الجلال والإكرام، وملكت نفسك، ووافقت أنسك، ورضي عنك الرب، وغفر لك الذنب.

واعلم أنك لا تنال من الله البرّ والسلامة، إلا بالصبر والإستقامة، ولا تنال حقائق الرجاء، إلا بالإنقطاع إلى الله والإلتجاء، ولا تنال الكرم والتَّفَضُّل، إلا بالندم والتذلل، ولا تنال الراحة، إلا بترك الراحة وكثرة البكاء والنياحة، ولا تنال الولاية، إلا بالحراسة والعناية، ولا تنال مجاورة الأبرار في دار القرار، إلا بترك الأوزار، ولا يخشع القلب ويلين، إلا بتفكر وتبيين، ولا تنال الخوف، إلا بترك عسى وسوف، ولا تنال الإتصال، إلا بإهمال الإشتغال، ولا ينقى القلب، مع بقاء شيء من الذنب، ولا تدرك صفاء الفهم، وفي قلبك من الدنيا همٌّ، ولا يزول عنك الهم، ما دام لك في الدنيا خصم، من أنفق مما يحب، فهو حقاً المحب، من ترك ما كان يألف، دخل الجنة وثوابه مضاعف، من عمل بما أقول، شفع له الرسول، من عمل بغير ما أقول، لم يكن عمله مقبول، من لم يندم على معصيته، أخذته زبانية النار بناصيته، من قصر في الطاعات، حرم الصالحات، من نافس في الخيرات، ارتقى

في أعلا الدرجات، من اغتر بالليل فجع بالنهار، ومن سهى بالنهار فجع بالليل، من ركب الظن، غُبِن أيَّ غَبن، من ركب فرس الأماني، عثر في ميدان التواني، التاجر برأس مال غيره مفلس.

(283/2)

[جهاد النفس]

قال الوافد: كيف المجاهدة ؟

قال العالم: المجاهدة في المباعدة والوحدة، والصبر على المحنة والشدة، من لا عبادة له لا زاد له، ومن لا زاد له لا عقبى له، اقرع الباب، يأتيك الجواب، من أمَّل العظيم، وُهِبَ له الجسيم، من أراد الجود، أدام السجود، من لا سجود له لا جود له، من لا ندامة له لا كرامة له، من لا خير فيه، لا خير عنده، خير البضاعة الطاعة، من عمل بالطاعة، نجا من فزعات الساعة، لا بد من سهر الأسحار، وقيام الليل وصيام النهار، إذا أردت الجنة فاسجد وتضرع، واظمأ وتجوَّع، واسهر وتطوع، وتذلل وتخشع، وتفرد وتوحد واخضع وتجرد، تنل فضل الواحد الأحد، اترك الآثام تأمن الصَّولة، واعمل صالحا تكن لك الدولة، واهجر الجرائم، تصل وأنت سالم. مَن أكثر النحيب، لم يكن عليه رقيب، وما دعا إلا أجيب، وكان له من كل خير نصيب، من رغب إلى الله أعطاه، ومن اكتفى به كفاه، ومن استغنى به أغناه، ومن لجأ إليه آواه.

قال الوافد: كيف أكون ذاكراً وأنا لا أسلم من الغفلة ؟

قال العالم: لا تقع العلة، إلا فيمن أكثر الغفلة، من غفل، وقع في الزلل، إذا أردت السعادة، فودع الوسادة، وجالس أهل الزهادة، وأكثر العبادة.

عجباً ممن يستريح وقد تاب، ويلهو وقد شاب، ما كان في الله تلفه، كان على الله خلفه، اجتهد تجد، وأخلص تخلص، اتبع الرسول، وأبشر بالوصول، من اتصل، وصل، ومن ترك الجدال، نال خير منال، وكفي الشدة والأهوال، من خالف هواه، كانت الجنة مآواه، ومن ندم، أُكرم.

قال الوافد: فما حيلة من دنا من الباب، فمنعه الحُجَّاب، فلم يصل إلى الأحباب ؟

(284/2)

قال العالم: حيلته ملازمة القلق والإكتئاب، والحزن والإنتحاب، والفَرَق والإنتداب، حتى يأذن له الاحباب، ويُفتح له الباب، إذا أردت في الجنة الوقوف، فأكثر في المساجد العكوف، فإنك تأمن من كل مخوف. كم من متردد لا يؤذن له ؟! وطارق لا يفتح له، (وكم من مصروف مطرود، مهان

مردود)، وكم من مُظهِر انتحابه، وهو لا يفتح له بابه، وكم من طامع في ثوابه، هو من أهل عذابه.

قال الوافد: فكيف الوصول ؟

قال العالم: تصل الليل بالنهار، وتتضرع في غسق الأسحار، وتسبح بالعشي والإبكار، وتتعود الندم والإستغفار، لعل الله يخفف عنك ثقل الأوزار، ويُحرِّم بدنك على النار.

(285/2)

[الندم والتوبة]

قال الوافد: كنا صبياناً فلعبنا، فصرنا شباباً فسكرنا، فصرنا كهولا فكسلنا، فصرنا شيوخاً فعجزنا وضعفنا، فمتى نعبد الله ربنا، عطلنا الشباب بالجهالة، وأذهبنا العمر في البطالة، فأين الحجة والدلالة ؟

قال العالم: من غفل في وقت شبابه، ندم في وقت خضابه، الشباب لا يصبر على الصواب، ويندم عند الخضاب، ما أحسن الشاب في المحراب! إلى متى العصيان ؟ إلى متى متابعة الشيطان ؟ إلى متى الجرأة على الرحمن ؟ ألا تحذر لباس القطران، وتهدد مالك الغضبان، وضرب الزبانية والأعوان، ألا تَفِرّ من اليوم الفاني، إلى اليوم الباقي، ألا تتزود من هذا اليوم لذلك اليوم، وتتخلص من الهوان واللوم.

أيها المغرور بشبابه، والمسرور بأصحابه، والمختال في أثوابه، أما تحذر أليم عذابه، وتخاف شديد عقابه، كم من وجه صبيح، وخد مليح، وبدن صحيح، ولسان فصيح، أصبح في العذاب يصيح، بين أطباق النار لا يستريح.

كم من شاب ينتظر المشيب، عاجله الموت وأحل به النحيب، كم من مسرور بشبابه، عاجله الموت من بين أحبابه، إلى قبره وترابه.

أيها الشاب الجهول، إنك في التراب منقول، وعلى النعش محمول، وعن أعمالك مسئول. مالك لا ترجع ؟! مالك لا تفزع ؟! مالك لا تخضع ؟! مالك لا تخشع ؟! آه من يوم يقول فيه المولى: عبدي شبابك فيم أبليته ؟! وعمرك فيما أفنيته ؟! فلا تنظر إلى الشباب وطراوته، ولا تغتر بحسنه وملاحته، ولكن انظر إلى صرعته وندامته.

ما أحسن الإياب بالشاب! وما أقبح الخضاب لمن قد شاب وما تاب! ما بقاء الشيخ في الدهر، إلا كبقاء الشمس على القصر، في وقت العصر. الشيب داعي الموت، وناعي الفوت، الشيب يؤذن بالفراق، ويخبر بالتلاق، الشيب ظاهره وقار، وباطنه ازدجار، الشيب يكدر المنى، ويكثر العناء،

الشيب كسل في كسل، وعلل في علل، وملل في ملل، وخلل في خلل، وآخره كلل، وتقريب الأجل، وقطع الأمل.

(286/2)

فلما بلغ كلام العالم والوافد إلى هذا الحد قال له العالم: ما أسوأ عبدٍ يقرب منه الأجل، وهو يسيء العمل! ما أسوأ عبدٍ ظهر فيه الخلل، وهو يكثر الزلل! من شابت ذوائبه، جفته حبائبه، أين الإستعداد ؟ أين تحصيل الزاد ؟ وأنت للذنوب تعتاد، وقد ناداك المناد، أين الراجع إلى الله ؟ أين المشتري نفسه من الله ؟ [أين الخائف من] ربه ؟ أين النادم من ذنبه ؟ أين الباكي على أمسه ؟ أين المستعد لرمسه ؟ أين الطالب للثواب ؟ أين الخائف للعذاب ؟

ألا ترجعون إلى الهدى! ألا تُقبلون إلى الله! ألا تخافون من عذاب الله! ألا تطمعون في ثواب الله! ألا تقتدون بأولياء الله! ألا تتوبون من الذنوب! ألا ترجعون عن العيوب! ألا تندمون على ما أسلفتم! ألا تعترفون بما أقترفتم! ألا تستغفرون لما أجرمتم!!

أما آن للقلوب أن تخضع ؟! أما آن للعيون أن تدمع ؟! أما آن للصدور أن تجزع ؟! أما آن للعاصي أن يفزع من الذنوب ؟! أما آن للخاطئ أن يرجع عن العيوب ؟! أما تعلم أيها العاصي أنه لا تخفى خافية على علام الغيوب ؟! أما تعلم أنك مأخوذ مطلوب ؟! ومتعتع في النار مسحوب ؟! أما تعلم أنك مفارق لكل صديق ودمعك على خديك مسكوب ؟! أما تخاف أن تصبح وأنت عن رحمة الله محجوب ؟! وعلى حُرِّ وجهك في النار مكبوب ؟! فياله من جسد متعوب!! ودمع مسكوب!! وقلب مكروب!! وعقل مرعوب!!!

قال الوافد: كيف أحتال في الخلاص ؟

قال العالم: أما تعتبر ؟! أما تزدجر ؟! أما تستغفر ؟! أما لك فيمن مضى عبرة ؟! أما لك فيمن مثلك فكرة ؟! إلى متى هذه الجفوة والفترة ؟! إني أخاف عليك الشقوة والحسرة ؟! فكم هذه الغفلة الغامرة ؟! والقسوة الحاضرة، أما تغتنم أيامك ؟! أما تمحو آثامك ؟! أما تكفِّر إجرامك ؟! أما تحذر ما قدامك ؟! أنسيت ما أمامك ؟! أما تنتبه من رقادك ؟! أما تتأهب لمعادك ؟! أنسيت اللحد وضيقه ؟! أنسيت القبر وظلمته ؟! أغفلت عن البعث والنشور ؟! يوم يظهر كل مستور، ويُحصَّل ما في الصدور.

(287/2)

إلى متى تعلَّل بالأماني الكاذبة ؟! وتضيِّع الحقوق الواجبة ؟! دفنت الأحباء فلم تعتبر، وغيبتهم في الثرى فلم تزدجر، ما للناس لا يرجعون ؟! يوعظون فلا يتعظون، ينهون فلا ينتهون، ينادون فلا يسمعون، ؟ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ؟ [المجادلة: 19]. (وغشي على قلوبهم الران فالقلوب مسودة متباعدة، والأجسام منافقة متوآدة). يقولون مالا يفعلون، يأملون مالا يبلغون، ؟ وإذا قيل لهم أركعوا لا يركعون ؟ [المرسلات: 48]. وإذا أُمروا بالطاعة لا يطيعون، ويجمعون مالا يأكلون ولا يلبسون، بل هم يكذبون ويسرقون، وينافقون ويحلفون، ويعدِون ويخلفون، ويرآؤون ويبخلون، فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون ؟! ويجمعون مالا يأكلون، ويمنعون مالا ينفقون، ويبنون مالا يسكنون، ويقطعون ولا يصلون، ينافقون ولا يخلصون، لا من الله يخافون، ولا منه عند المعاصي يستحيون، ينامون نوم البهائم، ثم نسوا يوماً يؤخذ فيه بالجرائم، لاالله يخافون، ولا عقابه يحذرون، يصبحون، على خلاف ما يمسون، هممهم دنية، وأعمالهم ردية، وأحوالهم غير مرضية.

(288/2)

[المؤمن بين الغافلين]

قال الوافد: كيف يصنع من أصبح مع هؤلاء ؟

قال العالم: يرضى بالله صاحباً، ويعتزل عنهم جانباً، ويل لمن له ذنب مستور وثناء مشهور، وهو عند الله مثبور، ظاهره بالخير معروف، وباطنه بحب الدنيا مشغوف، وهو عن آيات الله مصروف، وثيابه أبيض من الحليب، وقلبه مثل قلب الذيب، باطنه من التقوى خراب، وهو يطمع في الثواب، وهو في الدنيا سكران من غير شراب، ظاهره فيه سيماء العابدين، وباطنه فيه سيماء الجاحدين، مقالتهم مقال الأبدال، وفعلهم فعال الجهال، (سيرته سيرة المغترين، وأمله أمل المفتونين، فهذا) من المطرودين، عن باب رب العالمين.

(مالي أرى الناس يركبون الشرور ؟! ويدخلون في المحذور ؟! ويضيعون الأيام والشهور ؟! إلى متى) يسوفون التوبة ويلبسون ثياب الزاهدين ؟! ويُضمرون أسرار الظالمين ؟!

ألا وإن أبعد الناس من الله عبد نظر إلى عيب أخيه المسلم، ولم ينظر إلى عيب نفسه، إن رأى لأخيه المسلم حسنة سترها، وإن رأى سيئة نشرها، فذلك جزاؤه جهنم وبئس المصير . من لم يميز بين الحلال والحرام، أسرعت إليه أسهم الإنتقام، من أسف على شيء من الدنيا يفوته، كثر نزاعه عند موته.

(289/2)

[الهالك]

قال الوافد: صف لي الهالك المتأسف ؟

قال العالم: هو الذي يتأسف على رزق لم يأته، وينتظر مالا وربما لم يستوفه، يخُاف شره، ولا يُرجى خيره، يُظهر حزنه، ويكتم شره، فهو مرتبط بالنفاق، معاند بالشقاق، سيئ الأخلاق، قرين المحال، قريب الخجال، قليل النوال، قد رضي بالقيل والقال، ولا يسلك سبيل النجاة، ولا يخاف المفاجاة، ظاهره مع أهل الدين، وباطنه مع المنافقين، قد باين الفرقان، وأغضب الرحمن، فقلبه لا يخشع، وعينه لا تدمع، ونفسه لا تشبع، قد آثر العمى على الهدى، وبدّل الدين بالدنيا، وفي ذلك أقول، بعد الصلاة على الرسول:

مضى عمري وقد حصلت ذنوب .... وعزَّ عليّ أني لا أتوب

نطهر للجمال لنا ثياباً .... وقد صدئت لقسوتها القلوب

وأعربنا الكلام فما لحنا .... ونلحن في الفعال فلا نصيب

قال الوافد: أسأل الله تعالى سلوك طريق الأخيار، ومجانبة طريق الفجار.

قال العالم: إن الله سبحانه وتعالى قد بَيَّن لعباده طريق الهدى، وحذرهم المخاوف والردى، بعث إليهم رسولاً، وجعل القرآن لهم دليلاً، وركّب فيهم عقولاً، وأمرهم ونهاهم، وخيَّرهم ومكنهم، وأعد ثواباً، وعقاباً، فمن أطاع وفّاه ثوابه، ومن عصاه ضمّنه عقابه، فإياك والظلم والعدوان، والإقدام على الزور والبهتان، وعليك بالعدل والإنصاف، والبذل والإلطاف، ولا تظلم أحداً فإن الظالم نادم، والظلم يخرب الدار، ويفرد الجار، (ويثير الغبار، ويسخط الملك الجبار)، ومن أكبر المصائب والحسرات، المأخوذ يوم القيامة بالتبعات، يوم لا شفيع يشفع، ولا دعاء يرفع، ولا عمل ينفع، يوم لا ينفع الظالم ندمه، وقد زلت به قدمه، وقد شهدت عليه جوارحه، فيا حسرة الظالم ويا ويحه!!

(290/2)

[الاعتبار]

قال الوافد: كيف يكون الإعتبار ؟

قال العالم: انظر إلى الذين جمعوا كثيرا، وبنوا كثيرا، وأملوا طويلا، وعاشوا قليلا، هل تسمع لهم حسا ؟! أو ترى لهم في القبور أنسا، سكنوا في التراب، واغتربوا عن الأصحاب، ولم يسلموا من العقاب، حملوا ثقيلا، وعاينوا وبيلا، وصارت النار لهم منزلا ومقيلا، وعرضت عليهم جهنم بكرة وأصيلا، لا يطيقون قبيلا، ولا يسمعون جميلا، ولا يرجون تحويلا، ولا يملُّون عويلا.

أين الذين شيدوا العمران ؟ ! وشرفوا البنيان ؟! وعانقوا النسوان، ؟! وفرحوا بالولدان ؟! وجمعوا الديوان ؟! وتملكوا البلدان ؟! وغلقوا الأبواب ؟! وأقاموا الحجاب ؟!

أما رأيت كيف دارت عليهم الدوائر ؟! وخلت منهم المكاثر ؟! وتعطلت منهم المنابر ؟! وضمتهم المقابر ؟! وغيبتهم الحفائر ؟! وتمزقت جلودهم ؟! وتفرقت جنودهم ؟!ورجعت قصورهم خرابا ؟! ودورهم يَبابا ؟! وأجسادهم ترابا ؟! أين ملوكهم ؟! أين ديارهم ؟! أين أحبارهم، أين مواكبهم ؟! أين مراكبهم، أين خيلهم، أين مواليهم، أين أنصارهم، أين عددهم، أين وزراؤهم، أين ندماؤهم، أين أمرآوهم، أصبح غنيهم فقيراً، وأميرهم حقيراً !!!

هل بقي الذكر إلا لمن أطاع مولاه، ورفض في رضاء الله دنياه، وخالف مِن خوفِ الله هواه ؟ وقدم الخير لعقباه، فدخل دار السرور، وكفاه الله كل محذور، دارٌ فيها الأمان، والحور الحسان، والأكاليل والتيجان، والوصائف والغلمان، والأنهار الجارية، والأشجار الدانية، والنعمة الوافية، والسرر المصفوفة، والموائد المعروفة، والفرش المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والخيام المضروبة، والقصور المنصوبة، تلك دار اليقين، ومحل الصالحين، ومأوى المؤمنين.

(291/2)

قال في ذلك شعراً:

تنام ولم تنم عنك المنايا .... تنبه للمنية يا ظلوم

وحق الله إن الظلم شؤم .... وما زال المسيء هو الملوم

إلى الديان يوم الدين نمضي .... وعند الله تجتمع الخصوم

سل الأيام عن أمم تفانت .... فتخبرك المنازل والرسوم

تروم الخلد في دار المنايا .... وكم قد رام مثلك ما تروم

وقال في ذلك أيضا:

أعارك ماَ له لتقوم فيه .... بطاعته وتعرف فضل حقه

فلم تشكر لنعمته ولكن .... قويت على معاصيه برزقه

تبارزه بها يوما وليلا .... وتستحيي بها من شر خلقه

ثم قال: ما أسوأ حال من يصلي ويصوم! ويسهر ويقوم! ثم يحفر بئراً لأخيه! لا يدري أنه يقع فيه.

قال الشاعر:

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله .... إذا كنت فارغا مستريحا

وإذا هممت بالزور والبا .... طل فاجعل مكانه تسبيحا

[وقال:]

اغتنم ركعتين عند فراغ .... فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيح رأيت غير سقيم .... ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

(292/2)

[التواضع]

قال الوافد: كيف التواضع ؟

قال العالم: يا عجبا ممن خلقه الله من نطفة!! ورزقه من غير كلفة!! كيف لا يلزم التواضع والعفة ؟! وعجبا ممن خُلق من ماء مهين! كيف يغتر بمال وبنين ؟! وعجبا ممن أصله من التراب والطين! كيف لا يتواضع للفقراء والمساكين ؟! كيف يضحك ويعجب ؟! ويلهو ويطرب ؟! ويفتخر ويلعب ؟! والقبر منزله، والتراب وساده، لا يعتبر، ولا يستغفر، أليس بعد الغنى الفقر ؟! وبعد العمارة القبر ؟! كيف يتكبر مَن أوله من تراب ؟ووسطه ريح في جِراب ؟! وآخره ميتة في خراب ؟! كيف يفرح بالمنى ؟! من هو عرض للفناء ؟! كيف يطمئن بالسرور ؟! من تعجله المنية للقبور ؟! وكيف يفرح بمضاجعة النواهد ؟! من يضاجع الدود غدا في الملاحد.

أيها المعجب بالدنيا وشبابه، المختال في مراكبه وثيابه، المفتخر بأهله وأصحابه، انظر إلى المنقول من أترابه، إلى ظلمة اللحد وترابه، أيها المفتخر برجاله وأمواله، المعجب بأحواله وأشغاله، انظر المقبور وتفكر في حاله، أيها المتطاول بعشائره وأحبابه، المسرور بعلومه وآدابه، انظر إلى المُغافَص في شبابه، المختطف من بين أحبابه، هل منع عنه حجابه، أو تبعه أصحابه.

أيها الجامع أنواع العلوم، هل تعلم ما سبق لك في المعلوم ؟! أتدري أمقبول أنت أم محروم ؟! أمحمود عند ربك أم مذموم ؟!

يا صاحب العلم والإفادة، أمعك خبر من الشقاوة والسعادة، أيها الناظر في الدقائق، ألك أمان من البوائق ؟! هل علمت بالحقائق ؟! حتى رضي عنك الخالق، ما حيلتك إن هتك سترك غدا في مشهد الخلائق ؟!

(293/2)

[المكين]

قال الوافد: أخبرني مَن المكين في ذلك اليوم ؟

قال العالم: المكين في ذلك اليوم، مَن أخذ من هذا اليوم لذلك اليوم العظيم، المكين من أتى الله بقلب سليم، المكين، من عرف الحق المبين، القوي الشجاع، من عرف الملك المطاع.

(294/2)

[الحقير]

قال الوافد: فمن الحقير في ذلك اليوم ؟

قال العالم: الحقير من هو من رحمة الله فقير، الحقير من هو للذنوب أسير، الخاسر البائس، من هو من رحمة الله آيس، السقيم، من هو في النار مقيم، الحزين، من كان له في النار من الشياطين قرين، الهالك، من يُسَلَّم إلى مالك.

يا صاحب الحسن والجمال، والفخر والأموال، عند انقطاع الآجال، يبطل الحسن والجمال والأموال.

يا كثير الإشتغال، كأني بك يقلبك الغسال، كم ذا العجز والإذلال ؟! كيف تطيق السلاسل والأغلال ؟! ما أسوأ حالك! إذا لم تقدم مالك! لا تفقر نفسك وتغني عيالك.

يا ذا الأموال الكثيرة، غداً نفسك إليها فقيرة، يا ذا العز والمملكة، كيف بك في دار الهكلة ؟! يا ذا العساكر والجنود، كيف تصنع بنار الوقود.

(295/2)

[المَلِك]

قال الوافد: مَن الملك في ذلك اليوم الهويل ؟

قال العالم: (المَلك، من رضي عنه الملك، النبيل، من استقام على السبيل، الخليل)، من رضي عنه الجليل، الشريف، من هو عن الحرام عفيف، العاقل، من لم يكن عن الله غافل.

يُستقبح من المؤمن كبره، ومن الشيخ كفره، ويُستحسن من المؤمن فقره، حقيقٌ بالتواضع من يموت، وبالبذل من يفوت، المؤمن دنياه فوت، ومعاشه قوت.

وقال في ذلك:

صنيع مليكنا حسن جميل .... فما أرزاقنا عنا تفوت

فيا هذا سترحل عن قريب .... إلى قوم كلامهم السكوت

وقال غيره:

أيها الشامخ الذي لا يرام .... نحن من طينة عليك السلام

إنما هذه الحياة متاع .... ومع الموت تستوي الأقدام

قال الوافد: كيف يهنأنا العيش في هذه الدنيا، وهذه أفعالها في أهلها ؟

قال العالم: بناؤنا للخراب، وأعمارنا للذهاب، ودهرنا إلى انقلاب، والموت يبدد الأحباب، ويفرق الأصحاب، الموت ينزل الملوك من القصور والقباب، إلى القبور والتراب، كل ما عملنا معدود،

وعليه حفظة شهود، أعمالنا محفوظة، وأنفسنا مقبوضة، وسيئآتنا علينا معروضة، لنا من كأس الموت شراب، ولنا من بعده سوء الحساب.
طوبى لمن له في الطاعة اكتساب، حتى ينال في الآخرة الثواب، والويل لمن له العقاب والحساب والعذاب، والموت يدخل كل باب، من أخرجه الموت من دار، لم يكن له إليه إياب.
آه غفلنا من اكتساب الخيرات، ولم نستعد للممات، لا بد لنا من الحساب، لا بد لنا من العرض على الملك الوهاب.
(ما أغفلنا عن الآخرة!! ما أغفلنا عن الورود في الساهرة !!) غفلنا عن الإنتحاب، غفلنا عن الإكتئاب، غفلنا عن الآزفة، غفلنا عن الواقعة، غفلنا عن القارعة، لم نكثر الندامة، لم نذكر القيامة، لم نخف الطآمة.

(296/2)

(يا من بارز الله في السر والحجاب، وغلق عليه الأبواب، أتظن أن ذلك يخفى على الملك الوهاب، إنك في دينك مصاب، إن العاصي يسقى في النار من الحميم المذاب، هل معك لمالكٍ خازن النار جواب ؟ أم لك عنده خطاب ؟ أترجو من غير الطاعة الثواب ؟ ما أسوأ حالك عند البعث والحساب! ما أغفلنا عن الرحلة)، ما أغفلنا عن الزلزلة، ما أغفلنا عن الصيحة، ما أجرأنا على الخالق! ما أكفرنا بالرازق! يا ويل كل منافق! إنا راجعون، إنا مسؤولون، إنا موقوفون، إنا مهانون، إنا على سفر، بين أيدينا خطر، ما لنا لا نحذر ؟! هل لنا من مفر ؟! لا ملجأ من الله ولا وزر، إلى الله المستقر، العاقل من ترك ما يهوى، لما يخشى . وفي ذلك يقول، بعد الصلاة على الرسول:
سبحان ذي الملكوت أتت ليلة .... محضت بوجهِ صباحِ يومِ الموقف
لو أن عينا أوهمتها نفسها .... أن المعاد مصور لم تطرف
حتم الفناء على البرية كلهم .... والناس بين مقدم ومخلف

(297/2)

[الراغب]
قال الوافد: صف لي الراغب ؟
قال العالم: قَلَّ الراغب، وترك الواجب، ما لله طالب، ولا لعذابه راهب، ولا في ثوابه راغب، ولا عن الذنوب تائب، ولا فتى نفسه لله واهب، بل مدعي كاذب، تارك للحق مجانب، مهمل للسنة والواجب،

معانق للخلاف مواضب، مشغوف بالدنيا طالب، إن البكاء على أمثالنا واجب، قبل الوقوع في العذاب الواصب، بين الحيات والعقارب، نفسٌ من الباب طريد، وقلبٌ من النشاط شديد، وعملٌ من المريد بعيد، كأن الفؤاد، صخر أو حديد.

أيها القلب الشديد، أما يكفيك الزجر والتهديد ؟! أما سمعت الوعد والوعيد ؟! ليلك عطالة، ونهارك غفلة، ودهرك مهلة. أليس لك من الجهل نُقلة ؟ (أيُّ عذر لك غدا أو أي علة ؟! إلى متى العمل والزلة ؟! والمودة في غير الله والخلة ؟!)، أما تخاف موقف الذلة، إذا عرفت عملك كله، وعرضت على عالم التفصيل والجملة، أي ليلة لك وأي يوم ؟! وأي صلاة لك وأي صوم ؟! إلى كم الغفلة والنوم ؟ إلى كم تتبع عادات القوم ؟! إلى كم تحوم في المعاصي حوم ؟! كأني بك وقد وقفت في موقف اللوم ؟! على أي عهد لله أوفيتَ، على أي وعد لله قمت ؟! على أي توبة نمت، أي صلاح إليه رمت ؟! هل صليت لله مخلصا أو صمت، هل قعدت في رضى الله أو قمت.

كأني بك وقد ندمت على إضاعتك، (أيّ معصية لله تركت، أيّ طاعة لله سلكت، أيّ هوى لنفسك لله خالفت، أيّ ليلة سهرت لربك، أيّ يوم صمت منه خوف ذنبك، هل أعملت في جوف الليل فكرك، قد أذنبت فهل اعتذرت، قد أجرمت فهل ندمت، وقد أضعت فهل أطعت، قد هربت فهل طلبت ؟ تقوّلت وتخرَّفت، وتوانيت وسوَّفت، وبارزت وخالفت، وعصيت وجاهرت)، وتأسفت على ترك طاعتك، وبكيت عند هجوم ساعتك، وخسرت في تجارتك وبضاعتك، ولم تنتفع بفصاحتك وبراعتك، وذهب ما كان من قوتك وشجاعتك.

(298/2)

[الرحمة]

قال الوافد: قد وعدنا الله بالرحمة في كتابه ؟

قال العالم: ؟ إن رحمة الله قريب من المحسنين ؟ [الأعراف: 56]. إذا عملت بالرضى، عفى عنك ما مضى، وحرم لحمك على لظى، (وإن لم تعمل بالرضى، أخذك بما بقي وما مضى، وأحرقك بنار لظى)، إذا نظر ستر، وإذا رحم غفر، عظيمٌ فضله، صادقٌ قوله، عليم، رحيم، بالكرم موصوف، وبالرحمة معروف، العبد ينشره، والرب يستره، يكافئ، ويعافي، ويشفي عبده، ويوفي وعده، كم قبيحٍ فعلناه ستره، وكم رزق لنا يسَّره، اقرع بابه، تجد جوابه، اقرأ كتابه، يبن لك عتابه، ارجع إليه يمنُ بالقبول، واقرب إليه يُحسن بالوصول، ما ضاع مَن قصده، وما جاع مَن عبده، ولا خاب مَن أمَّله، ولا خسر مَن عمل له، بابه لا يُغلق، وحكمه لا يُسبق، وجاره لا يَفرق، القلوب من خوفه تفرق، والصدور من هيبته تفلق، والرجاء بعفوه يعلق.

من ناجاه أنجاه، ومن اتقاه وقاه، (ومن أوفاه وفَّاه، ومن أطاعه أعطاه)، مَن التجأ إليه نصره، ومَن

استغنى به ستره، ومَن قصده قَبِلَه، ومَن وَحَّده أجلَّه، وَمن عبده فضَّله، من تاجره أربحه، ومَن أمَّله فرَّحه، من سأله منحه، ومن شكره [شكره، ومن ذكره]ذكره، مَن استهداه وفَّقه، ومَن توكل عليه رزقه، ومَن أمَّله صدقه، ومن تعزز به أعزه، من استغنى به أغناه، ومن سأله أعطاه، ومن تولاه والاه، ومن استأنس بذكره لم يخب، ومن تخلا لطاعته نال ما يحب، إليه المفر، وعنده المستقر، مَن للفقير إلا الغني، مَن للضعيف إلا القوي، مَن للذليل إلا العزيز العلي، مَن للعبد إلا سيده، وأين يوجد إلا عنده.

قال الوافد: كأني بالقيامة وقد قامت!

(299/2)

قال العالم: كأني بالشاب المليح، وهو في النار طريح، ثاوي يصيح، بمقامعها جريح، (يطلب الراحة لا يستريح، بين أطباق العذاب يصيح)، كم من شيخ كبير، في العذاب المستطير، لم تُرحم شيبته، ولم تُكشف كربته، ولم تقبل معذرته، قد أُطعم الضريع، وسُقي الحميم، وعُرِّي وجُرِّد، وقرِّب للعذاب ومُدِّد، وضرب بالمقامع وتُهُدِّد، وغُلِّل بالسلاسل وقُيِّد، ونزل في أدراك النار وأفرد، وطُرد من الرحمة وأبعد، وبُسط له في النار ومُهِّد، وغُلظ عليه العذاب وجُدد، (ومُزق جلده بالسياط وبُدد، وصُب عليه العذاب وخُدد).

فالويل له من توابيت النيران، وغضبِ مالك الغضبان، يقول له: هذا جزاء ما أذنبت وعصيت، وأخطأت وتعديت، وسوفت وتوانيت، لم تنته من العيب، ولم تتعظ بالشيب، (بالمعاصي جاهرت، وبنفسك خاطرت، والصلاح أظهرت، والفساد والنفاق أسررت)، هذا جزاء من أظهر الصلاح وأضمر الفساد، هذا (جزاء من أساء وظلم العباد)، هذا جزاء من ترك صلاته وأطال الرقاد، هذا جزاء من كان للمسلمين كثير العناد، (هذا جزاء من نافق وقسي منه الفؤاد)، هذا جزاء من أضاع الصلاة ولم يهتم بها في الأوقات، هذا جزاء من تركها واتبع الشهوات، هذا جزاء من عصى الله في الخلوات.

قال الوافد: كيف يستريح في الدنيا من وعد بهذه المصائب ؟

قال العالم: من ارتكب المحارم، واكتسب المآثم، دخل هذه الدار، وخُلد في عذاب النار.

(300/2)

يا من عصى الملك العلام، وخلا بالمعاصي في الظلام، يا من ذنوبه لا تحصى، وعيوبه لا تنسى، وذنبه لا يعفى، وقد برح الخفاء وكثر الجفاء، إخسأ فيها يا مطلوب يا مكروب، يا كثير الذنوب، أفسدت في الدنيا دينك، وضيعت فيها حظك، يا كثير القبائح، يا عظيم الفضائح، يا كثير الرياء، يا قليل الحياء، (يا مغرور، يا من عطل الأيام والشهور، يا من ركب الشرور، يا من جعل ليله لكسب الذنوب والأوزار، يا من عصى الملك الجبار، يا من بارز الخالق في وقت الأسحار، يا من يصبح عاصيا، ويمسي ناسيا، ويصلي لاهيا، أصبحت من رحمة الله قاصيا)، يا مغبون يا مثبور، يا من اطمأن بدار الغرور، يا من قَدِم غير معذور، ما حجتك في يوم النشور ؟ ما أتركك لصلاحك! ما أغفلك عن أخذ زادك! مهلا عن التفريط، مهلا عن التخليط، مهلا قبل البين والفراق، يوم تلتف الساق بالساق، قبل مجيء ما لا يطاق.

قال الوافد: يا عجبا من هذه الدنيا ما أمكرها! ما أخدعها، ما أخورها، ما أدبرها! ما أقل نفعها! ما أكثر ضرها! (تحلو وتُمِر، ما للدنيا بقاء، ما للدنيا وفاء، الدنيا بلاء، لا يجمعها ذوتقى، ما أكثر تخليطي، ما أكثر تفريطي)، ما أغفلني عن أعمالي، ما أقبح أفعالي، إلى كم أغتر بآمالي، كم أُخوَّف ولا أخاف، كم أُعرَّف ولا أعرف، كم أصر على الذنوب ولا أنصرف ؟! كم يمهلني ربي ولا أعترف ؟! إلى متى أقول: عسى وسوف ؟! وأدخل الحرام الجوف، أدخلت في قلبي الظلمة، غفلت عن الطاعة، وكفرت بالنعمة، نسيت الجريمة، واستعملت النميمة.

(301/2)

قال العالم: اعترف بذنبك، وارجع إلى ربك، واندم على فعلك، ولا تستقل القليل، ولا تنم الليل الطويل، فإن أظلم الناس من ظلم نفسه، وأضيع الناس من ضيع يومه وأمسه، وأسرق الناس من سرق من صلاته، وأبخل الناس من امتن بزكاته، أذل الناس من أساء عمله في خلواته، أجلد الناس من غلب شهواته، أغفل الناس من ضيع حياته، أندم الناس مَن عطَّل ساعاته، أقوى الناس من مات على التوبة، رأس مالك في الدنيا الطاعة، التقى أفضل بضاعة، من أمَّل الله أعطاه، من سأل الله بلَّغه سُؤله ومناه، أسلمُ الناس مَن خملَ ذكرُه، وكثر شكره، من رضي بالقضاء، سلا عما مضى، كيف لا يهتم ولا يغتم ؟! من لا يدري العمل بما يختم، كيف يهناه رقاده ؟! كيف يتوسد وساده ؟! كيف يُسكن نفسه وفؤاده ؟! وهو لا يدري أَمِن أهل الشقاوة أم من أهل السعادة ؟! (كيف يسكن إلى الدار والجار ؟! ويقر به القرار ؟! ويأكل في الليل والنهار ؟ من هو موعود بعذاب النار، وغضب الجبار).

[قال الوافد: ما أعمل كي أنجو من النار] ؟

قال العالم: لا تقصر في عمل الأخيار، ولا تسلك سبيل الفجار، ولا تكسب الأوزار، وأطع ربك في الليل والنهار، (ولاتأمن فتغتبن، ولا تجمع فتفتتن)، تجوَّع ولا تشبع، وتورَّع ولا تطمع، وخف واحزن،

فمنزلك القبر وثوبك الكفن، كيف يلهو بالملاهي ؟! مَن بين يديه الدواهي، كيف يكتسب الآثام ؟! من وُكِّل به الملائكة الكرام، وكيف يضحك ويفرح ؟! من عليه غداً يُصرخ ؟! وللدود والهوآم يطرح، كيف يفرح ويسترّ ؟! من يموت ويقبر.

(302/2)

[محاسبة النفس]

قال الوافد: مالي لا أخفف حملي ؟! مالي لا أخفف شغلي ؟! مالي لا أترك جهلي ؟ مالي لا أتبع عقلي ؟! مالي لا أجتهد ؟! مالي لا أجد ؟! مالي لا أخدم ؟! مالي لا أحزم ؟! إلى متى الرقاد ؟! إلى متى السهاد ؟! (إلى متى أخالف ما أعلم ؟ أما أعلم أني إلى الله أقدم ؟! أين الحزم، أين العزم ؟ أين الجهد ؟ أين القصد ؟ ما هكذا يكون العبد)، إلى متى أنقض العهد ؟! (إلى متى أخلف الوعد) ؟! إلى متى أقول غداً أو بعد غد ؟! أما أعلم أن مسكني اللحد ؟! ما أقسى فؤادي! أنسيتُ معادي ؟! ما أقل زادي! قرب سفري! ركبت خطري.

الآن تَخلِق الجِدَّة، الآن تنتهي المدة، الآن ينزل الموت، الآن يقع الفوت، الآن يُسمَع الصوت، الآن يُغلق الباب، الآن أفارق الأحباب، الآن أنقل إلى التراب، الآن أحضر إلى الحساب، الآن أعاين البلاء، مالي لا أنتهي عن الهوى ؟! مالي لا أتبع الهدى ؟! لا بد من سفر، لا بد من خطر، لا بد من موت، لا بد من فوت، لا بد من العرض على الملك الفرد، لا بد من القبر، لا بد من الحشر، لا بد من النشر، لا بد من حسرة، لا بد من عبرة، لا بد من زوال، لا بد من ارتحال، لا بد من الجزاء على الأفعال.

خنت بالعينين، أصغيت بالأذنين، أخذت الحرام باليدين، مشيت إلى المعاصي بالرجلين، حركت بالكذب الشفتين، قطعت الرحم وعققت الوالدين، أعرضتُ عن مولاي وتبعت هواي، نسيت ما بين يدي، غفلت عما أساق إليه، لم أذكر مَن أُعرض عليه، (كأني وقد عدمت نظر العينين، وسمع الأذنين، وبطش اليدين، ومشي الرجلين)، كأني وقد مُنعت الخطاب بلساني، وسُلبت القوى من أركاني، ونُزع روحي وأُدرجت في أكفاني، فويلي من ملائكة يشهدون عليّ بما صنعت، ويحفظون ما ضيعت، فيا كربتاه، واغُمتاه، ويا حُزناه، ويا غُصتاه، ويا شَجناه، ويا غُبناه، ويا سوء حالتاه.

وأنشد يقول:

(303/2)

وصحيح أضحى يعود سقيما .... وهو أدنى للموت ممن يعود

وصبي من بعدهم لحقوهم .... ضل عنهم نزولهم والصعود

أين أهل الديار من قوم نوح .... ثم عادٍ من بعدهم وثمود

بين ما هم على النمارق والد يباج .... أفضت إلى التراب الخدود

ثم لم يَنقضِ الحديث ولكن .... بعد ذاك الوعد ثم الوعيد

فأجابه العالم وهو يقول:

أفنيت عمرك إدباراً وإقبالاً .... تبغي البنين وتبغي الأهل والمالا

فالموت هول فكن ما عشت ملتمسا .... من هوله حيلة إن كنت محتالاً

فلست ترتاح من موت ومن نصب .... حتى تعاين بعد الموت أهوالا

أملت بالجهل عمراً لست تدركه .... والعمر لا بد أن يفنى وإن طالا

كم من ملوك مضى ريب الزمان بهم .... قد أصبحوا عبرا فينا وأمثالا

(304/2)

[الصلاة معراج المؤمن]

قال الوافد: حد لي الصلاة يرحمك الله ؟

قال العالم: الصلاة صلة بين العبد والرب، وستر للعيب وكفارة للذنب، الصلاة صلة بلا مسافة، وطهارة كل خطيئة وآفة، الصلاة مواصلة ومصافاة، ومداناة ومناجاة، المصلي يقرع باب الله ويطمع في ثوابه، وهو على بساط الله عز وجل.

إذا كبر العبد تكبيرة الإحرام، تساقط عنه الأوزار والآثام، وإذا توجه العبد إلى القبلة، فقد أبدى من نفسه الخضوع والذلة، واتبع الشرع والملة، إذا أخلص العبد في الصلاة بنيته، كفر الله عنه ذنبه وخطيئته، وأجزل له عطيته، وإذا أخلص العبد القراءة والتلاوة، سطع في قلبه النور والحلاوة، وإذا قرأ الفاتحة، أدرك الصفقة الرابحة، وإذا أتبعها بالسورة، كثر في الآخرة سروره، وكفاه الله محذوره، وإذا انحنى للركوع، فقد أظهر لله الخضوع، وإذا قام للإعتدال، فقد نفى عنه الإشتغال، وإذا هوى للسجود، فقد خرج من الجحود، واستحق من الله الجود، وإذا تشهَّد على التمام، سلَّمت عليه الملائكة الكرام، وبشروه بدار السلام.

الصلاة شرح الصدور، وفَرَجٌ من جميع الأمور، الصلاة نور في الفؤاد، وسرور يوم المعاد، الصلاة للقلوب منهاج، وللأرواح معراج، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتؤمِن صاحبها من نكير ومنكر، الصلاة تغني من الإفلاس، وتُلبس العبد الإيناس، الصلاة قرة العين، وجلاء الرَّين، المصلي على بساط المولى، يناجي الملك الأعلى.

الصلاة ضياء في الصدور، وفسحة في القبور، وبهاء في الحشر والنشور، الصلاة تُجوِّز على الصراط، وتورث في قلب صاحبها النشاط، الصلاة تنزع قساوة القلوب، وتكفر الذنوب، الصلاة تسهل العسير، وتمحو الذنب الكبير، الصلاة توسع الأرزاق، وتطيب الأخلاق، الصلاة تقرب العبد إلى المولى، وتؤمنه من البلوى . من لزم المحراب قرع الباب، ومن قرع الباب أتاه الجواب، صحة الإرادة، لزوم المساجد للعبادة.

(305/2)

الصلاة تخفف الأوزار، وتؤمن من النار، أقرب ما يكون إلى ربه مَن سجد وقام، وزكى وصام، لو علم المصلي مَن يناجي لما التفت في صلاته، من سهى في صلاته فقد ضيع أشرف أوقاته.

اخضع لربك في الصلاة ذليلا .... واذكر وقوفك في الحساب طويلا

لو علمت بين يدي من تقوم، كنت تلازم بابه وتدوم.

عجبا لمن يناجي القاهر! كيف يُخطر في قلبه الخواطر، ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل، ولا تُرفع صلاته إذا غفل، عفِّر وجهك بالتراب، فلعله يفتح لك الباب، أحضر في الصلاة باطنك، كما أحضرت ظاهرك، طهِّر قلبك، كما تطهر ثيابك.

عجبا ممن يسأل الخلق! وباب مولاه مفتوح لكل سائل! عجبا ممن يتذلل للعبيد! وله عند سيده ما يريد، من أطال الله القيام، أزال عنه الأوزار والآثام، من أخَّر الصلاة عن الأوقات، من غير علة من العلات، حرم الخيرات والصالحات، مَن ترك الصلاة إلى الليل، حلَّ به الذل والويل، من حافظ على الصلوات، تتابعت عليه الخيرات، ورُفعت له الدرجات، وصُرفت عنه النقمات.

من لم تكن الصلاة من باله وعزمه، لم يُبَارَك له في رزقه وتركه الله بهمِّه، مَن ضيَّع صلاته لم تقبل حسناته، وكثرت عند الموت سكراته، من غفل عن الصلاة والذكر، ضيق عليه في القبر، الصلاة عمود الدين، وتمامها صحة اليقين.

(306/2)

[قيام الليل]

قال الوافد: ما للذي يقوم الليل ؟ صف لي ثوابه ؟

قال العالم: من قام الليل وسهر، نجاه الله من الأمر العسر، من خاف البيات، لم تغلبه السيئات، من حذر الحِمام، شرد عنه المنام، من اغتنم الليالي والأيام، لم يقطعها بالبطالة والمنام، (من أطال

الرقاد، فقد طمس النور من الفؤاد، من دام رقاده، عدم مراده)، مَن أَلِفَ الوطا والمهاد، خرج إلى الآخرة بغير زاد، مَن تعوَّد الوسادة، لم يؤد حق العبادة، من خاف اللحد، لم ينم على الخد، من عصى مولاه، كانت الجحيم مأواه، من فزع من يوم القصاص، تضرع إلى ربه بالإخلاص، من تحقق أن الرب مطلع في المعصية عليه، أسبل الدموع على خديه، من علم أن إلى ربه مرجعه، هجر في الليل نومه ومضجعه، من تحقق أن إلى ربه الرجوع، أكثر من السجود والركوع، (من تفكر في قبيح الرجوع، شرد عن عينيه الهجوع، وأسبل من مقلتيه الدموع)، مَن علم أنه مأخوذ مطلوب، كان له في الليل تهجد وهبوب، (من عرف عصيانه، داوم أحزانه، من داوم أحزانه، لم تنطبق بالليل أجفانه)، من غلب على قلبه الحزن، منع من عينيه الوسن، من تحقق الإفلاس، شرد عنه النعاس، من علم أن الله يدعوه، لم يزل يخافه ويرجوه، فإن الله تعالى يقول: (هل من داع فأجيب ؟ هل من مطيع فأثيب ؟ هل من متقرب فإني منه قريب ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأُفضِل عليه، هل من متوكل فأسوق الرزق إليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من مستعين فأعينه ؟ هل من مستجير فأجيره).

يا أهل الليل أبشروا بالسرور والجمال، يا أهل الليل كفيتم جميع الأهوال، (يا أهل الليل أمنتم الأفزاع والأشغال)، يا أهل الليل تقر أعينكم عند انقضاء الآجال، يا أهل الليل أكثروا التضرع والإبتهال، فقد اطلع عليكم الكبير المتعال، يا أهل القرآن تهجدوا بالقرآن، يا أهل القرآن معكم الدليل والبيان، من سهر الليل وقام، وتجوَّع بالنهار وصام، كان مقامه في الآخرة خير مقام.

(307/2)

يا أهل الليل قد أغلقت الملوك أبوابها، وطاف عليها حجابها، وطلبت كل صحبة أصحابها، وأرخى أهل المعاصي أستارها، وأنا الملك الجبار، (العزيز الغفار الستار، أعطي عبادي، وأزيد أهل ودادي، ومن يختار على مراده مرادي)، أقول: يا عبادي، يا أهل ودادي، أبشروا بودادي، والثواب في معادي.

قال الوافد: ما أجرأ العباد على المعاصي! فلم يخافوا الأخذ بالنواصي. كم تغفل وتنام، وتظلم الأيتام، كأني بك وقد عافصك الحِمام، وأنت غافل في ألذ منام، يا من هو مقيم على القبائح والآثام، أما تخاف انقطاع الأيام، وحلول الحِمام، وشهادة الملائكة الكرام ؟!

قال العالم: في الليل يقرع باب الوهاب، في الليل خلوة الأحباب، في الليل تقبل توبة من تاب، في الليل يستغفر مَن بهت واغتاب، في الليل يُعمر القلب الخراب، في الليل يأتي الجواب، الليل لأهل الصلاة والمحراب.

يا أهل الأسحار لكم الأنوار، (يا أهل الليل خففت عنكم الأوزار، يا أهل الليل أبشروا برضى

الجبار، ومرافقة الأبرار، يا أهل الأسحار)، أَقبِلوا على الإستغفار، في صلاة الليل، النجاة من الويل، في المناجاة نجاة، في الصلاة صِلاة، هلموا فهو ذو الإجابة، أقبِلوا فهو ذو الإنابة، اعملوا بالصواب، يفتح لكم الأبواب، (أطيعوا فهو يضاعف لكم الثواب).

سلوا الأمان، يا أهل الإيمان، تضرعوا إلى الحبيب، فهو من المتضرعين قريب، ارجعوا إليه يكن لكم من كل خير نصيب، السهر السهر، يا من هو على سفر، الإدلاج، يا طالب المنهاج، البكور البكور، يا من يريد السرور، الأسحار الأسحار، يا من أكثر الأوزار، (الضراعة الضراعة، يا من كثر منه الإضاعة).

(308/2)

[فضل الصيام]

قال الوافد: صف لي فضل الصيام، والإقلال من الطعام ؟!

قال العالم: أكثر الصيام، تسلم من الآثام، أقل من الطعام تسبق إلى القيام، من شبع من الطعام، غلبه المنام، ومن غلبه المنام، قعد عن القيام، الشبعُ يظلم الروح، ويترك القلب مقروح، الجائع عفيف خفيف، والشابع عاكف على الكنيف، من كان شابعا، كان للشيطان متابعا، الشبع يكسب الوجع، ويذهب الورع، ويكثر الطمع.

ألا إن الصوم جُنَّة من النار، ورضى للجبار، من أطاع ضرسه، أضاع نفسه، التَّجوُّع في الفؤاد نور، وفي المعاد سرور، من استعمل القصد، استغنى عن الفصد، من قنع شبع، ومن شبع طمع، من أشفق على نفسه، لم يتبع شهوة ضرسه، من أطاع أسنانه، هدم أركانه، كم من طاعة، نبعت من مجاعة، وكم من قناعة، أتت بخير بضاعة، لا مجاعة مع القناعة.

(309/2)

[مراقبة الله]

قال الوافد: صف لي المراقبة ؟

قال العالم: من راقب الله في الخلوات، أجاب له الدعوات، المراقبة، تورث المحاسبة، راقِب مولاك في الليل إذا دجاك، وفي النهار إذا أضاك، يعصمك من هواك، اذكر نظر الله إليك، ولا تنس اطلاعه عليك، أما تعلم أن الرب إليك ناظر ؟! وعليك في كل الأحوال قادر ؟! أما تعلم أن مولاك يراك ؟! ويسمع سرك ونجواك ؟ ويعلم منقلبك ومثواك ؟ أرخيت عليك الأستار، وأخفيت ذنوبك عن الجار،

وبارزت الجبار بالمعاصي الكبار، وجمعت الذنوب والأوزار، وشهد عليك الليل والنهار، والملائكة الحضَّار.

أما تخاف عقوبة الجبار ؟! والخلود في النار ؟ إلى كم تستتر عن أعين الناظرين ؟ وقد شاهدك أقدر القادرين ؟ كم تخاف من المخلوق وتستخفي ؟ ولا تخاف الخالق ولا تستحيي، كم تنقض العهود ؟ وتستخف بالشهود، كم تجتريء على المعبود ؟ ويعود عليك ولا تعود ؟ كم رآك على المعاصي وستر، واطلع منك على القبائح وما نشر، وغطى عليك وما شهر، أما تذكر قبائح أمرك ؟ أنسيت فضائح سرك ؟ أما تخاف من ذنوبك ؟ أما تزدجر عن عيوبك ؟ أغفلت عن الداهية ؟ ولم تخف الهاوية. أأمنت من لا تخفى عليه خافية ؟! وقد اطلع عليك مراراً، وأسبل عليك أستاراً، (وبارزته غير مرة فستر وعفى، ونقضت ما عاهدته عليه ووفى).

ولو شاء لأمطر عليك الحجارة من الهواء، وسلب منك العطاء، وكشف عنك الغطاء وشهرك لعباده، وضيق عليك بلاده، وبدل اسمك، وغير جسمك، هب أنه ستر عليك في الدنيا، ماذا تعتذر إليه في العقبى ؟ هب أنه تجاوز وعفا، وقد نقضت ما عاهدك عليه ووفى، ألم تستح من خالق الأرض والسماء ؟ ألم تستح من الحفظة الكرام ؟! ألم تخف من لا ينام ولا يضام ؟! يا حياه من قلة الحياء!!

وقال في ذلك :

يا من شكى حافظاه خلوته .... حين خلا والعباد ما فطنوا

لم يهتك الستر إذ خلوت به .... بر لطيف كفاله المنن

(310/2)

[الانفاق والبخل]

قال الوافد: صف لي فضل الإنفاق وقبح البخل ؟

قال العالم: ما لَك من مالِك إلا ما لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأبقيت، وسوى ذلك وبالٌ عليك، من صان فلسه، أهان نفسه، من حبس درهمه، جمع في القلب همه، البخل أدوأ الداء، والكرم أنفع الدواء، ما ثقل في الميزان، مثل الإحسان إلى الإخوان، والنجاة في قراءة القرآن، ما أحبط العمل، بمثل التغافل والنسيان والكسل، من لزم السماحة، لم يعدم الراحة، البخيل في الدنيا مذموم، وفي الآخرة من الخير محروم، تُملك البلاد بالفرسان، وقلوب العباد بالإحسان، مَن بذل ماله، نال آماله، من جاد بكسرته، فقد بالغ في مروءته، من أخرج فضل الأموال، نجا في الآخرة من الأهوال.

(311/2)

[جهاد النفس]

قال الوافد: كيف أصنع بالنفس حتى ترجع عن شر عادتها ؟

قال العالم: لا ترجع النفس عن عادتها أبداً، وليس منها إقلاع ولا رجوع، إلا بالقهر والغلبة والجهد والخوف، وبالعلم والمعرفة والزهد تحبس النفس عن شر عادتها، ولا يُدرك ذلك منها إلا بصدق الإرادة، والصبر والمعالجة، وكثرة الخوف والعمل بالصواب، فإذا ظفرت بها حتى تردها إلى طاعة الله ورضاه، ووُفِّقت لذلك فاشكر الله، واعترف له بالطاعة إذ جعل ذلك بتوفيقه لك.

فينبغي لك من بعد ذلك أن تقلع عن الهوى، وتصم أذنه، وتخرج التخاليط والآفات من أماكن مزرعها، وتغلب هواك وتحذر النسيان والغفلة، ووسوسة الشيطان، وسرعة العجلة وتأخير الخير، وتحذر التواني والعجز.

واعلم يقيناً أنك لا تظفر بذلك من نفسك إلا بالقهر، وتمنعها من الرغبة والحرص والكبر، والرياء والحسد، والرياسة والبخل، وطول الأمل، والتقلب في طلب الشهوات، ومحبة الدنيا، والتصنع للناس والمحمدة منهم، وترك الغش والخيانة، وخوف الفقر، والطلب لما في أيدي الناس، ولا تنس الموت، واترك الغفلة والشح والسفالة والسفاهة.

فإذا نصرت على ذلك وأنفيته عن نفسك، فاشكر الله كثيراً فقد شكر سعيك، فعند ذلك تصح أعمالك، غير أن النفس لا تصلح حتى تكدها، وتقهرها وتجهدها، لأنها أمَّارة بالسوء والفحشاء، وبالشر والفتنة والآفات مولعة، وهي خزانة إبليس، منها خرج وإليها يعود، وهي تزين لصاحبها تسعة وتسعين باباً من أبواب الطاعات والخير، لتظفر به في كمال المائة، فكيف يسد السبيل العريض من لا يعرف مجراه ؟! وكيف يعرف ذلك من لا يعرف عدوه ودنياه ؟ وكيف يعرف عدوه ودنياه من لا يختلف إلى العلماء ؟ ولا يخالط الحكماء، ولا يجالس الصالحين.

(312/2)

فإذا أردت النجاة فتعلم العلم من العلماء، وخذ الحكمة من الحكماء، ولا تشد على نفسك مرة وترخي أخرى، ولكن أقبل إليها بعزم صحيح، وورع شحيح، وصبر ثخين، وأمر متين، حتى تمنعها عن شهواتها، وترجعها عن شر عاداتها.

ثم اجمع أطرافك إلى وسطك . أعني إلى قلبك . وهو أن تحكم القلب على الجوارح، ولا تُحكِّم الجوارح على القلب، ولا يتم لك عمل ولا يخلص لك إلا بهذه الصفة.

فالعين تغمضها عن الحرام، فإنها جاسوس القلب، ثم الأذنان تمنعهما أن يوعيا الشر والخنا والنمائم والكذب، ثم اللسان خاصة، نزهه عن الكذب والغيبة والمجادلة والفضول والمقاولة والشبهات، فإنه معدن قرارة النفس، وهو ترجمان القلب. ثم البطن فاحفظه لا يدخله الحرام والسحت والشبهة

والشهوات، فإن نور القلب وصفاه من طيب طعمة البدن وخبثها. وأما الفرج فما دمت حابساً لبطنك من الإمتلاء والشبع، فأنت قادر على حفظه.

(313/2)

[المريد]

قال الوافد: كيف يكون المريد للعبادة ؟

قال: يكون قلبه يجول في الملكوت الأعلى، ثم يمنع نفسه من الرجوع إلى شر عادتها وشهوتها، فإن لم يكن كذلك فإنه مغرور فيما هو فيه، وغير مستحق لما يدعي، ومحال أن يطير الطائر في الهوى، وهو مربوط بحجر ثقيل، كذلك القلب محال أن يصعد في الملكوت الأعلى وهو مربوط بالآفات، محفوف بالرغبة في الدنيا، مشغول بالتزين والتنقل في الشهوات، والغفلة عن الطاعات، وقلة الخوف لما هو آت.

(314/2)

[مقام الأولياء]

واعلم أن مقام أولياء الله، لا يقوم به إلا من عَمِل عَمَل الصالحين، وهو الإجتهاد في الطاعات، والإنتهاء عن الشبهات، وترك الشهوات، والتوكل والتفويض، والزهد والتسليم، والإعتبار والتفكر، والورع والذكر، والخوف والخلوة، والقرب والمعرفة، والحب والإخلاص واليقين، والصدق والخشية والرجاء، وجميع ذلك لا يكون إلا من القلب الطيب الصافي الرقيق، التارك لحطام الدنيا وعنائها، فإن الله يُقبل على عبده بالجود والعطاء، ما دام العبد مقبلاً على صفاء عمله، لا يولي إلى غيره.

فإذا خيَّلتْ لك نفسك أنك من الصالحين، فحقق ذلك بخمسة أشياء، واختبر بها نفسك، وهي:

. الأخذ والعطاء.

. والفقر والغناء.

. والعز والذل.

. والمدح والذم.

. والموت والحياة.

فإذا وجدت قلبك يميل إلى واحدة منهن دون الأخرى، فاعلم أن الذي أنت تزعم باطل، وهذا من تخيل النفس، وأنت مغتر فيما تدعي، لم تنل شيئاً مما ناله البررة الصادقون.

واعلم أن لكل شيء حقيقةً، ولكل صدق علامة، فحقيقة المعرفة معرفة النفس، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه، وحقيقة الصدق الإنقطاع إلى الله ورفض الدنيا، فمن عرف ربه عَبَدَه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، فمن عرف الله أحبه، ومن أحبه لم يعصه، وعمل بما يرضيه، وإن نعيم المحب العارف ساعةً واحدة أكبر وأجلى وأطيب وأعلا من نعيم أهل الدنيا بنعيمهم، من يوم خلقهم الله إلى أن يفنيهم، وإن الله رفيع الدرجات ذو العرش له الدنيا والآخرة، حبيبهم به يستأنسون، وعلى بساط قربه يتقلبون، وفي جزيل كرمه يتنعمون، وبذكره يتلذذون، وبالوصول إليه يفتخرون، قد وعدهم من جزيل عطائه، وسعة رحمته، ومكنون فضله، ما يعجز عنه الواصف، ورضي عنهم وأرضاهم، أولئك الذين لا يشقى جليسهم، ولا تُرد دعوتهم، يدورون مع الحق حيثما دار، والأرض بهم رحيمة، والجبار عنهم راضٍ، جعلهم الله بركة أرضه، ورحمة على عباده، فطوبى لهم وحسن مآب.

(315/2)

[الصادق المجتهد]

قال الوافد: صف لي الصادق المجتهد ؟

قال العالم: هو الذي لا يعجز عن الإجتهاد فيما يقربه إلى الله، في تحريكه وسكونه، وكلامه وقعوده وقيامه، ثم يجعل اجتهاده من جميع جوارحه، ثم يجعل تحريك لسانه، وإستماع أذنه، وبطش يده، ومشي رجله، وأخذه وعطاه، ونومه ويقظته، وجميع ما يكون منه في ليله ونهاره، يصدق بعضه بعضاً، (ثم يجعل طعامه وشرابه، ولباسه، وجوعه وعطشه، وقيامه وقعوده، وشبعه وريّه، يوافق بعضه بعضا)، ويجعل جميع ذلك صدقاً منه، وقصداً إلى ما يوافق إرادته، وليكن ذلك من خالص قلبه، فإن فعل ذلك كان صادقاً في إرادته وعبادته، فإن الصادق المحب المستمر في الطاعات، ينبذ الدنيا وراء ظهره، فيظمأ نهاره، ويسهر ليله، ويترك شهوته، ويخالف هواه، ويقصر أمله، ويقرب أجله، ويخلص عمله من الآفات والتخاليط، ويرتعد بدنه من خوف الله، وقد ترك الدنيا عنه، لما عرف مكرها وخاف مضرتها، لم ينظر إليها بقلبه، ولم يمش إليها بقدمه، ولم يبطش فيها بيده، حذراً من شرها وفتنتها، فهو هارب بنفسه حذراً من أهلها، فقلبه غير غافل عن الله، ومداوم على ذكره، وقد عزل عن نفسه كل شغل يشغله عن الله، وأقبل على قلبه، فعمره بذكر ربه، وجعل ذلك صافياً خالصاً لله، فهو خائف وَجِل مرعوب من عذابه، هارب من الدنيا وأهلها، محافظ على عمله، قائم على نيته، فبذلك يهتدي الضآل، ويسلك الطريق، ويستجيب الله دعاءه، ويملكه الله من قصور الجنة، ويزوجه من حور العين، ويخدمه الولدان، فطوبى له وحسن مآب.

(316/2)

[الاخلاص]

قال الوافد: صف لي الإخلاص ؟

قال العالم: إن مثل نور الإخلاص مثل نور الشمس، لو غطى نور الشمس أدنى الغيم والغبار، تكدر من ضوئها على مقدار ذلك الغبار، وإن كانت عين الشمس في ذاتها صحيحة، ذلك مثل الصفا والإخلاص. وكذلك كل عمل يكون أصله لله خآصة فهو له خالص، ثم ربما شَابَهُ شيء من الدنس والكدر، فأحبط عليه عمله.

فالآفات التي تحبط العمل سبع:

أولهن: الكبر.

والثاني: الحسد.

والثالث: الحرص.

والرابع: الرياء.

والخامس: العجب.

والسادس: الشهوة.

والسابع: البخل.

فما دخل على المؤمن من هؤلاء فقد نقص عمله وإيمانه. ومثل ذلك مثل الثوب الجديد الأبيض، يصيبه شيء من الدنس والغبار، فيذهب من نوره وصفآئه وبهآئه بقدر ذلك الغبار والدنس، وإن كان الثوب في الأصل جديداً لا عيب فيه. كذلك مثل الإنسان في صلاته يكون في طهارته محكماً، (وفي ركوعه وسجوده محكماً، فظاهره طاهر، وباطنه محشو من الآفات والتخاليط، فمن خلط فقد اغتر واستعبده الهوى، وزين له شيطانه، وخيلت إليه نفسه الكذب صدقا، والباطل حقا)، ولم يستحق اسم الإخلاص، ولو أن مؤمنا بلغ من كرامته عند الله أن يطير في الهوى، لم يزده ذلك إلا شدة وخوفاً واجتهاداً، وما ازداد إلا خشية، ولا ازداد إلا عبادة وهيبة، وما جعل الله للخالص إلى الرخصة سبيلا، فمن كان لله أعرف، فهو له أخوف، فينبغي لمن أراد الإخلاص في عمله، ألا تسكن روعته، ويكون خائفاً وجلاً حزيناً، وهذا إذا كان الخوف والحزن وافقهما القبول من الله عز وجل. لأن الخوف والحزن ينوران الإخلاص ويزينانه، وكل عمل لم يكن يوجل عليه القلب فقد حفت به الآفات من حيث لا يشعر، لأن لأعمال الطاعات، آفات مختلفات، ليس يعرفها كل مطيع، وذلك أن المطيع ربما هاج منه العجب والرياء والفخر والأمان، من غير أن يعلم بها، فلا يغفل المخلص عن ذلك، في ليله ونهاره، وحركته وسكونه، وذلك مما يدخل عليه من تمويه النفس وتلبيس الهوى.

قال الوافد: صف لي صحيح الإرادة ؟

قال العالم: إذا علم الله من قلبك صحة الإرادة، وإخلاص العمل، أوصلك إلى الخير، وهدى قلبك، ويسر أمرك، وجمع شملك، وهوَّن عليك الصعوبة، وقمع عنك الشهوات، وبغَّض إليك الدنيا، وبصَّرك عيوبها وأدواءها حتى تعافها، وإذا عرف الله منك الصدق والإجتهاد، وعلم أنك لا تختار عليه غيره، قبل الله سعيك، وشكر عملك، وصار اجتهادك تلذذا وحلاوة، فإذا رآك الله تعمل على الحلاوة ولا تتوانى، ولا تختار عليه الدنيا، ولا تتبع هواك، ولا تطلب شهوتك، قبل الله منك عملك، ونثر عليك من صفاء بره، ونشر عليك من محزون رحمته، وكثَّر عليك من عطائه، ومنحك من خزائن جوده، وجزيل مواهبه ومعونته، ماتقر به عينك، وما إذا رأيته زادك اجتهاداً وخوفا وعزما، ونضَّر أثر ذلك عليك، وأورث قلبك النور والتقى والهدى، والشبع من الدنيا، وأغناك عمن دونه، وأعطاك من عطائه، مالم يحسن أن تتمنى قبل ذلك، والله كريم يقبل اليسير، ويعطي عليه الثواب الكثير.

قال الوافد: كيف أخلص العمل ؟

قال العالم: إنك لا تدرك إخلاص العلم إلا بالعزم، ومن كمال العزم قلة التسويف، ولزوم الصدق، وتمام النية، ومن تمام النية إخلاص العمل، ومن إخلاص العمل الصدق، ومن الصدق نقاوة القلب، ومن تمام نقاوة القلب ستة عشر خصلة بعضها على أثر بعض، وهي درجات الصالحين:

- أولها: الإنابة إلى الله سبحانه.
- وترك التزين من نفسك، وترك التصنع للناس، وترك الحسد.
- ورفض الشهوات.
- والزهد في الحطام.
- والتجافي عن دار الغرور.
- والإستعداد للموت.
- والإنقطاع عن الناس.
- والإقبال إلى الله تعالى.
- والإتصال بالذكر.
- وحسن الخلق.
- والرأفة بالمسلمين.
- والإنس بالله في الخلوات.
- والتشوق إلى الله.
- والمحبة لأولياء الله والمحبة له.

- والرضاء بالمقادير التي من عند الله.

- ثم اليقين فإن الله يعطي العبد على قدر يقينه.

(318/2)

[الحياة الطيبة]

قال الوافد: صف لي الحياة الطيبة ؟

قال العالم: اعلم أن الحياة الطيبة لا تدركها إلا بخمسة أشياء:

. أولها: العقل.

. ثم المعرفة.

. ثم اليقين.

. ثم العلم.

. ثم الغنى بما عند الله.

فهذه الحياة الطيبة. فإذا أردتها فعليك بهذه الخصال، فلك في ذلك كفاية. وإذا أردت أن تكون من أهل الصدق في الحياة الطيبة، فابدأ بنفي العادة الخبيثة، وألبس نفسك الصبر والخلق الحسن، (وأزل عن قلبك الذكر الرديء، ولا تشغل قلبك بغير ذكر الله وطاعته، وأمت حرارة الشهوة من نفسك، وليكن الموت عندك أحب إليك من الحياة، فإن الصالحين من قبلك تعاهدوا قلوبهم بالحزن الطويل، والجهد الثقيل، يريدون بذلك رضى ربهم، والتقرب إليه، فإن أحببت أن تسلك طريقهم، وتقفو آثارهم، فحول) نفسك عن الدنيا وزهرتها، وأدِّب نفسك بالجوع، وأذلها بالفقر، وأنِّبها بقرب الأجل، وأبصر بعينيك إلى عرصة القيامة، حتى كأنك تحاسب فيها، فحاسب نفسك قبل ورودك إليها، واقطع نيتك عن كل شغل يشغلك عن الله، وتأدب بآداب الصالحين من قبلك، رموا بقلوبهم نحو خالقهم (وكلما تحولت قلوبهم إلى غيره، حملوا عليها بالزجر، ورجعوا إلى مقامهم، وقصدوا بأبدانهم نحو قلوبهم، جهدا منهم، وأيأسوا أنفسهم عن الدنيا وراحتها)، وعوَّدوا قلوبهم الجهد وكدُّوها في طاعة خالقهم، حتى عرف الله منهم الصدق فآتاهم الفرج واليسر من عنده، وصرف عنهم العادة الردية الخبيثة .

(319/2)

(فإذا أردت أن تكون مثلهم فغمض عينيك عن الدنيا، وأختم أذنيك عن أقاويل أهلها، واصرف قلبك عن زهرات بهجتها)، فانقطع إلى ربك، وأعمر قلبك بذكره، واستعمل لسانك في شكره، واجعل قلبك

مملوءاً من محبته، وتلذذ بطاعته، فإنه يغنيك عن الخلق، ويهون عليك الصعوبة، ويخفف عنك المؤنة، وتصير حراً عن عبودية الدنيا إذا أوصلت حبلك بحبل الله عز وجل، (وتسلم من الأشغال، وتصبح منير القلب، كثير الذكر، لذيذ المناجاة، حريصا على الطاعات، قليل الزلل والخطأ، قليل الغفلة، حسن الفعال، صافي الذكر، قليل الكلام والفضول، واسع الصدر، خلوتك مع الله لا تزول، وأنسك بالله، لا تستوحش إن كنت في القفرة، ويكثر يقينك في قلبك، فبدنك مطيع، ولسانك ذاكر، وكلامك حق، وعملك زين، وسعيك مشكور، وكل شيء منك نور، وكل حركة وسكون منك محمود، قد أعد الله لك النعيم، في جنة النعيم.

(320/2)

[المتقي العارف]

قال الوافد: صف لي المتقي العارف ؟

قال العالم: إن من صفات المتقي العارف، أن يكون غذاؤه ذكر الله، ورأس ماله اليقين بالله، ومطيته الهيبة من الله، ولباسه التقوى، وتحريكه التفويض لأمر الله، وعزمه التسليم إلى الله، وخوفه التعظيم لله، وهو محبوس في سجن الرهبة، مقيد بالحياء، متنعم بالمناجاة، قد أمرضه الشوق، وأشغفه الحب، فهو مستأنس بطبيبه، مُمَكَّن بحبيبه، وله) ورع، لا يشوبه طمع، ويقين لا يشوبه طلب، وانتباه لا تشوبه غفلة، وذكر لا يشوبه نسيان، وعزم لا يشوبه تواني، وتعب لا يشوبه عجز، وعلم لا يشوبه جهل، ورجاءٌ لا يشوبه غِرَّة، ودعاء لا يشوبه فترة، وتفكر لا يشوبه تَوَهُّم، وتوحيد لا يشوبه تشبيه، وتصديق لا يشوبه تكذيب، وتعديل لا يشوبه تجوير. فهذه صفة المتقي العارف.

فعليك بهذه الطريقة فالزمها، وأقبل عليها بقولك وفعلك، (وحركتك وسكونك، وبصرك وظاهرك وباطنك، ونظرك وتمييزك، فإن الخير والبركة بحذاريفها لمن سلك هذه الطريقة.

واعلم أنك إذا صدقَت عليها نيتك، وعلم الله منك المجهود في ذلك، نصرك عليها وظفَّرك بها)، فمن صبر على هذه الصفة أربعين يوماً لا يشوب عمله بالكدرة والتخاليط والآفات، اتقد في قلبه مصباح النور، وانفتح له عينا قلبه، فيبصر بهما إلى جميع الدنيا والآخرة، فيعرف (عند ذلك مصائب الدنيا، ومصائب الآخرة، فيصبر على مصائب الدنيا، ويخاف من مصائب الآخرة، لأن مصائب الدنيا نِعمٌ، ومصائب الآخرة نِقمٌ، فإذا ميز بينهما واعتبر، أقبل على خيرهما عاقبة، وعمل لآخرته بطيبة من نفسه، وانتبه واطمأن، وعرف أن الآخرة خير من الدنيا، وتحصَّن بذكر الله في دنياه، وعمل لعقباه)، فطوبى له وحسن مآب.

قال الوافد: فما يجب عليه بعد ذلك ؟

(321/2)

قال العالم: يجب عليه أن يدعو عباد الله إلى الله، ويعرِّفهم أنهم من ربهم، فيرغبهم ويردهم إلى مولاهم من بعد هربهم منه، ويحبب إليهم خالقهم، ويعلمهم شرائع دينه، ويعرفهم آلاء الله ومنَّه ونعمه، ويلقنهم الشكر، ويرغبهم بالذكر في طاعته، ويحذرهم معصيته، ويريهم تقصيرهم، ويخوفهم هجوم الموت عليهم، ويعلمهم التوبة، ويدلهم على الله، ويعلمهم التوحيد حتى يوحدوا الله ويصدقوه ويعدلوه، وينشر العلم فنشره غنيمة، وذلك فعل الأنبياء والصالحين، ولو سكت العالِم هلك العالم والمتعلم جميعاً.

ومثل العالِم والمتعلم مثل نور الشمس ونور العينين.

افهم لو أن رجلاً بصير العينين بقي في بيت مظلم قد سُدَّ عليه بابه، وهو لا يهتدي إلى شيء فيه مخرجه، أليس يكون متحيراً لا ينتفع ببصر عينيه ما دام البيت مظلماً، حتى إذا فُتح عليه الباب، وخرج ورأى ضوء الشمس، انتفع ببصر عينيه عند ضوء الشمس. كذلك المتعلم يكون في بيت الجهل موثقاً عليه بابه، لا يهتدي إلى الخروج حتى يفتح عليه العالم العارف، لأن المتعلم يستضيء بنور العالم، ويهتدي إلى منار طرقه، ويخرج من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فعند ذلك يكون علمه خالصاً من الآفات، وإنما الجاهل مثل المكفوف البصر لا ينتفع أبداً بضوء النهار، والليل والنهار في الظلمة عليه سواء. كذلك الجاهل لا يعرف ما هو فيه من ظلمة الجهل وعمى القلب، فلا يميز بين الحق والباطل، والجهل دآء وشَين، لا يداويه غير العلم.

والعلم شفاء وزين، لا يدخل معه دآء ولا شين، وليس العلم علم اللسان، المعلق على ظاهر الإنسان، الخالي عن القلب، وإنما مثله كمثل شبكة الصياد التي ينثر عليها الحب للطير، وليس يريد بذلك منفعة الطير، ولكنه يريد أن يصطادها بذلك الحب المنثور على الشبكة.

(322/2)

كذلك عالم السوء لا يريد بعلمه رضى الله، ولكن يريد رضى نفسه ومنفعتها، وقد جعل هذا علمه شبكة، ليصطاد حطام الدنيا، وإنما العلم المنجي علم القلوب المنيرة الصافية الخائفة القانعة باليسير، السليمة من الآفات والتخاليط، (وليس العالم من قد أسكره حب الدنيا، وإنما العالم الذي يعمل للآخرة الباقية، فهو منتظر للنزول والإنتقال، مشغول يخاف أن يفاجئه الموت بحال من الأحوال، فقلبه محزون، وشره مأمون، يجول بقلبه في الجنة أحيانا، وفي النار أحيانا، يخاف أن يكون من أصحاب

النار، ولا يكون من أصحاب الجنة، فليس له همة غير تفتيش الآفات، وكثرة الذكر في كل حركة وسكون)، وكثرة الذكر لله في الحركة والسكون.

(323/2)

[الغافل المتواني]

قال الوافد: صف لي عمل الغافل المتواني ؟

قال العالم: مثل عمله كمثل الصوف المندوف، تراه عظيماً كثيراً، فإذا وزنته وجدته قليلاً، كذلك الغافل الجاهل المتواني، يسر بكثرة عدد أعماله، وليس يعرف إخلاصها، وهو يصلي ويصوم ويزكي ويحج، ويذكر ويعبد ولا نور لعلمه ولا تزكية، ولا إخلاص في قلبه، وكيف ينال البركة والنور وهو غافل ساهٍ ؟! إن قام في الصلاة قام فيها بجسده، وغفل عنها بقلبه، وإن صام تكلم بالرفث والغيبة والكذب، وإن زكى ماله كانت زكاته كأنها مغرم يخرجها لا تطيب بها نفسه، وهو مع ذلك رافع رأسه، شامخ بأنفه، متطاول على الناس، يتمنى على ربه الدرجات العلا، وليس معه من الدين قطمير، ولا معه سكينة تمنعه من كثير ما يهوى، ولا له قوة يكظم بها غيظه، ولا حلم يحجزه، ولا ورع يكفه (ويرده، ولا له إصابة في كثير مما يدخل عليه من الشبهات)، ثم إذا حركته وجدته قليل العقل، أعمى القلب، متزيناً في نفسه، متصنعاً للناس، يرآئي بأعماله وهو لا يعلم، (وهو متكبر في عبادته، ويعلو على الناس وهو) يزعم أنه مخلص، ويزعم أنه متواضع، ثم تراه حريصا راغبا، مكباً على الدنيا، وهو يزعم أنه مأجور على ذلك، قد ارتفع بعمله فوق الخلائق من عجبه به، وربما تراه يتكلم بكلام الخائفين، حتى إذا جربته وحدثته وجدته جاهلا غافلا، فلا يرضى من الخوف بأن يذم نفسه، وربما يعتبر ويتفكر ولا ينفعه ذلك، لأن ذلك لا ينفعه مع غفلته، ولعله يظن أنه من التوابين منذ دهر طويل، ولعل عنده من الروايات والأخبار ما ليس عند أحد من الناس، ثم ليس هو يعرف من عمله إلا الشبهة والكدرة، والزيادة والنقصان، ولا يميز بين شيء من ذلك، فإنه لو جمع فهمه ونظر إلى نفسه، لعرف خطاياه، ثم لو نظر في مطعمه وملبسه وكسبه وحرصه على دنياه لعرف سوء حاله، ولو حفظ على نفسه سعي بدنه وجوارحه، وكثرة ما يخرج من لسانه، لتبيَّن له ما يرد عليه في يوم واحد، ولَعَلِم

(324/2)

جراحة دينه، ثم لو كان صادقا في توكله وانقطاعه إلى ربه، لترك دنياه وعمل لآخرته، ولكان حريصا على طلب الخير، ولحذر على نفسه من سوء الحساب وكثرة الأهوال.

(325/2)

[المتوكل]

قال الوافد: صف لي المتوكل الواثق بربه ؟

قال العالم: عجباً لمن يثق بالمخلوق ولا يثق بالخالق، ومن يهتم بالرزق وقد ضمن به الرازق، ثق بكفاية الله واعتمد عليه، ورد أمورك وأحوالك كلها إليه، من لم يثق بضمان مولاه، وَكَلَه إلى خدمة دنياه، إن الله تعالى يقول : ؟ وما من دآبة في الأرض إلا على الله رزقها؟[هود: 6]. ما أعجب أمرك! تأمن ما دهيت، وتحزن على ما كفيت، ولا تشكر على ما أعطيت.

إلى كم تأسى على المفقود ؟! وقد ضمن الرزق الملك المعبود، إلى كم الحزن على القوت ؟! وقد ضمن القوت الحي الذي لا يموت، الرزق مقسوم، وطالبه مغموم، والحريص فيه مهموم، ومن جعل بطاعة الله اشتغاله، كفاه الله في الدارين أشغاله، من وَكَلَ أموره إلى مولاه، لم يكله إلى أحدٍ سواه، وأغناه وكفاه، وأعطاه وآواه، ومن اعتصم بالله وقاه، ومن استعاذ به أنجاه، ومن أمَّل إفضاله، لم يحرمه نواله، ومن توكل على الوهاب، لم يخضع لأبناء التراب، من عرف الله بالصدق، ساق إليه الرزق، من أيقن أن الله هو المتفضل، لم يكن إلى غيره متوسل، من علم أن الله هو الجواد، سخا بما في يده وجاد، من عرف أن الله هو المعطي، لم يعصه أبداً ولا يخطي، (من عرف أن الله هو الجواد، لم يطلب من غيره المراد، من تيقن أن الله خالق العباد ومالك البلاد، لم يعلق بغيره الفؤاد).

أتظن أن من غذاك في الصغر ؟ ينساك في الكبر! الذي رفع عنك المؤنة وأنت طفل، يأتيك برزقك وأنت كهل، الذي رزقك وأنت مغيَّب جنين، كيف لا يرزقك وأنت تضرع وتستكين ؟! هو سبحانه يرزق مَن جحده، فكيف يضيع مَن وحَّده ؟! يرزق الدودة في الصخرة الصماء والطير في الأوكار، والحيتان في البحار، والوحوش في القفار، فكيف يضيع من يذكره في الليل والنهار، ويسبحه بالعشي والإبكار، ويرزق الجنة والناس، إلى انقطاع الأنفاس، عجباً لمن يرفع حوائجه إلى المخلوقين !!

(326/2)

ولا يطلبها من عند رب العالمين، عجباً ممن يسأل حوائجه من ضعيف لا يسجد له أحد!! ولا يسألها ممن يسجد له كل أحد!! (عجبا ممن يتذلل لمحتاج فقير!! ولا يتذلل للغني الكبير!!)، عجباً لمن

يخضع ويتضعضع للعبد الفقير المحتاج الضرير!! ولا يخضع ويتضعضع للملك القدير!! الذي يعطي الكثير، ويكشف العسير، ويغني الفقير، وهو على كل شيء قدير.

من اتقى الله جعل له من أمره مخرجاً، ومن دعاه بَيَّن له منهجاً وفرجا، أجملوا في الطلب، فما مِن حُكمه مهرب، من أجمل في الطلب، أتاه الرزق بلا تعب، إذا أحرزت رزق غد، فمن يضمن لك بالحياة إلى غد.

لما رأيت الناس يسألون كل معجب، نزهت نفسي عنهم وجعلت حوائجي إلى الرب.

قال الشاعر:

فلا تجزع إذا أعسرت يوماً .... فقد أيسرت في الدهر الطويل

ولا تيأس فإن اليأس كفر .... لعل الله يغني عن قليل

ولا تظن بربك ظن سوء .... فإن الله أولى بالجميل

وقال غيره:

لقد علمت وما الإشفاق من خُلقي .... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيعنيني تطلبه .... ولو كففت أتاني لا يعنَّيني

لا خير في طمع يدني إلى طبع .... ورغفة من قليل العيش تكفيني

(327/2)

[التائب والتوبة]

قال الوافد: ما شرائط التائب وأوصافه ؟

قال العالم: شرائطه: المحبة والطاعة، والإقبال والضراعة، من أراد الحبيب ؟ جاء بقلب منيب، من اعترف ؟ أقر بما اقترف، واعتذر وأنصف، وبادر وعطف، وتاب وأكثر الإنتحاب، وعمل بالصواب، وتبع آيات الكتاب.

أين التوبة ؟ يا صاحب الحوبة، أين الاستغفار ؟ يا أهل الإصرار، أين الوجل ؟ يا أهل الزلل، أين الضراعة ؟ يا أهل الطاعة، توبوا وأنيبوا، ولا تسوِّفوا فتخيبوا واعتذورا واستغفروا وازدجروا، وتذللوا واعترفوا واعتبروا، واخضعوا وانكسروا، واصبروا على الطاعة، تدركوا الفوز والنفاعة، ارغبوا وتقربوا، واندموا على المعاصي ولا تصروا، ؟ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ؟[النور: 31].

أين المؤمنون ؟ أين الموحدون ؟ أين ؟ العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ؟[التوبة: 112]. كيف ينامون ولا يشتاقون ؟! ؟ جنة عرضها السموات والأرض ؟[آل عمران: 33]. قصورها من الذهب والجوهر، والياقوت الأخضر، فيها الحور الحسان، والأكاليل والتيجان، تجري من تحتها

الأنهار، لباس أهلها الحرير والسندس والعبقري، (أين الراغبون ؟ أين المجتهدون ؟ هذه دار لا تخرب ولا يفنى شبابها، ولا تبلى ثيابها)، هذه دار المجتهدين ما هم عنها بمخرجين، دارٌ أهلها لا يَشقَون، ولا يفتقرون ولا يحزنون، ولا يمرضون ولا يموتون، ولا يهرمون ولا يحتاجون.

(328/2)

أيها الخاطئون العاصون، أيها المفسدون، أيها المذنبون، مالكم لا تتوبون ؟! مالكم لا ترجعون ؟! (مالكم لا تخافون ؟ أمعكم صبر على النار ؟ ألكم في ذلك اعتذار)، ألا تخافون نار الجحيم ؟! وشراب الحميم ؟! وطعام الزقوم ؟! ولباس القطران ؟! ألا إن جهنم حرها لا يبرد، وعذابها لا ينفذ، ولهبها لا يخمد، إلى كم هذه الغفلة ؟! (كم تنقضون العهود ؟ كم تَعَدَّون الحدود ؟) كم تعصون المعبود، ارجعوا إلى الله في وقت المهَل، قبل أن ينقطع الأجل ويرفع العمل، فإن الله يقبل التوبة، ويمحو الحوبة. التوبة تمحو عظائم الذنوب، وتقرب العبد إلى علام الغيوب، توبوا إلى الله قبل أن يغلق الباب، ويحصل الحساب، ويقع العذاب، احذروا الله، خافوا الله، راقبوا الله، بادروا بالتوبة قبل الندم، قبل زلة القدم، قبل الأخذ بالكظَم.

تب أيها العاصي، قبل أن تصبح من رحمة الله قاصي، قبل الأخذ بالنواصي، ارجعوا إلى الله بالقلوب، من قبل أن يكون الباب محجوب، أَيْ أهل التوحيد، تقربوا إلى الملك الحميد، تنجوا من العذاب الشديد، يا أهل القرآن تقربوا بالقرآن، إلى الملك الديان، تنجوا به من عذاب النيران، هو الشفيع فيكم، هو الرفيق لكم، هو الشاهد عليكم، هو الدليل، هو السبيل، هو الحجة، هو المحجة، اعرضوا أعمالكم عليه، وردُّوا أقوالكم إليه، أكثروا قراءته بالليل والنهار، وفي وقت الأسحار، فإن الملائكة معكم عند قراءته قعود، وعلى ما تنطقون به شهود.

لا تُخسروا الميزان، لا تحلفوا الأيمان، لا تذكروا البهتان، لا تبخسوا المكيال، لا تشِيبُوا الأعمال، لا تصحبوا الأنذال، لا تضيعوا الصلاة، لا تغلُّوا الزكاة، لا تحلوا المحرمات، لا تؤذوا الجيران، لا تطيعوا الشيطان.

أيها المضيعون للصلوات، توبوا إلى المطلع على أعمالكم في الخلوات، أيها الخائن بالعين والفؤاد، تب إلى الملك الجواد، قبل أن يُسلط عليك ملائكة غلاظ شداد.

(329/2)

أيها المؤذي للجيران، تب إلى الملك الديان، قبل سرابيل القطران .

أيها المانعون للزكوات، توبوا إلى الله (قبل نزول النقمات والسطوات. أيها المتبعون للشهوات، توبوا إلى الله) من اكتساب السيئات، وتضرعوا إليه بالدعوات.

يا صاحب الكذب والزور، تب إلى الله قبل الويل والثبور. أيها الباهت المغتاب، تب إلى الملك الوهاب، قبل أن تذوق أليم العقاب. أيها الحالف بالأيمان، تب إلى الله قبل نزول النيران.

وقال في ذلك:

أسلفت من عمرك ما قد مضى .... منهمكاً في غمرات الخطل

حتى إذا القوة زالت وقد .... أقعدك العجز وحل الفشل

تبت إلينا في صدار الحيا .... مستعجماً فيك فنون الخجل

فأنت عندي بمحل الرضى .... وقد غفرنا لك كل الزلل

وقال آخر:

إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا .... ولم ترض مخلوقا فما شئت فاصنع

وقال غيره:

إذا أمسى وسادي من تراب .... وبت مجاور الرب الرحيم

فهنأني أصيحابي وقالوا .... لك البشرى قدمت على كريم

(330/2)

[صفات التائب]

قال الوافد: صف لي هيئة التائب ؟

قال العالم: هيئة التائب، العزم على أن لا يعود، إلى عصيان المعبود، ويأسف على ما اقترف، ويندم على ما أسلف، ويرجع مما عرف، يندم بالقلب، على ما قدم من الذنب، يرجع إلى اليقين، ويبكي ويستكين، يكثر الصوم، ويقل النوم. فهو مشفق من عصيانه، مطرق بين إخوانه، ظاهر خشوعه، متبادر دموعه، منقطع كلامه، قليل منامه، دائم كرمه، مستهام قلبه، يسيرٌ أكله، كثير شغله، صحيح قوله، لا ينقض عهده، ولا يخلف وعده، ولا يمنع رفده، يطلب خلاصه، ويعرف انتقاصه، إن طلبته وجدته في فكرته، وإن سألته خاطبك بعبرته، لا تسكن حرقته، ولا تزول رقته، ولا تكف دمعته. من رآه انتبه من غفلته، ومن جالسه تاب من زلته، فهو حقير في نفسه، غريب في أهل جنسه، كريم على ربه، نادم على ذنبه، ملتمس لما به، طامع في ثوابه، رافض لأسبابه، باكي على شبابه، كثير الوجع، عظيم الفزع، متين الورع، ظاهر خشوعه، غزير دموعه، صادق رجوعه، معتبرٌ متفكرٌ، شاكرٌ ذاكرٌ، خجلٌ، وجلٌ، واجدٌ، ساجد، تضيق به البلاد، ويسأم من صحبته العباد،

ينتظر المعاد، ويطلب تحقيق الوداد، جهده شديد، وعمله كل يوم يزيد، وحزنه في كل نَفَس جديد، يتجرع الغصص، ولا يطلب الرخص، دائم الطلب، ملازم الكُرب، مواضب على التعب، رافض للطلب، ظاهر الحزن والنَّصَب، ضيق الأوقات، مغتنم الساعات، قليل الإلتفات، حذر من كل الجهات، ماله هدوء ولا سكون، خائف غير أمون، وجِلٌ محزون، كأنه مقيد مسجون، لونه أصفر من هيبة الرحمن، ونفسه ذائبة من خوف الهجران، نحيف البدن، خفيف المؤن، سقيم الأركان، سليم الجَنان، مستقيم اللسان، حريص على طلب الجِنان، لا تصده العوائق، ولا يُبالي بالخلائق، منقطع من العلائق، متمسك بالحقائق، فهو في الطلب، إلى أن يصير إلى الطرب، وينجو من التعب.

(331/2)

قال الوافد: بئس العبد عبد سها ولها، (بئس العبد عبد طغى وبغى، بئس العبد [عبد] جاوز الحد وتعدى)، بئس العبد عبد ظلم واعتدى.
أيها العالم الحكيم، والسيد الحليم، قد وصفت أهل النجاة، فأبلغت في الصفات، وحذرت مما هو آت، فجزاك الله عني خيراً، وبوأك سرورا.

(332/2)

[صفات المحب لله]
صف لي المحب لربه ؟ النادم على ذنبه ؟
قال العالم: أوصاف المحبين: يحبهم الله (كرماً، ويحبونه ألماً، يحبهم إرادة، ويحبونه عبادة، يحبهم رحمة، ويحبونه خدمة، يحبهم تفضلا، ويحبونه تذللاً)، إذا أحبك سترك، وإذا أحببته قربك وشرفك، إذا أحبك أغناك، وسترك وآواك، المحب عينه لا تنام، همته الصلاة والصيام، أهل المحبة إذا جنَّهم الليل أَرِقُوا، وإذا أضاءهم الصبح فَرَقوا، وإذا قُرئ القرآن صاحوا، وإذا ذكروا ذنوبهم ناحوا، (من كان بالله أعرف، كان من الله أخوف، من رجا طلب، ومن أحب تقرب، ومن خاف هرب، ينام الناس ولا ينام، ويضحك الناس ولا يضحك، المصاب الذي يدعو ولا يجاب، الأحزان تهد الأركان، وتشيد الإيمان)، إن الله يحب كل قلب حزين، الحزن عمارة القلب الخراب، المحزون يفتح له الباب، كلام المحزون في خلوته يقول: كأني بك وقد تجرعت مرارة المذاق، وقيل: إلى ربك المساق، كأني بالغطاء وقد كشف، وبالعطاء وقد صرف، كأني بالوعد وقد اقترب، وبالوعيد وقد وجب، كأني بك في اللحود، مُضِاجع للدود، كأني بالمظلوم، وقد تعلق بالظالم، كأني بهذا الضياء وقد أظلم، وبهذا

العمر وقد انصرم، كأني بالمنادي وقد نادى، وبالليل والنهار وقد بَادَا، (كأني بهذا الجسد وقد ذهب عنه النشاط، وطوي من تحته البساط).

قال الوافد: صف لي التجربة ؟

قال العالم : تصحب أهل المعرفة، وتحفظ التجارب حتى تكون معلم التجربة، واطلب مرادك بالصدق، لأن ذلك للصادقين المريدين لله.

قلت: فبأي شيء أجد الإرادة ؟

قال: بالصدق واستماع الحكمة.

قلت: أي حكمة ؟

قال: حكمة الذين يدعونك إلى رب العالمين.

(333/2)

[مدارج الأولياء]

قلت: فإذا وجدت الإرادة أي شيء أفعل ؟

قال: ؟ قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو أنقص منه قليلا، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ؟ [المزمل: 2 – 4].

قلت: بأي شيء أفعل ذلك ؟

قال: بقلة الطعام، وقلة الكلام.

قلت: كيف أصبر على الحق ؟

قال: بذكر المقام.

قلت: وما المقام ؟

قال: مقامك بين يدي الله سبحانه يوم القيامة.

قلت: وكيف أصبر عن الكلام ؟

قال: أكثر ذكر الله حتى تجد حلاوته تلهيك عن كلام الفضول.

قلت: ومن يقدر على ذلك.

قال: الذي يريد أن يصل إلى ربه.

قلت: أو جد لي ما أَيسرُ علي من ذلك ؟

قال: عليك بكثرة الدعاء والتضرع، حتى تأتيك المعونة من الله سبحانه.

قلت: كيف يصل العبد إلى ربه ؟

قال: إذا صبر على ذكره، وأدمن على شكره، (وصل إليه بقلبه.

قلت بأي شيء) يصل إلى ربه ؟

قال: بالجهد الدائم، والدعاء والتضرع، ثم عرف وعلم وأيقن أنه لا يصل إلى ربه إلا به.

قلت: بأي شيء ينجو العبد من عذاب ربه ؟

قال: بترك الذنوب.

قلت: أرأيت العبد إذا وصل إلى ربه أيسكن عنه الخوف والوجل أم لا ؟

قال: لا.

قال: لم وهو على يقين من ذلك ؟

قال: نعم. من اليقين أن يكون خوفه ووجله.

قلت: أو يكون طالبا لرزقه.

قال: نعم يكون شديد الطلب لرزق الآخرة.

قلت: أعني رزق الدنيا.

قال: ؟ من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ؟ [الشورى: 20].

قلت: كيف يكون واثقا برزقه موقنا ؟

قال: كما يكون موقنا بالموت واثقاً مصدقاً أنه لا بد أن ينزل به.

قلت: ما علامة المحب ؟

قال: يقرأُ القرآن ويكون قرة عينه ولا يشبع من قراءته.

قلت: كيف يخافه ويحبه من قلب واحد ؟

قال: لأنه محب لواحد، فالخوف منه في حبه له، والحب له في خوفه منه، مثل النار والنور، فالخوف نار، والحب نور، فلا يكون أبداً نور بلا نار.

(334/2)

ألا ترى إذا علت النار بنور يقع عليه اسم النور، كالسراج في البيت، فيقال في البيت نور، ولا يقال فيه نار، فالنور نار السراج إذا غلب الخوف على العبد يقال له خائف، والمحبة معه، وإذا غلبت المحبة على العبد سمي محباً والخوف معه، فإذا كمل الخائف على ما وصفت لك غلب بنوره ناره، فوقدت منه المصابيح، فنور البيوتات كلها والظلمات كذلك، فكذلك المحب إذا كمل في الخوف كما وصفت لك ونجا من نجاسة نفسه فهو كالمصابيح، كلامه نور وصمته نور، وعمله نور ومدخله نور، فهو نور من رأسه إلى قدمه كالمصابيح، فكل تحركه (أبدا نور، متصل بنور الملكوت الأعلى، قلبه مع الله بحلاوة حبه، وأحواله نور إلى الله في ذكره، فطوبى له وحسن مآب)، وطوبى لمن رزقه الله ذلك.

(قال الوافد: صف لي المتقلب في جوعه ؟).

قال العالم: مثل المتقلب في جوعه كالمتشحط في دمه في سبيل الله، وثوابه الجنة.

قلت: ما علامة العارف ؟

قال: أن لا يفتر من ذكر ربه، ولا يستأنس بغيره.

قلت: ما أنفعُ الخوف لي ؟

قال: ما لم يجرِّيك على المعصية وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك التفكر فيما تصير إليه في الآخرة .

قلت: ما أنفعُ الصدق لي ؟

قال: أن تقر لله بعيوب نفسك، ومساوئ عملك، وتتقي الكذب في مواطن الصدق.

قلت: فما أنفعُ الإخلاص لي ؟

قال: ما نفى عنك الرياء والتزين في الجماعات.

قلت: فما أنفعُ الحياء لي ؟

قال: أن تستحيي من الله أن تسأله ما تحب وأنت تأتي ما يكره.

قلت: فما أنفعُ الأعمال لي ؟

قال: ما سلمت من آفاتها وكانت مقبولة.

قلت: فما أنفع العلم لي ؟

قال: ما نفى عنك الجهل، وازددت به ورعاً وكنت به عاملاً.

قلت: ما أنفعُ التواضع لي ؟

قال: ما نفى عنك الكبر، وأمات منك الطمع والغضب.

قلت: فأي الجهاد أفضل ؟

قال: جهاد النفس الأمارة بالسوء حتى تردها إلى قبول الحق.

قلت: فأي المعاصي أضر علي ؟

قال: عملك الطاعات بالجهل.

قلت: فهو أضر علي من أعمال المعاصي بالجهل ؟

قال: نعم.

قلت: وكيف يكون ذلك ؟

قال: ألست تعلم أن أعمالك بالمعاصي لا ترجو بها من الله ثواباً، وتخاف عليها من الله عقاباً ؟

قلت: بلى.

(قال: أليس تعلم أن أعمالك بالجهل فاسدة، وأنت تلتمس بها من الله ثوابا، وقد استوجبت عليها من الله عقابا ؟

قلت: بلى) .

قال: فكم بين ذنب تخاف فيه العقوبة . والخوف طاعة . وبين ذنب تأمن فيه العقوبة . والأمن معصية.

قلت: فما ترى في الإستئناس بالناس ؟

قال: إذا وجدت عاقلاً مؤمناً قد زهد في الدنيا ورفضها، فاستأنس به، واهرب من سائرهم كهربك من السباع.

قلت: فأي المواضع أخفى لشخصي ؟

قال: صومعتك وداخل بيتك، وكل موضع لا يلحقك فيه شهرة، ولا تحيط بك فيه فتنة.

قلت: دلني على عمل أسلم به من شر الخلق ويسلمون من شري ؟

قال: إذا لم يكن في قلبك غل لأحد، وأحببت لهم ما تحب لنفسك، وكرهت لهم ما تكره لها، سلموا شرك، ولحق بهم خيرك.

قلت: ما علامة مؤثر الدنيا على الآخرة ؟

قال: هو الذي لا يبالي ما ذهب من دينه إذا سلمت له دنياه.

قلت: ما علامة الكذب في العبد ؟

قال: كثرة كلامه فيما لا يعنيه.

قلت: فما علامة قلة الكذب.

قال: كراهته لكثرة الحديث.

قلت: أخبرني ما حياة العبد ؟

قال: الإيمان واليقين حياته، والخوف والتوكل نجاته، وإذا ثبت الإيمان في قلبه، فمنه يهيج ما سألت عنه من الصدق والخوف والتوكل وحسن الظن، وهي أعمال سرائر القلوب. فإذا صح ذلك في القلب ظهر على اللسان والجوارح، وبان منه الصلاح.

قلت: فما الذي ترجو به صلاح قلبي إذا أنا عملت به ؟

قال: التيقض وخوف انقطاع العمر، ومراقبة الموت، والتفكر فيما تصير إليه من بعد الموت، واحذروا الغفلة وطول الأمل، ونسيان المعاد.

قلت: ما علامة الإخلاص ؟

قال: الندم والإستقامة على طاعة الله.

قلت: فما علامة الورع ؟

قال: ترك الشهوات، ورفض الشبهات.

قلت: ما علامة أهل التقوى ؟

قال: ترك ما فيه بأس ظاهر أو باطن، وسوء الظن بنفسك أنه ليس مأخوذ غيرك.

(336/2)

قلت: من أي شيء أكثر ذكره ؟

قال: قراءة القرآن، فهو حصن المؤمن وتِرسُه.

قلت: صف لي مخ الزهد ؟

قال: قطع الطمع عن القلب، وامتناع السؤال للخلق، وترك مخالطة أبناء الدنيا، والفرار منهم، وصدق الإرادة، وحسن النية، وصحة العزيمة.

قلت: متى أعلم أني مطيع لربي حق الطاعة ؟

قال: إذا لم يجدك حيث نهاك، ولم يفقدك حيث أمرك، أطاعك لما سألته، لأنه مطيع من أطاعه.

قلت: فما طاعته لي ؟

قال: يجيب دعوتك ولا يمل من برك.

قلت: كيف أجاهد نفسي ؟

قال: تجوعها عن طعام الدنيا وتقمعها بالصوم، وتلزمها قيام الليل، وتحرسها عن الرياء والعجب، وتستقل عملها بعد ذلك.

قلت: أي شيء أقرب إلى الله من أفعال القلوب ؟

قال: اليقين وبعده العلم، وبعده الشكر لله.

قلت: ما عمارة القلب ؟

قال: الخوف.

قلت: ما طهارته ؟

قال: الحزن.

قلت: ما حياته ؟

قال: الذكر والتفكر.

قلت: فما فساده ؟

قال: الغفلة وطلب الدنيا.

قلت: فما موته ؟

قال: حب الشهوات، وأكل الشبهات.

قلت: ما دوآءه ؟

قال: الجوع سراً عن الناس، وقراءة القرآن مع التفكر في الخلوة، والتضرع إلى الله في أوقات الغفلة، والرغبة في مجالس الذكر، والتجرد عن أشغال الدنيا، والحزن الدائم في القلب مع طول الصمت، وذكر الموت في كل ساعة، وكثرة ذكر الله، والتواضع لله، والنظر في الأموات والإعتبار بهم.

قلت: كيف تكون مراتب التوبة ؟

قال: رجل تاب من الذنوب ولزم الطاعات، ورجل تاب من الذنوب وترك الدنيا وأقبل على الآخرة، ورجل تاب من الذنوب واختار الله سبحانه على الدنيا والآخرة، وعلى جميع الخلق، فالأول تائب ورع، والثاني تائب زاهد، والثالث تائب صدِّيق عارف متقرب.

قلت: أخبرني عن شر الأشياء ؟

قال: الكفر بالله.

قلت: أله زوجة ؟

قال: نعم. البخل.

قلت: ما بعده أشر منه ؟

قال: النفاق.

قلت: أخبرني ما أفضل ما أعطي العبد ؟

قال: العقل.

قلت: فما أنفع العقل ؟

(337/2)

قال: ما عرَّفك نعمة الله، وأعانك على شكرها، وقام بخلاف الهوى.

قلت: فما علامة العقل في العبد ؟

قال: أن يعرف الحق من الباطل، والضآر من النافع، والحسن من القبيح.

قلت: فما أنفع النعم معرفة بعد نعمة العقل ؟

قال: الإيمان بالله.

قلت: فما حقيقة ذلك ؟

قال: أداء ما افترض الله عليك. ثم سكت العالم بعد ذلك وافترقا رحمة الله عليهما.

(338/2)

[عظات بالغة]

[دار الغرور]

بسم الله الرحمن الرحيم.

والحمد لله وبه أستعين

أما بعد: فإن الدنيا دار غرور، لا يدوم فيها سرور، ولا يؤمن فيها محذور، جديدها يبلى، وخيرها يفنى، من وثق بها خدعته، ومن اطمأن إليها صرعته، ومن أكرمها أهانته، أفراحها تُعقب أحزانا، ولذاتها تُورث أشجانا.

أما بعد: فإن أعمار الدنيا قصيرة، ورحاها مديرة، وسهامها قاصدة، وحتوفها راصدة، و المغرور من اغتر بها، والمخدوع من ركن إليها، من زهد فيها كُفِيها، ومن رغب عنها وطيها، قد غرت القرون الماضية، وهي على الباقين آتية، فيا بؤسا للباقين، لا يعتبرون بالماضين، يجمعون للوارثين، ويقيمون في محلة المتجبرين .

أما بعد: فاقنع باليسير، وبادر بالتشمير، وإياك والتغرير، وانظر إلى ما تصير، فليس الأمر بصغير، وهيئ زادك للمسير، فقد أتاك النذير.

أما بعد: فقد وضح لك الطريق، فلا تحيدن عن إطاره إلى المضيق، فقد مضت الأيام، وذهبت الأعوام، وفنيت الأعمار، وأُحصيت الآثار، وعن قليل تدعى فتجيب، وتصعق فتغيب، فعجبا لقلبك كيف لا يتصدع ؟! وعجبا لركنك كيف لا يتضعضع ؟! وعجبا لجسمك كيف لا يتزعزع ؟!

أما بعد: فإنه ليس لحي في الدنيا من مقام، وعما قليل يأتيك الحِمام، وكل خلق تفنيه الأيام، فلا تكن كالغافل النوام، فإنما الدنيا إلى انصرام، ولن يُرى فيها دوام .

أما بعد: فاتقوا الله، عباد الله، فيما تَقدَّم إليكم، واحتج به عليكم، من قبل اللهف والندم، ومن قبل الأخذ بالكظم، وانقطاع المدة، واستكمال العدة، ومن قبل التلاقي واللزام، والأخذ بالنواصي والأقدام، فكأن قد نزلت بكم نازلة الفناء، وأخرجتكم إلى دار البقاء، وكشف عنكم الغطاء، وتجرعتم سكرات الموت، وخضتم غمرات الآخرة، وأتاكم ما كنتم توعدون، وعاينتم ما كنتم تحذرون .

(339/2)

أما بعد: فإنه لا عذر لمن هلك بعد المعرفة والبيان، ولا حجة لمن ركن إلى دار الفناء والحدثان، ولا ندم يغني عند وقوع العيان، ولا حيلة تنفع عند فوت الزمان، وعند السياق وكلول اللسان، لا ولد ينفع، ولا أهل يمنع، في مصرع هائل، وشغل شاغل، يُدعا فلا يَسمع، ويُنادَى فلا يجيب، في غصص الموت وسكراته، وتَجَرُّع زفراته، وغمومه وحسراته، قد علاك الأنين، وأتاك الأمر اليقين، فلا عذر فتعتذر، ولا ردة فتزدجر، قد عايَنَتْ نفسُك حقائق الأمور، وحللت في مساكن أهل القبور في لحد

محدور، قد افترشت اللَّبِن بعد لين الوطاء، وسكنت بين الموتى، بعد مساكنة الأحياء، فالنجاء النجاء، قبل حضور الفناء .

أما بعد: فإن الدنيا أيام قلائل، وكل ما فيها ذاهب زائل، فتعز بالصبر عن الشهوات، وتنآء بالحذر عن اللذات، وفكر فيما اقترفت على نفسك من الذنوب، وفيما قد ستر الله عليك من العيوب، أما علمت حين عصيته لم يكن بينك وبينه، ستر يواريك منه .

أما استحييت من مولاك ؟! وقد علمت أنه يراك، أما خفت العقوبة حين آثرت على تقواه هواك ؟!

أما بعد: فيا بؤسا لك من مخالف خاسر، وخائن غادر!! أما إنك عن قليل، تهجم على البلاء الطويل، فتدارك نفسك إذ عرَّضتها للمهالك، واسلك بها طريق الواضح من المسالك، ولا تطمعها في راحتها، أيام حياتها، واستَطْرِف لها النَّصب، واحملها على التعب، لما ترجو أن تصير إليه من الراحة غدا، فكأنك قد دعيت فأجبت، فاعمل لنفسك مادمت في مهلة، وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى .

أما بعد: فاحذر على نفسك ختزَ الدنيا ومكرها، وخدعها وغدرها، فإنها متبرجة لطلابها، فاحذرها ولاتكن لها قتيلا، والتمس لنفسك للنجاة منها سبيلا، فانظر لنفسك أيام مكثك فيها، واعلم أنها مُرَحِّلة سكانها، وأن متاعها قليل، وخطبها جليل، ونعيمها زائل، وخيرها مائل .

(340/2)

أما بعد: فكن في سفرك مرتادا، وهَيِّءْ عدة وزادا، قد خرجت من روح الدنيا، إلى ضيق اللحد وخشونة المتكأ، فتيقظ من نومة الغافلين، وانتبه من وَسْنَة الجاهلين، وانظر بعينك إلى مصارع المغترين، ومضاجع المستكبرين، أليس ديارهم خالية (وأجسادهم بالية، ومساكنهم مقفرة، وعظامهم نخرة، وعروقهم بالية) وأيامهم فانية ؟!

أما بعد: فإنك لو رأيت يسير ما بقي من عمرك وأجلك، لزهدت في طول ما ترجو من أملك، ورغبت في الزيادة من عملك، فإنك إنما تُلقى غدا في حفرتك، وتُخلى في وهدتك، ويتبرأ منك القريب، ويتسلى منك الحبيب، فلا أنت إلى أهلك راجع، ولا في عملك زايد شارع، فاعمل ليوم القيامة، قبل الحسرة والندامة.

أما بعد: فلا يَمِل بك الأمل الكاذب، ولاتكن كالشاهد الغائب، فإنك والقوم على بساط واحد، والموت يأتي على كل صادر ووارد، فلا يذهبن قولي عنك صفحا، فإني لم آلُكَ حظا ونصحا، فإن تقبل نصيحتي فأنت بذلك أسعد، وبها أعلى غُنيى وأرشد، وعن قليل يأتيك الخبر، فالحذر الحذر، فإنه يأتي أسرع من لمح البصر.

أما بعد: فإن الدنيا بحر عميق، ولنيرانها لهب وحريق، ولطرقها مفاوز ومضيق، فالحذر إذاً لبعد مفاوزها ومضيقها، فأعدّ عدةَ سيرٍ تزحزح به عن لهبها وحريقها، واتخذ سفينة تنجو بها من عميقها،

وقرِّب عليك الأجل لا تخدعنك بآمالها ومكرها، وقد عرَّفتك نفسها، وأوضحت لك لبسها، فلا تعم وأنت بصير، ولا تأمن وأنت بتحذير، فإن الذي بقي من عمرك قليل، فإما الثواب الجزيل وإما البلاء الطويل، فكن بعملك منتفعا، وللموت متوقعا، فإنك لا تدري على أي حال يأتيك، وفي أي وقت يفاجيك، فعجبا لك يا مكنون الأجل، كيف تغتر بطول الأمل، فابك على نفسك إن كنت باكيا، وتيقظ من غفلتك إن كنت لاهيا .

(341/2)

أما بعد: فكأنك قد أُخرجت من رَوح الدنيا ومساكنها، وأبدت أهلُك لغيرك سكنها ومحاسنها، ونسَيتْ ما كان لها من كدك، وتغيَّرت . عما كانت لك عليه من بعدك، فتنعموا بمالك، ولم يعبأوا بحالك . لمن لا يرثى لك غدا من بعد صرعتك، ولا يؤنسك في وحشتك، فلا تَبع يا مسكين بدنياك آخرتك، ولا تجزع لها فتُركبك رقبتك، عليك بنفسك أكرم الأنفس عليك، وأحب الأنفس إليك، واعلم أنك مسؤول، ومحاسب ومعاقب، فارغب في الثواب، واهرب من العقاب .
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

(342/2)

[الغفلة عن الموت]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وعلى محمد وعلى أهله أفضل الصلاة والتسليم.

وبعد: يا أُخيَّ فأغاذني الله وإياك من مهلك غفلى الغافلين، وسلمني [وإياك] بمنِّه ورحمته من مضل جهالة الجاهلين، الذي حسبوا وظنوا . إذ تاهوا وتمنوا . قصيرَ آجالهم طويلا، فأفنوا أيام حياتهم بالغفلى مُنىً وتأميلا، حتى عاينوا نازل الموت، بكل حسرة وفوت، فأيقنوا عند نزوله بباطل المنى، إذا ذاقوا الموت والفناء، وعلموا أن قد كان قصيرا ما استطالوا من حالهم، وغرورا وخداعة ما كانوا فيه من مناهم وآمالهم.

يا أُخيَّ: واعلم أن الأجل حثيث الفناء، ليس لأحد معه . والله المستعان . من بقاء، لا يقف والحمد لله من أهله على من استوقفه، ولا يغفل لمحاذرة سرعة انقطاعه مَن عرفه، وكيف يغفله عارف به، أو موقن بمعاده إلى ربه ؟! مع ما يرى من مَرِّهِ وحثه، وقلة تعريجه ولبثه، فهو دائب الحث، غير ذي إبطاء ولا لبث، يقطع منه ساعاتِهِ الليالي والأيام، ويقطع أيامه ولياليه منه الشهور التَّوآم، وكذلك

جعل الله شهوره، تقطع بمرها سنينه ودهوره، فدهره قصير، وعمره يسير، لا يطرف أحد من أهله طرفا، إلا اقترب من فناء مدته زلفا، فأنفاسه ولحظاته تطويه، وساعاته وأوقاته تفنيه، يقظان كان أو نائما، ومقيما كان أو ظاعنا، تحثه جدا، وتدعوه بنداء، ساعات نهاره وليله، بل أنفاس عمره وتأجيله، فهو ظاعن سائر، وإن كان به غير شاعر، وكأن قد أفضت أسفاره، فيما يسير به ليله ونهاره، فورد محلة مثواه ومقامه، وفنيت مدة أجله وأيامه، فأقام فيه مخلدا، وبقي بعدُ سرمدا، في حبرة ونعيم، أو عذاب أليم، وقد قر في أيهما صار إليه قراره، وانقطعت فيه عنه ظنونه واغتراره، لا يزداد من أعماله في حسنة زكية، ولا يستعتب في حسنة ولا خطية، قد لزمته سعادته وشقاؤه، ودام في أيهما كان خلده وبقاؤه.

(343/2)

فوا عجبا لمن كان بهذا موقنا!! بل لمن ظنه وإن لم يوقن به ظنا!! كيف لعب ولها ؟! وغفل فيها، ولقد اكتفى الله سبحانه – في ذلك لمن لم يوقن بنفسه، ولم يَدِن لله فيه بحقيقة دينه – بالظن، فقال سبحانه : ؟ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين؟ [المطففين: 4 – 6]. اكتفاءً لهم بالظن لو ظنوا من حقائق اليقين، وتذكيرا فيه لهم بما يمكن كونه يوم الدين.

وفيما كان به المؤمنون في دنياهم يوقنون، من لقاء ربهم ويظنون، ما يقول سبحانه :؟ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون؟ [البقرة: 46]. فذكر الله سبحانه ظنهم بلقائه، ومرجعهم إليه وإلى جزائه، فكان عملهم واجتهادهم في دينهم، على قدر حقيقة ظنونهم، فكيف يكون مثلهم ؟+ من يدعي يقينهم وفضلهم، وهو غافل لاعب، وقائل كاذب، يقول مالا يفعل، ويقر بما لا يعمل.

وفي مقت الله سبحانه، لمن آمن ففكر فذكر اللهُ إيمانَه، وعلمَه بالإيمان لله وبالله وإيقانَه، ما يقول تبارك وتعالى اسمه : ؟يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون؟ [الصف: 2 – 3]. ويقول سبحانه لمن ادعا الصدق والوفاء، وإتيان ما يحب الله ويرضى :؟ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون؟ [التوبة: 105].

يا أُخيَّ فلا تغفل عن الموت والبعث غفلة من يُرى من أشباه الحمير، فإن بغفلتهم عن الموت والبعث بَعُدوا كما رأيت من النجاة والفوز والحبور، فعموا عما كان ممكنا في حياتهم من الهدى والرشاد، وشقوا بعمايتهم في المرجع إلى الله والمعاد، فدام شقاؤهم وتبارهم، وأقام ندمهم وخسارهم، ثم بكوا فلم يُرحموا بالبكاء، ودعوا فلم يجابوا في الدعاء، ؟فنادوا يا مالك ليقض علينا ربك . و . قال . مالك: إنكم ماكثون؟ [الزخرف: 77].

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون؟ [السجدة: 12]. وعند تلك وفيها، وعند ما صاروا إليها، قالوا: ؟ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضآلين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون؟ [المؤمنون: 106 – 107]، فما كان جوابهم عند قولهم وطلبهم، وعندما أُحل من سخط الله المخلد بهم، إلا أن قال :؟ اخسئوا فيها ولا تكلمون؟ [المؤمنون: 108].

يا أُخيَّ فاسمع ما تسمع سماع متبع، ولا تسمعه سماع مستمع، فرب مستمع غير سميع، وسامع مطيع، كما قال الله سبحانه :؟ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا . تأويل ذلك: لم يطعيوا ولم يعوا . وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون؟ [الأعراف: 198]. وتأويل ذلك: لا يبصرون من الهدى ما تبصرون. وفيمن سمع بالسمع، ولم يسمع ولم يطع، ما يقول الله تبارك وتعالى في التنزيل، للعصاة من بني إسرآئيل :؟ وأخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا؟ [البقرة: 93]. فنسأل الله أن يمن بالسماع النافع عليك وعلينا، فإنا من الصمم والحيرة والظلم في البحر الزاخر، واللج الغامر، فلا ينجو مِن غَمره إلا من نجاه الله، ولا يلجأ مِن غرقه إلا من أنجاه، والله المستعان، وعليه التكلان.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد: فاعلم يا أُخيَّ، أنا وإياك في بحر من بحور العمى عميق، لا يصل معه أحد إلى هدى إلا أن يرشده الله ويهديه إلى ملجأ وثيق، فِكَرُ أهله سقيمة مدخولة، وعبرُ مَن فيه فعظيمة مجهولة، لا يعتبر بها منهم معتبر، ولا يفكر فيها منهم مفكر، فقلوبُ من يسمعها منهم ويراها، مقفلة والله المستعان على هداها، فهدانا الله ياأُخيَّ وهداك، بما أرانا الله منها وأراك، ونفعنا ونفعك، بما أسمعنا وأسمعك، فكم رأينا وسمعنا من عبر لا نحصيها ولو جهدنا كل جهد، وفي الاعتبار بأقلها أهدى الهدى وأرشد الرشد، فمنهم ما نرى بالعيان، ونسمعه في كل حين بالآذان، من موت وفناء، يذهب دائبا بالأحياء، تراه عيانا كل عين، وتسمع به في كل حين، وكم رأينا عيانا من جار ومعارف، وقرين محآلٍّ مؤالف، قد دهاه من حمام الموت وفاته ما دهاه، واغتره ما كان فيه من حياة دنياه، ولحق بدار الموت والبلاء، وصار إلى محلة الموت والفناء، فمات بموته أمره وشأنه، ونسيه إذ مات أوداده وأخدانه،

ولها عنه أهله، وهُجِر بعده محله، فلم ير منهم واقف عليه، ولم يلتفت منهم ملتفت إليه، وكم عاينت من أولئك؟! ورأيت من ذلك!!

(346/2)

بل كيف رأيت يا أُخيَّ رحمك الله من مختطف، بسقم مُمِضّ أو موت متلفٍ، قُطِعَ به دون مناه وآماله، وما أنعم الله عليه مِن نَظِرَتِه وإمهاله، فتلهف على ما فاته من طاعة ربه حين لا ينفع التلهف، وتأسف عندما لا يغني عنه ولو كثر التأسف، على ما فرط فيها من إمكان نجاته، وما خسره من أيام حياته، فذهب بندمه وحسرته، وآل بهما إلى معاده وآخرته، فبقي في الحسرة مخلدا، وفي الندامة مقيما أبدا، وكان عند تلك وفيها ومعها من مقاله، نحو ما ذكر الله عند مجيء الساعة من مقال أمثاله، إذ يقول سبحانه :؟ حتى إذا جآءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا سآء ما يزرون، وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ولدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون؟ [الأنعام: 31 – 32]. وقال تعالى ذكره :؟ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورآئهم برزخ إلى يوم يبعثون، فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتسآءلون، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون، ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون؟ [المؤمنون: 99 – 105] . فأنكصُ النكوص عن الآيات، تركُ ما أمر الله به من الحسنات، وارتكاب ما نهى الله عنه من السيئات.

يا أُخيَّ فحتى متى وإلى متى؟! دوام الغفلة والحيرة والعمى! ألسنا بربنا مؤمنين ؟!وبيوم البعث موقنين ؟! فمالنا يا سبحان الله من أمر الله معرضين ؟! ولانتقام الله بالخلاف عليه في أمره متعرضين ؟ من بعد الإيمان واليقين، والعلم بشرائع الدين.

(347/2)

فرحم الله من عباده عبدا، أيقن أن له إلى الله معادا، فجد وشمر في طلب نجاته، قبل نزول الموت ومفاجأته، فكم رأينا من مفاجأٍ مبغوت، بما لم يتوقعه من وفاة وموت، أُخذ في غمرته، وعلى حين غرته، فتبرأ منه قبيله وأحبآؤه، وأسلمه للموت أهله وأقرباؤه، فلم ينصره أهل ولا عشير، ولم يكن له منهم نصير، بكاه من بكاه منهم قليلا، ثم هجره وجفاه طويلا، فكأنَّ –لم يره قط – حيا، ولم يكن له

في حياته صفيا!
فأَبصِر يا أُخيَّ وبادِر، واعتبِر بما ترى وحاذِر، فرب مبصر لا يبصر، ومعتبر بما ترى لا يعتبر، يستزّ بالأشجان والأحزانِ، ويغر بالرجاء والأماني، وهو دائب في قطع عمره وأجله، مغتر بمناه ورجاه وأمله، لا يتنفس نَفَسا، ولا يطرف طَرْفا، إلا قطع به من أجله ناحية وطرَفا، لا يُغفل عنه وإن غفل، ولا يُؤخر لما رجاء وأمَّل، قد جد به المسير، واختدعه الأمل والتسويف والتأخير، فأمله خدعة وغرور، وأجله متعة وبور.
يا أُخيَّ فالعجل العجل، فقد ترى المسير إلى الموت والترحل، لا يقلع راحله وسائره، ولا يريع على أوائله أواخره، يُلحق المتأخرَ بالسائر الأول، والمقيمَ من أهله بالظاعن الراحل، لا يُخلِّف من العباد جميعا متخلفا، بل يختطف نفوسهم خطفا، يأخذ الصغير أَخْذَه للكبير، ويلحق بعضهم بعضا في الموت والمصير. فنسأل الله أن يبارك لنا في حلوله وموافاته، وأن يجعلنا ممن أسعده في يوم مماته، ونستغفر الله خير الغافرين، ونضرع إليه في عصمتنا من هلكات الجائرين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما.

(348/2)

[موعظة]
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد الله حمدا دائما مقيما، وصلى الله على محمد وأهله وسلم تسليما، نستهدي الله للهدى، ونعوذ به من الضلالة والردى، فكم من ضال مغتر ؟! ورَدٍ مدمر، قد غُر حياته بالأمل والمنى، وهو يرى في كل حين الموت والفناء، يتمنى من بقائه كثيرا، وقد رأى من أُخذ غريرا، مما لا يحصيه بعدٍّ، ولو جهد كل جهد، فكم رأى في غرته من مأخوذ! وميت بالعراء منبوذ!! يتخالس الطير لحمه تخالسا، وتتناهشه سباع الوحش تناهشا، وكم سمع به من ملقًى في بحر من البحور للموت ؟ يأكل لحمه من ملقى من البحر ما قاربه من حوت، وكم رأى في الثراء من ملحود ؟ متناثرة أوصاله وعظامه بالدود، وقد نسيه بعد الذكر أهلوه!! وقطعه بعد مودته مواصلوه، فأغفلوا ذكره فلا يذكرونه إلا قليلا، وكلهم فقد كان له أهلا وخليلا، فكأن لم يروه قط حيا في الأحياء معهم!! ولم ينالوا منه ومن كدّه عليهم ما نفعهم!!
فيا ويل من سقط هذا عن ضمير قلبه! وأصر مقيما على الخطيئة بعد علمه به! كيف خسر دينه ودنياه ؟! وآثر ضلالته في الحياة على هداه ؟! فهلك هلاك الأبد وقد رأى في حياته منجاه، ودُل فيها على نجاته ورداه.
فنعوذ بالله لنا ولك من العماية عن الهدى، ونعتصم بالله لنا ولك من الهلكة والردى، فما يردى بعد

هداية الله ويهلك بما حذَّره الله من المهالك، إلا كل شقي من الخلق هالك!! فنستجير بالله من الهلكة والشقاء، بعد منِّ الله علينا بالهداية والتقى!

فكم من مهدي لقصده ورشده ؟! قد ضل بعد هدايته عن قصده!

وكم من مستمع ومبصر لا يسمع ولا يرى ؟! كما قال الله تبارك وتعالى :؟ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ؟ [الأعراف: 198]. وقال سبحانه :؟ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ؟ [البقرة: 18].

(349/2)

يا أُخيَّ فانظر فيما ذكرت واستمع، تسعد وتنجُ بإذن الله وتنتفع، ولا تك كالذين هلكوا وهم يرون، أولئك فهم المعترفون بالله المقرِّون، الذين رضوا من حياتهم، بالتمني في المعاد لنجاتهم، بما تمنوا غرورا مهلكا، فقالوا إذ اقترفوا كذبا وإفكا، وإن كانوا قد أقروا، لا كما فعل من نحن وأنت فيه من العذاب من كبائر العصيان، ثم ادَّعوا النجاة بعد الإقرار بالعذاب دعوى بغير ما حجة ولا برهان. ولفي ذلك، وأولئك، وهم بنوا إسرآئيل عليه السلام، وذرية إبراهيم خليل الرحمن، ما يقول سبحانه :؟ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون، ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون، فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت ؟ [آل عمران: 23 – 25]. وقال سبحانه: لهذه الأمة، فيما نزل من آياته المحكمة: ؟ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوأ يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ؟ [النساء: 123]، فكفى يا أُخيَّ بما يسمع السامعون من هذا ومثله بيانا وتبصيرا! نفعنا الله ونفعك بتبصيره، وما منَّ به علينا وعليك من تذكيره.

(350/2)

[رسالة إلى بعض بني عمه عن الدنيا والزهد فيها]

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم .

متَّعك الله من نعمه وحوطِها، ومنعك من مذموم الأمور ومسخوطها، بما أمتع به أهل رحمته ونعمته، ومنع به من المكاره أهل توفيقه وعصمته، ومَنَّ عليك من تقوى الله وإيثارها، ورفض الدنيا

واحتقارها، بما منَّ به على من آثره، وأجلَّ أمره فوقَّره، فإن ما أمر الله به من رفض الدنيا واستقصارها، دليل ممن فعله على إيثار الآخرة وإكبارها، وإن رفض الدنيا والإعراض عنها، دليل ممن فعله على الإقبال على الآخرة والاستكثار منها.

(351/2)

وكذلك التمسك ببعض الدنيا ومَقْتها، دليل ممن فعله على إكرام الآخرة ومحبتها، وعلى قدر يقين أولياء الله بما عظَّم من أمر الآخرة وأمورها، زهدوا في الدنيا فاستقلوا . جهدهم . من متاع غرورها، فتبلغوا إلى الله بالعلق، واكتفوا من نعيمها باللعق، إكبارا لما وجدوه فيها إجلالا لله من السخط، ولما عليه العباد فيها من الإعراض عن أمر الله والفرط، ولما رأوا الباطل يسمو علوًّا، وحق الله فيها معطلا مجفوا، صحبوا أيام حياتهم بالحُرق والزفرات، وهجروا ما أحل الله لهم فيها من الطيبات، وأعرضوا من الدنيا عما أعطاهم، ولم يعطه من أهل الدنيا بتحليله له سواهم، ولم يجعله حلالا فيها إلا لمن اهتدى إلى الله فيه هداهم، وأيقن فيها بالله يقينهم، ودانه في إيثار الحق دينهم، فحقيق بذلك منهم لسخطهم فيها على من أسخط ذا الجلال والإكرام، أوَلا تعلم . أغناك الله . أن من أسخط لنفسه الآدميين لَيَشتغل عن كثير من المطعم والمشرب والكلام، لما هو فيه من الشغل بحُرَقه وأَسَفه وسَخَطه، حتى ربما ذهب سخطُ بعضهم في ذلك بعقله لفرطه، فكيف بمن سخط وغضب لرب الأرباب ومغاضِبِه ؟ أليس ذلك أولى بالقليل في تنعمه ومطاعمه ومشاربه ؟ بلى إنه لأولى بذلك، وأحق ممن كان كذلك، ولَذلك أزكى عند الله وأرضى، وأوجب في الفرض لو كان من الله فرضا، ولكنه سبحانه لرحمته بالمؤمنين وإحسانه إليهم، ورأفته بهم و تحننه عليهم، جعل ذلك لهم سبحانه تطوعا ونافلة، وفيما بينهم وبينه فضائل لهم كاملة، فقال جل ثناؤه :؟ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين؟ [المائدة: 87]. وقال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وآله :؟ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة؟ [الأعراف: 32]. فجعلها لهم في الدنيا وأخلصها لهم في الآخرة، ولم يجعل معهم فيها حظا للكفرة ولا للفجرة .

(352/2)

وقال سبحانه :؟ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين؟[المائدة: 93]. فلم يجعلها الله

سبحانه إلا لمن اتقى، وحرَّمها على من فجر وتعدَّى، ولم يكن من أهل الإيمان بالله والهدى، فاستقل أولياء الله منها، وأعرضوا لسخطهم لله عنها، كما جاء في أثر عن عثمان بن مظعون، فيما كان حرَّم على نفسه من الأطعمة واللحوم، جعلنا الله وإياك من أوليائه، وأسعدنا وأسعدك بطاعته في يوم لقائه .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الأكرمين.

(353/2)

[تفسير قصار السور]

تفسير سورة الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

؟ الحمد لله ؟، تأويل: ؟ الحمد لله ؟ فهو الشكر لله (على نعمه وإحسانه، والتحميد لله والثناء عليه)، ومن الحمد قيل: محمود وحميد، كما يقال من الجود: جواد ومجيد.

والله لا شريك له، فهو الذي تأله إليه القلوب، ويستغيث به في كل كرباته المكروب، واليه يجأر الخلق كلهم جميعا ويألهون، وإياه سبحانه يعبد البررة الأزكياء ويتألهون، دون كل إله ورب ومعبود، وإياه يحمدون في كل نعمة قبل كل محمود.

وتأويل: ؟ رب العالمين ؟ فهو: السيد المليك، الذي ليس معه فيما ملك مالك ولا شريك.

وتأويل قوله سبحانه: ؟ العالمين ؟ فيراد به الخلق أجمعون، الباقون منهم والفانون، والأولون منهم والآخرون.

وتأويل: ؟ الرحمن ؟، فهو: ذو الغفران والمن والإحسان.

وتأويل: ؟ الرحيم ؟، فهو: العفوُّ عن الذنب العظيم، والناهي عن الظلم والفساد، لما في ذلك من رحمته للعباد، ضعيفهم وقويهم، وفاجرهم وبَرِّهم.

وتأويل ؟ ملك يوم الدين ؟ فهو: مالك أمر يوم الدين، الذي لا ينفذ أمر في ذلك اليوم غير أمره، ولا يمضي فيه حكم غير حكمه، والمَلِكُ : من المُلْكِ، والمالك: من المِلْكِ، وهما يقرءآن جميعا، وكلاهما معا (فلله، فهو يوم الجزاء والثواب والعقاب، وإنما سمي الدين لما يدان أي يجازى) قال: معنى يوم الدين فهو يوم يدان العاملون أعمالهم، ويجزون يومئذ بهداهم وضلالهم.

؟ إياك نعبد ؟ فهو: نوحد ونفرد.

؟ وإياك نستعين ؟ نسأل العون على أمرنا، وتوفيقنا لما يرضيك عنا.

؟ اهدنا ؟ وفقنا وأرشدنا.

؟ الصراط المستقيم ؟ والصراط: هو السبيل، الذي ليس فيه زيغ ولا ميل، قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

(354/2)

و؟ المستقيم ؟ فهو الطريق الواضح الذي افترضه الله إلى الطاعة، المعتدل الذي ليس فيه عوج ولا ميل، فهو لا يجور بأهله عن قصده، ومنه قوله تعالى: ؟ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون؟ [الأعراف: 86].

؟ صراط الذين أنعمت عليهم ؟ يقول: طريق الذين أنعمت عليهم من عبادك الصالحين، الذين وفقتهم وهديتهم لرشدهم.

؟ غير المغضوب عليهم ؟ تأويل ذلك غير المغضوب عليهم منك.

؟ ولا الضالين ؟ يقول: ولا صراط الضالين بالهوى والعمى عنك، لأنه قد ينعم جل ثناؤه في هذه الدنيا على من يضل عنه ومن لا يقبل ما جاء من الهدى والأمر والنهي، ولمن يغضب جل ثناؤه عليه من الكافرين، يقول: اهدنا صراطا غير صراط الذين غضبت عليهم، والمغضوب عليهم في هذا الموضع: فهم اليهود ؟ ولا الضالين ؟ يقول: ولا صراط الضالين، والضالون: فهم في هذا الموضع النصارى.

(355/2)

تفسير سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ؟ قل أعوذ برب الناس ؟ (هذا أمر من الله لنبيه أن يتعوذ، وأن يقول هذا القول، ومعناه: أستجير وألوذ برب الناس)، فالرب: هو السيد المليك (مالكهم وفاطرهم، والقادر عليهم والرازق لهم).

؟ ملك الناس ؟ والملك: فهو الذي ليس له في ملكه شريك معارض.

؟ إله الناس ؟ والإله: فهو الذي تأله إليه ضمائر القلوب، وهو الرب الذي ليس بصنع ولا مربوب.

وتأويل ؟ من شر ؟، فهو: من كل مفسد مضر. وتأويل ؟ الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس ؟ فهو: ما وسوس في الصدور ؟ من الجنة والناس ؟ والموسوس فقد يوسوس،

بحضوره في الصدور ويخنس، وقد تكون الوسوسة من الموسوس في الصدر، ما يكون فيه من الذكر والخَطْرِ. وخنوس الوسواس مفارقته وغيبته عن الصدور، ووسوسته فما ذكرنا من الخطر والحضور، وما ذكر الله عز وجل في ذلك من الوسواس، فقد يكون كما قال الله سبحانه: ؟ من الجنة والناس ؟، والناس (فهم الآدميون فأمر الله نبيه أن يتعوذ من شر شياطين الجن والأنس، وشر شياطين الجن والإنس فهم المغوون المردة الملاعين من جني أو إنسي.

وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟ شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض ؟ [الأنعام: 112]، وشياطين الإنس أقوى على الإنسان وأشد عليه من شياطين الجن.

وتأويل ؟ الوسواس الخناس ؟ فهو: الشيطان الخانس، فهو يخنس عن أعين الناس فلا يرونه، ومعنى يخنس: فهو يغبى فلا يرى، فهو الشيطان – عليه لعنة الله – يوسوس بحضوره في الصدور من الذكر والخطرة، بالوسوسة والإغواء والفسق والردى، حتى يدخل بحب المعاصي في الصدور)، وقد تكون الوسوسة من الفريقين بالمشاهدة والمحاضرة، وقد تكون منهما الوسوسة بالذكر والخطرات الخاطرة، وأي ذلك كان في الصدور بخاطرة تخطر، أو حضور – فهي وسوسة، من شيطان أو إنسان، بما يجول منهما في الصدور والجنان.

(356/2)

تفسير سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قول الله سبحانه: ؟ قل أعوذ برب الفلق ؟ ؟

تأويل ؟ قل أعوذ برب الفلق ؟ أعوذ: هو أستجير، وتأويل الرب: فهو السيد المليك الكبير، وتأويل الفلق: فهو الفجر إذا انفلق، وكذلك يقول الناس: انفلق الفجر وبدا، إذا تبين وظهر وأضاء، وفي ذلك وبيانه أشعار كثيرة لا تحصى، لشعراء الجاهلية الأولى.

؟ من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد ؟ فأمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ به من شر خلقه في النهار كله، وأن يستعيذ به من شر جميع خلقه في ليله، ولا يكون شر إلا في ليل أو نهار، وإلا بعد غسق أو انفجار.

والفلق: فأول الفجر وفلوقه، قال لبيد:

الفارج الهم مسودا عساكره كما يفرج جنح الظلمة الفلق

والغسق: فأول الليل. وغسوقه: ظلمته، كما قال ابن عباس: غسق الليل أول الليل وظهوره وظلمته، فقد أتى على ذلك كله استجارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستعاذته، وغسق الليل ووقوبه: فهو وجوبه.

وأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مع استعاذته به من شر الليل والنهار، أن يستعيذ به – لا شريك له – من شر السواحر والسحار، والسواحر: هن النفاثات في العقد (وأمره أن يستعيذ به من شر الحاسد عند الحسد إذا حسد)، والنفث: فهو التفل على العقدة إذا عقدت، والعُقَدُ: فهي عُقدٌ يعقدها السواحر في خيط أو سَير، وسواء كان العقد كبيرا أو غير كبير، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالاستعاذة من شر الحاسد عند حسده، من مباينته بجسده.

(357/2)

تأويل ؟ إذا ؟ – هاهنا – عند، وسواء قيل: عند، أو إذا، معنى هذا هو معناه، (وشر الحاسد ما يكون من ضره ومكره وعداوته وكيده وغير ذلك)، وليعلم – إن شاء الله – من قرأ تفسير هذه السور الثلاث وما بعدها من التفسير، أن كل ما فسرنا من ذلك كله فقليل من كثير، وأن كل سبب من كلمات الله فيه فموصول بأسباب، عند من خصه الله بعلمها من أولي النهى والألباب، لا ينتهى فيه إلى استقصائه، ولا يوقف منه على إحصائه، كما قال سبحانه: ؟ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ؟ [الكهف: 109]، فكلام الله جلَّ ثناؤه في الحكمة والتبيين والهدى، فما لا يدرك له أحد غير الله منتهى ولا مدى، وكلام غير الله في الحكمة وإن كثر وطال، وتكلم منه قائله بما شاء من الحكمة فأقصر أو أطال، فقد يدرك غيره من الخلق غايته ومنتهاه، وكل وجه من وجوه كلامه فلا يفتح وجها سواه ؛ لأن علمه ينفد، وكله فيحصى ويعد، وكلمات الله سبحانه كما قال لا تنفد بإحصاء، ولا يؤتى على ما فيها من خفايا العلم باستقصاء، وقليلُ علمها فكاف – بمنِّ الله – كثير، وكلها فضياء ونور وهدى وتبصير (وبعد: فإنا بالله نستعين نعلم بأن غيرنا ممن لعله سيقرأ كتابنا هذا وتفسيرنا، أن لولا ما رأينا في الناس، من الغفلة والحيرة والالتباس، في معرفة ما جعل الله عز وجل لكتابه من سعة من المخارج، وأبان به وفيه من جوادّ المناهج، التي قرب لرحمته سبلها، وخص بعلم قصدها أهلها، لما تكلفنا إن شاء الله من ذلك ما تكلفنا، ولاعنينا فيه بوصف ما وصفنا، لما ينبغي أن يكون عليه اليوم مَن اهتدى، فوهبه الله عصمة ورشدا، من الشغل بخاصة نفسه، والوحشة من ثقته وأنسه، ولكنا أحببنا أن يعلم مَن جَهِلَ ما قلنا من سعة فنون الكتاب المكنون، لما جعل فيه من العلم لأولي الألباب، سيوقن أن للكتاب ظهورا وبطونا، وأن فيه بإذن الله لأولي الألباب علما مكنونا، لا يظفر أبدا به،

(358/2)

إلا من كان مريدا فيه لربه، والحمد لله رب العالمين لا شريك له).

(359/2)

تفسير سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

سألت أبي رحمه الله عن قول الله سبحانه: ؟ قل هو الله أحد ؟ ؟

فقال: الأحد: هو الواحد.

وعن قوله سبحانه: ؟ الصمد ؟ ؟

فقال: الصمد: هو النهاية والمعتمد، الذي ليس وراءه مصمود، ولا سواه إله معبود، ؟ لم يلد ؟ تبارك وتعالى ولدا ؛ فيكون لولده أصلا ومحتدا، ؟ ولم يولد ؟ فيكون حدثا مولودا، ويكون والده قبله شيئا موجودا، ؟ ولم يكن له كفؤا أحد ؟ والكفؤ: فهو المثل والنظير، والأحد: فهو ما قد تقدم فيه منّا البيان والتفسير، فهو الله الأحد الواحد الذي ليس كالآحاد ؛ فيكون له ند في وحدانيته من الأنداد، وأنه هو الأحد الصمد، والنهاية في الخيرات والمعتمد، الذي ؟ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، يعلم ما في السماوات والأرض وهو العليم الخبير ؟ [الشورى:11- 12].

(360/2)

تفسير سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته رحمة الله عليه عن قوله: ؟ تبَّت يدا أبِي لهبٍ وتبَّ ؟ ؟

فقال: أبو لهب: هو عبد العزى بن عبد المطلب، وتأويل ؟ تبت ؟ فهو: خابت وخسرت، فيما رَجَتْ وقدَّرت. واليدان: فهما اليدان المعروفتان، وهما مَثَلٌ قد كان يضرب به لمن خاب وخسر فيما يطلب، ؟ وتب ؟ يعني: أبا لهب كله، فيما عليه من أمره وماله.

؟ ما أغنى عنه مالُه وما كسبَ ؟ تأويله: ما أجزأ عنه ماله وكسبه إذ هلك عند الله سبحانه وعطب بضلاله، وسيء أعماله.

؟ سيصلى ناراً ذات لهبٍ ؟ وذات اللهب من النيران: فهي ذات التوقد الشديد والإستعار، ؟ وامرأته حمَّالة الحطب ؟، تأويله: فقد تبت امرأته معه تَبَابَه في الهلكة والعطب، وتأويل ؟ حمالة الحطب ؟، فقد يكون: حملها للنمائم والكذب، الذي كانت تكذبه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتأتي

به زوجها وتنقله إليه، وتنقله إلى غيره ممن كان من الكفر في مثل ما هي وما هو فيه، لتفسد بكذبها وتغري، وتكثر نمائمها وتسري، على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، كما يكثر ويسري الكذوب النمام ؟ في جيدها حبل من مسد ؟ وجيدها: فهو عنقها، والجيداء من النساء: فهي التي قد تم في طول العنق خلقها.

وتأويل ؟ حبل من مسد ؟، فهو: الحبل الوثيق المحصد، وقد يكون حبل من قِدّ، والقدُّ: فقد يكون من جلود الإبل، وهو أوثق ما يكون من الأحبال، وهو مَثلٌ يضرب لمن يحمل كذبا أو زورا، ليلقي به بين] الناس عداوة وشرورا.

وقد قال بعض من فسر فيما ذكرنا من امرأة أبي لهب وأمرِها: إن تفسير حملها للحطب إنما كانت تحمل الشوك فتطرحه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ممره ومسلكه، وقالوا: إن ؟ حبل من مسد ؟ هو حبل من ليف.

(361/2)

تفسير سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته أيضا رحمة الله عليه عن قول الله سبحانه: ؟ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ؟ ؟

فقال: تأويل جاء: هو أتى، وتأويل النصر: هو ما يفعل من الظهور والقهر، والفتح من الله فهو: حكم الله بالإمضاء، فيما حكم به وأوجبه من الجزاء، لمن أحسن بإحسانه، ومن عصى بعصيانه، وهو الذي طلب شعيب عليه السلام ومن آمن معه من الله فقالوا: ؟ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ؟[الأعراف:89]، يريدون احكم بيننا وبينهم بالحق يا خير الحاكمين، فاجزهم جزاءهم، وعجل إخزاءهم.

وتأويل ؟ ورأيت الناس ؟ فهو: رؤيتهم يدخلون، فيما جئت به من الملة والدين. والأفواج من الناس: فهو ما يرى من الجماعات، التي تأتي من القبائل والنواحي المختلفات، شبيه بما كان يفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وفود القبائل والبلدان، من عقيل وتميم وأهل البحرين وعمان، ومن كل الأمم فقد كان وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقدم، فآمن بالله جل ثناؤه وبرسوله وأسلم.

؟ فسبح بحمد ربك ؟ تأويل فسبح: فاخشع واشكر لله حامدا له فيما يرى بعينه، من إظهار الله له ولدينه، وصدق وعده في إظهاره على من ناواه، وما أراه من ذلك بنصره له بكل من والاه، في أيام حياته، وقبل حِمَامِ وفاته.

(362/2)

وتأويل ؟ واستغفره إنه كان توابا ؟ فأمره بالإستغفار، إذ تم ما وعده الله من الإظهار، وتأويل التواب: فهو العوَّاد بالرحمة، وبالنعمة منه بعد النعمة، وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أنزلت ؟ إذا جاء نصر الله والفتح ؟ إليه وأُمر فيها بالإستغفار، ورأى ما رأى من الإظهار، قال عليه السلام: (نعيت إليَّ نفسي وأخبرت بعلامات موتي)، فصدق في ذلك كله نصر الله من الله الخبر، حين أتاه من الله الفتح والنصر، فتوفي صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرا منصورا، وقبضه إليه بعد أن جعل ذنبه كله له عنده مغفورا، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه فيه، صلوات الله عليه: ؟ إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا ؟ [الفتح: 1-3]، فنحمد الله على ما خصه في ذلك من نعمائه، ونسأل الله أن يزيده في الدنيا والآخرة من كراماته.

(363/2)

تفسيرسورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته أيضا رحمة الله عليه عن تفسير: ؟ قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين ؟ ؟

فقال: أمر من الله جلَّ ثناؤه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لمن كفر بربه، ولم يوقن بما أيقن من توحيد الله به: لستُ أيها الكافرون بعابد ما تعبدون مع الله، ولستم عابدين من التوحيد بما أنا به عابد لله، وما أنا على حال بعابد لما تعبدون من الأصنام، ولا أنتم بعابدين لله بالتوحيد والإسلام، وكذلك من الله، الأمر فيمن أشرك بالله، ما كانت الدنيا والى يوم التناد، فليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعابد لغير الله، ولا هم بالتوحيد لله بعابدين، والصدق بحمد لله ذي المن والطول، في ما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول به من القول، لا مرية في ذلك ولا شبهة، ولا يختلف فيه بمنِّ الله وجهة، ولذلك وَكدَّ فيه من القول ما أكد، وردد فيه من التنزيل ما ردد.

(364/2)

تفسير سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن تأويل: ؟ إنا أعطيناك الكوثر ؟ ؟

فقال: تأويله: آتيناك، وآتيناك: هي وهبناك الكوثر، والكوثر: فهو العطاء الأكبر، وإنما قيل: كوثر من الكثرة، كما يقال: غفران من المغفرة، فعرَّف الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من عباده، بما مَنَّ الله عليه من نعمته ومنّه وإرشاده، التي أقلُّها برحمة الله كثير، وأصغرها بِمَنِّ الله فكبير، لا يُظْفَر به إلا بِمَنِّ الله، ولا يُصَابُ أبداً إلا بالله.

وتأويل ؟ فصل لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر ؟: فأمرٌ منه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يصلي صلاته كلها لربه، وربه: فهو الله تبارك وتعالى الذي أنعم عليه من النعم والكرامة بما أنعم به ؛ لأنه قد يصلي كثير من المصلين لغير الله مما يعبدون، ويصلي أيضا بعض أهل الملة بالرياء وإن كانوا يقرون ويوحدون.

وأمره سبحانه إذا نحر شيئا من النحائر قربانا لربه، ألا ينحره عند نحره له إلا لله وحده ربه ؛ لأنه قد كان ينحر أهل الجاهلية للأصنام والأوثان، ويشركون في نحائرهم بينها وبين الرحمن، ويذكرون أسماء آلهتهم عند نحرها، ويذكرون الله جلَّ ثناؤه عند ذكرها، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ؟ [الأنعام:121]، يعني اسمه خالصا، وما لم يكن له جلَّ ثَنَاؤُهُ من النحائر والذبائح خالصا.

(365/2)

وأخبر سبحانه رسوله صلَّى الله علَيهِ وآلِهِ وسلَّم أن من شنأه فأبغضه من البشر، فهو مخذول ذليل أبتر، ليس له عِزٌّ مع بغضه له وشنئنه ولا مُنتَصر، إكراما من الله جل ثناؤه لرسوله، صلَّى الله علَيهِ وعلى آله، وإخزاء لمن شَنِئَه وأبغضه، ولم يؤد إلى الله في محبته فرضه، فنحمد الله على ما خص به رسوله من كراماته، وأوجب على العباد من محبته وولايته، وقد قيل: إن الكوثر نهر في الجنة خص الله رسوله به، وجعله جلَّ ثَنَاؤُهُ في الجنة له، وقالوا: إن شانئه الأبتر المذكور في هذه الآية قصده هو عمرو بن العاص السهمي خاصة، وتأويل ذلك إن شاء الله وتفسيره، هو كل من شَنَئَه عمرو كان أو غيره.

(366/2)

تفسير سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته صلوات الله عليه عن تأويل: ؟ أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يرآؤن ويمنعون الماعون ؟ ؟

فقال: تأويل ؟ أرأيت ؟ هو تعريف، وتبيين من الله وتوقيف، لرسول الله صلَّى الله علَيهِ وآلِه، ولمن آمن بما أنزل من الوحي والكتاب إليه، لا رؤية مشاهدة وعيان، ولكن رؤية علم وإيقان، كما يقول القائل لمن يريد أن يعرفه شيئا إذا لم يكن ذلك الشيء له ظاهرا جليا: أرأيت كذا وكذا يعلم علمه، يريد بأرأيت توقيفه على أن يعرفه ويعلمه، على حدود ما فهمه منه وأعلمه، فأعلم الله سبحانه رسوله صلَّى الله علَيهِ وآله وسلم ومن نزل عليه معه وبعده هذا البيان، أن الذي يكذب بيوم الدين من الناس أجمعين، ويوم الدين: فهو يوم يجزي الله جلَّ ثَنَاؤُهُ العاملين، بما كان من أعمالهم، في هداهم وضلالهم، وهو يوم البعث حين يدان كل امرء بدينه، ويرى المحسن والمسيء جزاء العامل منهما يومئذ بعينه، وتكذيب المكذب بيوم الدين، فهو: ارتيابه وإنكاره فيه لليقين، وذلك، ومن كان كذلك، فهو الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، ولارتيابه فيه وتكذيبه، ولقلة يقينه به، دَعَّ اليتيم ودَعُّه له: هو دفعه، عن حقه ومنعُه، وتكذيب المكذب بالدين، لم يحض غيره على إطعام المسكين، وفيه وفي أمثاله ما يقول الرحمن الرحيم: ؟ ويل للمصلين ؟، يعني: من غير أبرار المتقين، وهم الفجرة الظلمة المنافقون، ؟ الذين هم ؟ كما قال الله سبحانه: ؟ عن صلاتهم ساهون ؟، والساهون: فهم الذين هم عن صلاتهم ووقتها لاهون، ليس لهم عليها إقبال، ولا لهم بحدود تأديتها اشتغال، فنفوسهم عن ذكر الله بها ساهية، وقلوبهم بغير ذكر الله فيها لاهية، ؟ الذين هم يرآؤن ؟ وهم: المراؤن الذي ترى منهم عيانا الصلاة، وقلوبهم بالسهو والغفلة عن ذكر الله مُملاة.

(367/2)

؟ ويمنعون الماعون ؟ هو ما جعل الله فيه العون من المرافق كلها، التي يجب العون فيها لأهلها، من غير مفروض واجب الزكوات، وما ليس فيه كثير مؤنة من المعونات، مثل نار تقتبس، أو رحى أو دلو يلتمس، وليس في بذله، إضرار بأهله، وكل ذلك وما أشبهه، فماعون يتعاون به، ويتباذله بينهم المؤمنون، ومانعوه بمنعه له مِنْ طالبه فمانعون، وهم كلهم بمنعه لغيرهم فذامون.

وما ذكر الله سبحانه من قوله: ؟ فويل للمصلين ؟ فقول لمن كان قبله، من ذكره بمنع الماعون، موصول في الذم والتقبيح، وما يعرف في التقبيح فصغيره صغيره، وكبيره كبيره، وكله عند الله فمسخوط غير رضي، وخلق دني من أهله غير زكي، تجب مباينته، ولا تحل مقارنته، إلا لعذر فيه

بَيِّن، وأمر فيه نَيِّر، والحمد لله مقبح القبائح، والمنان على جميع خلقه بالنصائح، الذي أمر بالبيان والإحسان، ونهى عن التظالم والعدوان.

(368/2)

تفسير سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

؟ لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ؟ المعنى: هو إِلْفُهُم وإِيلافُهُم فقريش من أنفسهم وحليفهم، ومن جاورهم في الحرم ولفيفهم، فكل من كان يسكن في الحرم في مسكنهم، ويأمن بمكانه معهم في الحرم بأمنهم، ويرحل معهم إذا أراد أمْناً الرحلتين، وينتقل معهم الطعام والإدام في السنة نقلتين، لا يعرض لهم أحد من العرب بقطع في الطريق، وليسوا في شيء مما فيه غيرهم من الخوف والضيق، والعرب كلهم خائفون جياع، وهم كلهم آمنون شباع، لحرمة البيت عند العرب وتعظيمه وإجلاله، ولإِكْبَارِهم القطع على سكان الحرم ونُزَّاله، فذكَّرهم في ذلك تبارك وتعالى بنعمته، وبما مَنَّ به تعالى من بركة الحرم وحرمته.

وفي ذلك وذكره، وما ذكرنا من أمره، ما يقول الله سبحانه: ؟ أولم نمكن لهم حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ؟ [القصص:57]، وفيه ما يقول الله سبحانه: ؟ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟ [العنكبوت: 67].

وتأويل ؟ فليعبدوا ؟، هو: فليوحدوا، ومعنى ليوحدوا: فهو ليخلصوا، ومعنى ليخلصوا: فهو ليفردوا بعبادتهم، وليخصوا ؟ رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ؟ الذي بمكانهم منه، وبما كان من مجاورتهم له، أُطعِمُوا من جوع، وأُومنوا من خوف، فلم يجوعوا جوع الجائعين، ولم يخافوا خوف الخائفين، فكلهم يعلم ويقول: إن البيت بيت الله ذي الجلال والإكرام، لا بيت ما عبدوا دونه من الملائكة والأصنام، وأن الله سبحانه هو الذي حرَّم الحرم، وجعل له تبارك وتعالى الجلالة والكرم، لا الملائكة المقربون، ولا الأصنام التي يعبدون، فأمرهم جلَّ ثَنَاؤُهُ أن يعبدوه وحده، وأن يوجبوا شكره وحمده، على ما صنع لهم وأولاهم، ووهب لهم بحرمة بيته وأعطاهم.

(369/2)

تفسير سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قول الله سبحانه: ؟ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ؟.

معنى ؟ تر ؟ في مخرج التأويل: ليس هو برؤية العين، ولكنه علم اليقين ؛ لأن رسول الله صلَّى الله علَيهِ وآله وسلم لم ير ذلك بعينه، ولكنه رآه بعلمه ويقينه، وبما ذكر الله جلَّ ثَنَاؤُهُ عنه، وبما وصفه الله به منه، وسواء قيل: ألم تر، أو قيل: ألم تعلم، معناهما واحد في اليقين و العلم.

وتأويل ؟ كيف فعل ربك ؟ هو كيف صنع، وأصحاب الفيل: فهم من جاء معه، أو بعث به وإن تخلف عنه، فكل من كان للفيل صاحبا، مَنْ بَعَثَ وإن لم يصحبه ومن كان له مصاحبا.

وتأويل ؟ كيدهم ؟، فهو إرادة مريدهم، والإكادة: فهي الإرادة، كما قال الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة لولا الوشاة بأن نكون جميعا

وذلك أن أصحاب الفيل كادوا، ومعنى ذلك: هو أرادوا، أن يخربوا الكعبة، ويجعلوها متهدمة خربة، لأن العرب خربت كنيسة كانت يومئذ للحبشة، وكان يومئذ فيهم وملك عليهم رجل من العرب من أهل اليمن يقال له: أبرهة بن الصباح، وكان يدين دينهم، فهو الذي بعثهم، فأرسل الله سبحانه على أصحاب الفيل كما قال تبارك وتعالى: ؟ طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول ؟ لا يصيب حجر منهم أحدا إلا قتله وأهلكه، ولم يكن له بقاء معه ولا بعده، والطير الأبابيل فهي الطير الكبير الأراعيل، التي تأتي من كل جهة، ولا تأتي من ناحية واحدة، والسجيل: فهو فيما يقال: الطين، المستحجر الصلب الذي ليس فيه لين، فهو لا يقع على شيء إلا حطمه، وفَتَّهُ وهشمه، وجعله كما قال الله سبحانه كالعصف المأكول، والعصف: فهو عاصفة قصب الزرع البالي المدخول، الذي قد دُخل وأُكل، وتناثر وتهلهل، والمأكول منه فهو الذي لا جوف له، والذي قد أنهت جوفه كله.

(370/2)

تفسير سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قول الله سبحانه: ؟ ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخلده، كلا لينبذن في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، إنها عليهم مؤصدة، في عمد ممددة ؟ ؟

فتأويل ما ذكر الله من الويل: ما يعرف من الحرقة والعويل، و الخزي الكبير العظيم الجليل، والهُمَزَةُ

من الناس: فهو من يغتاب صاحبه ويغمزه، والهُمَزَة واللُّمَزَةُ: فهو الذي يعيب حقا أو محقا ويهمزه، والهمزة: فهو الباخس المغتاب، واللمزة: هو الهامز العياب. وجمعه للمال: فهو اكتنازه له واجتهاده، وتعديده له: فهو إرصاده له وإعداده، بما في يده من ماله، لما يخشى من نوائب حاله.

وتأويل ؟ يحسب ؟ هو أيحسب استفهاما وتوقيفا، وتبيانا له وتعريفا، على أن ما جمع وأعد من مال، لنوائب مكروهه بحال، لن يخلده فينقذه، ولن يدفع عنه، ويقيه ما يخشى ويتقي من مكروه النوائب، كيف وهو لا يدفع عنه من الموت أكبر المصائب ؟! لا ينتفع عند الموت به، ولا بكده فيه وكسبه، وكذلك كلما أراده الله به من ضر سوى الموت، فليس يقدر له بجمع ماله وإعداده على خلاص ولا فوت، في عاجل دنياه، وكذلك هو في مثواه، يوم القيامة، إذا نبذ في الحطمة، ونبذه فيها، إلقاؤه إليها، والحطمة: فهي الأكول لأهلها باستعارها وحرها، وهي النار التي جعل الله وقودها كما قال سبحانه بما جعل من حجارتها وأهلها في قرارها، وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى للمنذرين: ؟ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ؟ [البقرة: 24]، فنار الآخرة جعلت نارا، فطرها الله يومئذ افتطارا، من غير حديد ولاحجر ولا شجر، ولا أصل لها قبلها مفتطر، كما نراه من هذه النار، التي جعل أصلها من الحجر والأشجار، كما قال سبحانه: ؟ أفرأيتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ [الشعراء: 71 – 72].

(371/2)

ولو كانت نار الآخرة كهذه النار، لكان وقودها بما توقد هذه النار من أشجار، ولكن الله عز وجل جعل أصلها، حجارتها التي فيها وأهلها، فتوقدت واستعرت لذلك بهم، كما يوقد أهل هذه النار نارهم بحطبهم، فأهلها حطبها، كما هم حصبها، كما قال الله سبحانه: ؟ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ؟ [الأنبياء: 98]، فأهل جهنم بخلودها، ودوام وقودها، فيها خالدون، لا يفنون أبدا ولا يبيدون، كما يعود الحطب رمادا خامدا، ورفاتا جامدا، كذلك تعود جلود أهل النار – نار الآخرة – رفاتا، وشيئا هامدا باليا مايتا، فيجدد الله ذلك بعد بلائه وتهافته تجديدا ؛ ليخلد الله بالتجديد له أهل النار فيها تخليدا، كما قال سبحانه: ؟ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ؟ [النساء: 56]، فنار الآخرة أبدا بحجارتها وأهلها موقدة، وحجارتها وجلود أهلها كلما بليت فمعادة، تقدير من عزيز حكيم، لبقاء عذاب الجحيم.

وتأويل قوله: ؟ تطلع على الأفئدة ؟، فهو: ما يصل إلى قلوب أهلها من الكرب والشدة، وتأويل ؟ إنها عليهم موصدة ؟، فهو: مطبقة مغلقة، وإغلاق جهنم فهو ما ذكر الله عز وجل من أبوابها، والإيصاد للأبواب الذي هو التغليق عليهم فهو من شدة عذابها، وما ذكر الله من الإطباق والغلق:

فهو أكبر الغَمِّ والألم والحرق، كما قال سبحانه: ؟ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ؟ [السجدة: 20].

(372/2)

وتأويل ؟ في عمد ممددة ؟، بعد ذكره تبارك وتعالى المؤصدة، فهو: ما يغلق به أبواب جهنم المؤصدة المطبقة، في عَمَد معروضة على أبوابها ممددة، كالمهاج والأوصاد التي تجعل على الأبواب المغلقة، ونحو ذلك من الأغلاق، والغلق: فأوثق ما يغلق به كل مُغلِق أراد إغلاق الباب، وذلك أنه يأخذ ما في طرفي المغلق كله، وليس يأخذ ذلك من الإغلاق كلها غلق، وإنما يغلق كل غلق من الأبواب ما يغلق، إن كان قفلا، فإنما يغلق واسطة الأبواب، وإن كان غير ذلك فإنما يغلق جانبه من كل باب، فأما المهج والرصد فيغلق الباب كله، ويستقصى في الغلق آخره وأوله، ولاسيما إذا كان ممتدا ثابتا، مهجا كان أو رصدا، فأبواب جهنم وأغلاقها كلها، كالمقامع التي ذكر الله من الحديد لا تبيد، كما مقامع أهلها فيها إذا أرادوا أن يخرجوا منها حديد، كما قال سبحانه: ؟ ولهم مقامع من حديد ؟ [الحج: 21]، ألا فسبحان من جمع في جهنم ما جمع من أنواع الخزي والضيق للظلمة الملحدين !! فقيل في يوم البعث لهم جميعا: ؟ ادخلوا أبواب جهنم خالدين ؟ [الزمر: 72].

(373/2)

تفسير سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قول الله سبحانه: ؟ والعصر إن الإنسان لفي خسر ؟ ؟

فالعصر: قد يكون من آخر النهار، ويكون الدهر، فَأَشْبَهُ ذلك – والله أعلم بالتأويل، وما يصح فيه من الأقاويل – أن يكون العصر الذي بعد الظهر، لا العصر الذي من الدهر، وإن كان كل ذلك وقتا، وكان ذلك لكلا الوقتين نعتا، كان أفضل الأوقات، ما كان لصلاة من الصلوات، وكان تأويل القسم به أشبه، وأفضل وأوجه، والله أعلم وأحكم.

وكان تأويل أنه قسم كما أقسم بالفجر، والليالي العشر، لفضلهما وقدرهما، وما ذكر الله من أمرهما. والعصر والأعصار من النهار، فهو بعد الظهر والإظهار، وإذا كان الدهر وقتا كله، كان ما كان منه للصلوات هو أفضله، والأفضل هو الأولى بالتقدم، في القسم وغير القسم.

وأما تأويل الخسر، فهو النقص في الخير والبر، ولم يكن من الناس في خير ولا بر، فهو كما قال

الله عز وجل: ؟ لفي خسر ؟، وكل الناس فغير مفلح ولا رابح، إلا من عمل لله بعمل صالح، كما قال سبحانه: ؟ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ؟.

وتأويل الإيمان، فترك كبائر العصيان.

وتأويل: ؟ وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ؟ فهو: عملهم لله صالحات، وهي أولى الأعمال بهم، لما فيها من رضى ربهم، وصلاحهم وصلاح غيرهم.

وتواصيهم بالحق: فهو تآمرهم بطاعة الحق. وتواصيهم بما ذكر من الصبر: هو تآمرهم بالمقام على البر، وعلى ما يعارضهم في المقام عليه من اليسر والعسر، وما يقاسون فيه من منابذة المبطلين، ومن ليس بمراقب ولا متق لرب العالمين، من الفجرة المستهزئين، والجورة المتغلبين المتمردين.

(374/2)

تفسير سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قوله سبحانه: ؟ ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر ؟ ؟

ف[قال:] تأويل ؟ ألهاكم ؟: هو أغفلكم عما عليكم في المعاد، ولكم بما أنتم فيه من تكاثركم بالولد والمال والعشائر، وتفاخركم بما في ذلك عندكم من الخيلاء والمفاخر، ولذلك وبه شغلوا، وألهوا فغفلوا، بكدهم فيه، وكدحهم وتكالبهم عليه، وشحهم عن رشادهم، وتيقن معادهم، ولما في التكاثر بالأموال، وما في التشاغل بالتكاثر من الأشتغال، طهر الله منه خيرته من الرسل والأبرار، فلم يكونوا بأهل مكاثرة ولا بتُجَّار.

وتأويل ؟ زرتم المقابر ؟ هو مصيرهم إليها، واتصالهم بالآخرة وإشرافهم عليها.

وتأويل ؟ كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين ؟، هو تكرير من الله تبارك وتعالى في ذلك كله عليهم للتعريف والتبيين، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ؟ لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين ؟، يقول جل ثناؤه: لترون ما وعدتم منها رأي العين عين يقين.

وتأويل ؟ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ؟ هو: لتوقفن حينئذ على ما كنتم فيه قبل متوفاكم، وفي حياتكم ودنياكم، من النعيم، والمن العظيم، الذي كانوا يتنعمون به في الحياة الدنيا وبقائها، وقبل ما صاروا إليه من الآخرة وشقائها. وليس مما نزل الله عز وجل من آياته في هذه السورة، ولا غيرها طويلة ولا قصيرة، إلا وفيها بمن الله دلالات خفية باطنة وظاهرة منيرة، ففي أقل ظاهرها ما كفى وأغنى، وفي خَفِيِّهَا من الحكمة والبركة ما لا يفنى.

(375/2)

تفسير سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته عن قول الله سبحانه: ؟ القارعة، ما القارعة، وما أدراك ما القارعة ؟ ؟

فالقارعة: ما هال من الأمور وقرع، وهجم على أهله بغتة بأهواله فأفزع.

وأما تأويل ما أدراه، فهو: تعظيم منها لمرآه، وما سيعانيه فيها ويراه، من الأهوال والأمور الفادحة، وجزاء الأعمال الصالحة والطالحة، حين تقوم القيامة، وتدوم الحسرة والندامة، على كل خائب وخاسر، وظالم معتد فاجر، ألا تسمع كيف يقول سبحانه عند بعثه فيها لخلقه المبعوث: ؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ؟، وتأويل ؟ يكون ؟ فهو يصير، والفراش فَطَيرٌ صغير خفيف عند من يراه حقير، من همج الأرض والطير، تُمثِّل به العرب في الكثير، لأنه كثير ضعيف، وطير محتقر خفيف، فتقول إذا استكثرت شيئا أو استضعفته، واستقلت وزنه فاستخفته: ما هذا إلا كالفراش في الخفة والقلة، وللقوم إذا استكثروهم كالفراش في الكثرة والجمَّة.

وانبثاثه: فهو انبعاثه متحيرا وطائرا في كل وجهة من الجهات، يموج ويصدم بعضه بعضا في تلك الوجوه المختلفات، فمثَّل الله سبحانه الناس في يوم البعث، بما وصفنا من الفراش المنبث، الذي يموج بعضه في بعض، ويسقط تهافتا على الأرض، لما ذكرنا من كثرته، وموجه وحيرته، واختلاف جهاته، ويومئذ يدعوهم من تلك النواحي المختلفات الداع، فيستجيبون لدعوته كلهم جميعا باستماع، كما قال سبحانه: ؟ يومئذ يتبعون الداعي لاعوج له ؟ [طه: 108]، تأويلها: لا اختلاف لهم بعدُ معه، كما كانوا يختلفون في المذاهب قبل دعائه، وما سمعوا وهم في حيرتهم من ندائه، كما قال سبحانه: ؟ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ؟ [ق: 41] وهو يوم الإصاخة بالأسماع، لتسمع صوت المنادي الداعي، وفي ما ذكرنا من هذه الإصاخة، ما قيل في يوم الصاخة: ؟ فإذا جاءت الصاخة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ؟ [عبس: 33 - 37].

(376/2)

وتأويل: ؟ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ؟ فالعهن: هو الصوف الناعم اللين الذي ليس يُقرد، وذلك من الصوف فما يلين للنفش في اليد، وينتفش ويتجافى، ويعود خفيفا أجوفا، وقد تفرقت أجزاؤه، وبان جفاؤه، فعاد قليله كثيرا، وصغيره كبيرا، لتحلله وتمزقه، وتزايله وتفرقه، كذلك تبلى الجبال إذا بليت، وتفنى يوم القيامة إذا فَنِيَت، فتكون كالسراب الرقراق، في الفناء والتهيء والإمتحاق، وفي جزاء

الأعمال، بعد تلك الأهوال، يقول الله سبحانه: ؟ فأما من ثقلت موازينه ؟، تأويلها: من ثقل في الوزن بره وإحسانه، فسعد بثقله، وثَقُلَ بعمله.

وتأويل ؟ في عيشة راضية ؟، فهو في عيشة مرضية زاكية، وإنما يعرف أمر الخفة يومئذ واليوم والثقل، بما يعرف منها اليوم في الحال والقدر والعمل، وليس نعلم الخفة والثقل يومئذ في المقادير والأوزان، بمثاقيل يوزن بها من خف وثقل وجِرمان ولكنه يعرف – والله محمود – بما ذكرنا من العبرة والبيان، وما تعرفه العرب العاربة في اللغة واللسان.

؟ وأما من خفت موازينه ؟، فتأويله: من خف به فسقه وعدوانه. ؟ فأمه هاوية ؟، تأويل أمه: فهو من مصيره ومهواه، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ؟ وما أدراك ماهيه، نار حامية ؟ فكانت النار الحامية التي صار إليها، أمه التي نسبه الله إليها ؛ إذ كانت له مقرا ومأوى، وَقَرَّ بِهِ فيها المصيرُ والمثوى، والنار الحامية: فهي التي لا يطفيها مطفيه، ما كانت باقية أبدا، و التي من دخلها كان فيها مخلدا.

(377/2)

تفسير سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألت أبي رحمة الله عليه عن قول الله سبحانه: ؟ والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا ؟ فالعاديات: من كل ذات ظلف، أو حافر صلب أو خف: من كل بهيمة جِنّية، وحشية أو إنسية.

وتأويل قوله: ؟ صبحا ؟، فهو: عدوا ومرحا، و؟ الموريات قدحا ؟ فهو: ما يورين ويقدحن، إذا عَدَونَ وضبحن، بصلابة الأظلاف، والحوافر والأخفاف، من نار الحجارة والحصى، والأرض الصلبة الخشنى، فيورين النار من ذلك كله بإيقاد، كما تُورَى وتُقْدَحُ النارُ بالزناد.

و؟ المغيرات صبحا ؟ فيما أرى – والله أعلم – خاصة الخيل، بينهن وبين غيرهن من ذوات الحافر في العَدْو والقدر واليُمن من الفرق النَّيِّر الجليل، ولخاص ما فيهن من النعمة والبركة والخير، قُدِّمن – إن شاء الله – في الذكر على البغال والحمير، فقال الله سبحانه: ؟ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ؟ [النحل: 8].

وتأويل ؟ فأثرن به نقعا ؟ والنقع: هو الغبار المثار ؟ فوسطن به جمعا ؟ هو: توسطهن بغبارهن للجمع الذي عليه كان المغار.

وتأويل ؟ إن الإنسان لربه لكنود ؟، هو الكافر لنعم الله بكبائر عصيانه الفاجر العنود.

وتأويل: ؟ وإنه على ذلك ؟: من حاله وعدوانه، ؟ لشهيد ؟ لربه بنعمته وإحسانه، ما يرى عليه من النعمة والإحسان، وما بيَّن فيه من حسن الصنع والإتقان، وتأويل ؟ وإنه لحب الخير لشديد ؟، فهو:

أنه لمحب للخير مريد، لا يضعف فيه ضعفه في غيره، من طاعة الله ودينه وأمره، وكفى بذلك فيه شرا، ومنه لربه فيه كفرا، ؟ أفلا يعلم إذا بعثر مافي القبور ؟ من عظام الموتى، ؟ وحصل مافي الصدور ؟ مما يبطن اليوم من غير الله ويخفى، وما سيظهر حين يحاسب كل امرئ ويجزى، ؟ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ؟ يومئذ يوم البعثرة والتحصيل ؟ لخبير ؟، لا يخفى عليه منهم يومئذ خيِّر ولا شرِّير، وكما لا يخفى عليه اليوم من أعمالهم صغير ولا كبير.

(378/2)

تفسير سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألت أبي صلوات الله عليه عن قول الله سبحانه: ؟ إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان مالها، يومئذ تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لها ؟ فتأويل ؟ زلزالها ؟: فهو ما ينزل بها وبأهلها، من أمر الساعة وأهوالها، وفي ذلك ما قلنا به من بيانه، ما يقول الله سبحانه، في يوم الساعة وأهواله: ؟ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ؟ [الحج: 1]، ومن بيان ما قلنا به في الزلزلة من القول، وإنه من الشدائد والهول، قول رب العالمين، عند نزول الشدة والهول في يوم الأحزاب بالمؤمنين: ؟ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ؟ [الأحزاب: 10 – 11].

تأويل إخراج الأرض لأثقالها، فهو طرحها لما كان عليها من أحمالها، والأثقال، هي: الأحمال، وأحمال الأرض: فما جعل الله عليها، وكان من الثقل الذي هو الإنس ساكنا فيها، من ميت وحي، وفاجر وتقي، وكيف لا تكون مُخرِجة لهم منها ؟! وكلهم فمنتقل إلى دار القرار عنها، وأرض الحياة الدنيا فأرض بائدة فانية، وأرض دار القرار خالدة باقية، ومن أثقال الأرض من في قبورها، ومن كان من الموتى على ظهورها، فمن كل ذلك طائعةً تتخلى، من قبل أن تبيد وتبلى.

(379/2)

وفي تخليها من ذلك كله، وإخراجها عنها له، ما يقول الله جلَّ جلاَلُهُ، من أن يحويه قول أو يناله: ؟ وإذا الأرض مدت، وألقت ما فيها وتخلت ؟[الانشقاق: 3–4]، تأويل ذلك: أوحشت الأرض من أهلها وأخلت، فنُشر موتاها نشرا، وحُشر الموتى إلى الموقف حشرا، وعند ذلك من حالها، وما يخرج من

أثقالها، يقول الإنسان والإنسان: فهو الناس كلهم عندما يرون من زلزالها، وإخراجها لما كان فيها من أثقالها: ما للأرض وما شأنها ؟! فتحدث الأرض حينئذ بخبرها أعيانها، بأن الله سبحانه قد أوحى لها، فقطع مدتها وأجلها، فحان فناؤها، وانقطع بقاؤها، ف؟ يومئذ يصدر الناس ؟ كما قال الله سبحانه: ؟ أشتاتا ليروا أعمالهم ؟ وتأويل أشتاتا، هو يصدرون عن موردهم في حشرهم صدراً أشتاتا متفاوتا، فريق في الجنة وفريق في السعير، خالدا كل فريق منهم فيما صار إليه من مصير، فيرى كل من عمل مثقال ذرة من خير وشر، ما قدم لنفسه من عمل في فجور أوبر، كما قال سبحانه: ؟ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ؟ فتأويل يراه: فهو يجزاه.

(380/2)

تفسير سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته صلوات الله عليه عن قول الله سبحانه: ؟ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ؟ ؟ فأهل الكتاب: هم أهل التوراة، والتوراة: فهي الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام، وأهله وحملته اليهود والنصارى، وهم أهل ملل كثيرة شتى، فاليهود منهم فرق كثيرة مختلفة، والنصارى أيضا فأصناف كثيرة متصنفة.

فمن اليهود: اليهودية، ومنهم فرقة يقال لها: السامرية، ومنهم فرق أخرى، تعرف وتسمى.

ومن النصارى: الملكية، ومنهم: اليعقوبية، ومنهم: النسطورية، في فرق أخرى، تعرف أيضا وتسمى، ولسنا نحتاج في هذا التفسير إلى ذكرها، ولا تفصيل ما هي عليه من أمرها، غير أنهم كلهم وإن افترقوا في مذاهبهم أهل الكتاب، والمشركون فهم أهل الإثبات مع الله للآلهة والأرباب، وهم مشركوا العرب، ومن كان يُقِرُّ برب، ومن الناس من ينكر ويجحد، أن يكون للأشياء رب يعبد، ويزعم أن الأشياء لم تزل كما ترى، ولا يُثْبِتُ في الأشياء تدبيراً ولا أثرا، فيكابر في ذلك عماية وجهلا، ما يدركه بعينه عيانا وقِبَلا، من الصنع النير والتأثير، والبدع المتقن ومحكم التدبير، الذي لا يخفى على عمي ولا بصير، وإن لم يقر بمعاد ولا مصير.

وليس أولئك، ولا من هو كذلك، من أهل التوراة، ولا من أهل الكتاب ولا ممن يقر بإله، ولا برب كالعرب، ومن كان مشبها للعرب، ممن يقر بالله، وإن أشرك مع الله، فإنما أولئك عند من يعقل كالبهائم السائمة، وإن لزمتهم الحجة بما جعل الله لهم من الجوارح السالمة، التي قطع الله بها عذرهم، وألزمهم بها كفرهم، وأولئك فليسوا ممن ذكر في سورة لم يكن، وإنما ذكر فيها من يقر برب وإن لم يؤمن، من كفرة أهل الكتاب والمشركين، فقال سبحانه: ؟ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب

والمشركين منفكين ؟، والانفكاك والفك، هو المجانبة لما هم عليه والترك، وتركهم فهو لإشراكهم، وانفكاكهم من عقد شركهم، وفريتهم فيه على الله وإفكهم.

(381/2)

وتأويل ؟ كفروا ؟، فهو لم يشكروا ؛ لأن من لم يشكر الله تبارك اسمه بترك عصيانه، فكافر وإن كان مقرا ومعتقدا لمعرفة الله وإيقانه، كإبليس الذي ذكر الله سبحانه معرفته به، وذكر كفره لما ارتكب من الكبائر بربه، وكذلك كل من ارتكب كبائر تسخط من أحسن إليه فقد كفره، ومن أتى ما يرضاه وتولى أولياءه وعادى أعداءه فقد شكره، ولما جمع أهل الكتاب والمشركين من كبائر عصيان رب العالمين دُعُوا جميعا كفرة، وإن كانت قلوبهم كلهم وألسنتهم بالله مقرة، فقال: ؟ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ؟، تأويل ذلك: أنهم لم يكونوا مُقْصِرين، ولا تاركين لما هم عليه، وعاصين لله فيه، ؟ حتى تأتيهم البينة ؟ المنيرة الظاهرة، فقال: ؟ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ؟، ويتلو: يقرأ ويتبع بعد القراءة ما اقترأ، والصحف: ما صحف ليقرأ، والمطهرة: ما جعل منها بركة وتطهرة، وبينات منيرة مسفرة، وكل مطهر فمبارك وكل مبارك فمطهر له، وفيه بالله البركة والتطهرة، وكذلك يقال في الرسول عليه السلام إذا ذكر بما جعل الله من البركة فيه: رسول الله الطيب الطاهر، وهو قول الكثير عند ذكره الطاهر، عندما يذكره بذلك صلَّى الله علَيهِ وآله وسلم من الصادقين كل ذاكر، وإنما يراد بذلك المبارك المُزكَّى، وليس يراد بذلك طهارته بالماء إذا توضأ.

وكذلك يقال في ابنته فاطمة صلوات الله عليها إذا قيل: الطاهرة إنما يراد بذلك ما جعل من البركة فيها، ومن ذلك ما وهب لها وجعل لبركتها من بقية رسول الله ونسله، صلوات الله عليه وعلى آله. فهذا – والله محمود – من تأويل الطهارة ومطهرة، ومن وجوهه المعروفة غير المستنكرة، لا يجهل ذلك – إن شاء الله – ولا ينكره، من يعرف لسان العرب ويبصره.

(382/2)

وتأويل ؟ فيها كتب قيمة ؟، هو كتب منيرة بينة محكمة، لها نور وبرهان واحتجاج، ليس فيها اختلاف ولا اعوجاج، ثم ذكر الله سبحانه ما ذكرنا من افتراق أهل الكتاب واختلافهم، وما هم عليه اليوم وقبل اليوم بتشتيت أصنافهم، فقال تبارك وتعالى: ؟ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ؟، والبينة: فهي الرسل والأمور التي جاءتهم النيرة المبينة، وهي التي ليس فيها دُلسة، ولا عماية جليلة ولا لُبسة، ولكنها بينة نَيِّرة مُضيَّة، ظاهرة لمن يعقلها جلية، ألا تسمع كيف يقول

سبحانه: ؟ وما أمروا إلا ليعبدو الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ؟ فأمروا ليعبدوه جل ثناؤه وحده، فعبدت النصارى معه المسيح رسوله وعبده، وأُمروا ليخلصوا له الدين ولا يجعلوا له ولدا، فجعلوا له ولدا وجعلوه كلهم ثالث ثلاثة عددا، وفيهم ما يقول سبحانه: ؟ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ؟ [المائدة: 73]، فهو الله الأحد الصمد الذي ليس له ولد ولا والد.

وقالت اليهود كما قال الله جلَّ جلاَلُهُ، عن أن يساويه شيء أو يماثله: ؟ عزير بن الله ؟ [التوبة: 30]، فلحقوا بالنصارى في الكفر بالله، وشبهوا الله ببعض حالات خلقه في الهيئة والقوى، وزعموا أنه جالس على عرش هو سرير وأنه لا يتوهم له قرار في جو ولا هواء، وأن له مقعدا من العرش والكرسي ومستوى، وتأَوَّل مَن شَبَّهه من هذه الأمة في ذلك ما يقول الله سبحانه: ؟ الرحمن على العرش استوى ؟[طه:5]، وأمروا أن يكونوا حنفاء، فكانوا جورة حُيفا.

(383/2)

والحنيف: هو الطائع، المستقيم الخاشع، وأمروا أن يصلوا له، فصلوا لغيره معه، فمنهم من صلى لأثرة صنم، ومنهم من صلى لعيسى بن مريم، صلى الله عليه [وسلم]، ومنهم من صلى لمن شبهه بآدم، صلى الله عليه في الصورة واللحم والدم، ومنهم من صلى لمن هو عنده نور من الأنوار، وجسم مسدس المقدار، له – زَعَمَ – جهات ست، خلف وأمام ويمين ويسار وفوق وتحت، فتعالى الله عما قالوا كلهم علوا كبيرا، وجل وتقدس عن أن يكون لنفسه من خلقه مثلا ونظيرا، وكيف يكون عابد ذليل كعزيز معبود ؟! ومن لم يزل دائما مشبها لما كان طوال الدهر غير موجود.

ثم قال سبحانه في دينه وصفته: ؟ وذلك دين القيمة ؟، تأويل ذلك: أن كل ما أمر به فمن الأمور المرشدة الهادية المستقيمة.

؟ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ؟، فالذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين بالله، مع إقرار الفريقين بالربوبية لله، فهم كما قال الله: ؟ شر البرية ؟، بما كان منهم على الله من الدعوى المبطلة المفترية، والبرية: فما ذرأ الله وبرأ، مما يُرَى من الخلق كله أو لا يُرَى. ونار جهنم: فهي النار التي لا يعرف في النيران مثلها، ولا يعلم منها كلها مشبها لها، فيما عظم الله من نارها، وحر استعارها.

وتأويل ؟ خالدين ؟، فهو: غير فانين ولا بائدين، كما قال سبحانه: ؟ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ؟ [فاطر: 36]، فنار جهنم: هي النار المستعرة التي ليس لاستعارها أبدا من انكسار ولا فتور، ولو فترت من استعارها والتهابها، لكان في ذلك تخفيف عن أهلها من عذابها.

؟ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ؟ فمن آمن: فهم المؤمنون من كبائر العصيان، والذين لا يُخافون على ارتكاب زور ولا بهتان، ما ثبت لهم أبدا اسم الإيمان، وحُكمُ أهل الهدى والبر والإحسان.

والصالحات من الأعمال، فهي كل صالح عند الله من قول أو أفعال، وجزاؤهم، هو ثوابهم من الله وعطاؤهم.

وتأويل ؟ جنات عدن ؟، هو: جنات مستقر وأمن، وتأويل ؟ رضي الله عنهم ؟، هو: رضى الله سبحانه لهم، ؟ ورضوا عنه ؟ فتأويل رضاهم، فهو بما أعطاهم وجزاهم، بأنهم لم يزالوا راضين عنه – جلَّ ثَنَاؤُهُ – في دنياهم، قبل مصيرهم إلى ما صاروا.

ثم أخبر سبحانه لمن جعل جزاه، فقال: ؟ ذلك لمن خشي ربه ؟ يعني: لمن خافه واتقاه، فأخبر جلَّ جلاَلُهُ أنه جعل لأهل التقوى الكرامة والرضى، والارتضاء في المعاد والمثوى.

وتأويل ؟ خالدين فيها ؟، فهو: بقاؤهم أبدا بعد المصير إليها.

تفسير سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

وسألته رحمة الله عليه عن قوله سبحانه: ؟ إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر، تنزل الملائكة والروح فيها ؟ ؟

فقد يكون أنزلنا: جعلنا، كما قال سبحانه: ؟ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ؟ [الحديد: 25]، ؟ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ؟ [الزمر: 6].

وتأويل أنزل، في ذلك جعل، فيمكن أن يكون جعل القرآن كله، وأحدثه وأتمه وأكمله، فيما ذكر تبارك وتعالى من ليلة القدر المذكور، والقدر: فهو وقت وَقتَّه الله جلَّ ثَنَاؤُهُ من أوقات الدهور، وقد يكون القدر، هو الجلالة والكبر، كما يقال: إن لفلان أو لكذا وكذا قدرا، يراد بذلك أن له لجَلالة وكبرا، فإن كان وقتا فهو وقت ذكره الله وكرَّمه، بما قدَّر فيه من أموره المحكمة، ومن الأدلة على أن الله جعل القرآن في ليلة القدر كله، وأحدثه فيها فأتمه وأكمله، وأنه لم يرد بتنزيله ووحيه، إنزاله له جملة على رسوله ونبيه، أن الله سبحانه إنما أنزله على رسوله، صلَّى الله علَيهِ وآلِه، وأوحى تبارك وتعالى به

إليه مفرقا لا جملة واحدة، وعلمه إياه جبريل صلى الله عليهما سورة سورة وآيات آيات معدودة، ليقرأه كما قال سبحانه على مكث وترتيل، ولترتيله وَصَفَه تبارك وتعالى في الوحي له بالتنزيل ؛ لأن المفرق المنزل، هو المرتل المفصل، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى فيه: ؟ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ؟ [الإسراء: 106]، ويقول سبحانه لرسوله، صلَّى الله علَيهِ وآلِه وسلم في قراءته: ؟ ورتل القرآن ترتيلا ؟ [المزمل: 4]، والتفصيل: هو التقطيع والتنزيل.

(386/2)

وفي إجماله، وجمع إنزاله، ما يقول المشركون لرسوله، صلَّى الله علَيهِ وعلى أهله: ؟ لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ؟، فقال الله سبحانه: ؟ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ؟، يقول سبحانه: نزلناه عليك قليلا قليلا، ثم قال سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وآله: ؟ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ؟ [الفرقان: 32 – 33]، فنحمد الله على ما نوَّر بذلك من حجته بمنه ورحمته تنويرا.

ثم أخبر سبحانه أن قد أنزله، وتأويل ذلك: أن قد جعله الله كله، في ليلة واحدة، فقال تبارك وتعالى: ؟ إنا أنزلناه في ليلة القدر ؟ و؟ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ؟ [الدخان: 3]، فأبطل بذلك كل حجة لمن كفر مظلمة مهلكة، فكان ذلك من قدرته، ما لا ينكره من أهل الجاهلية من أقر بمعرفته.

وقد يمكن أن يكون تأويل ؟ إنا أنزلناه ؟ هو: تنزيله سبحانه من السماء السابعة العليا، إلى من كان من الملائكة في السماء الدنيا، وقد ذكر عن أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه أن ذلك هو تأويل ؟ إنا أنزلناه ؟ وبيانه، فأي التأويلين جميعا تُؤُوِّلَ فيه، وقع بإنزاله كله عليه.

ولو كان إنما أراد بذلك إنزاله على محمد صلَّى الله علَيهِ وعلى أهل بيته وسلم لكان إنما نزل إليه مفرقا ومقطعا، غير مجمل من الله، وإنما قال الله: ؟ إنا أنزلناه ؟ فأوقع التنزيل على كله لا على بعضه، وقال لرسوله، صلَّى الله علَيهِ وآلِه: ؟ إن الذي فرض عليك القرآن ؟ [القصص: 85] فأخبر سبحانه بفرضه، والفرض: هو التقطيع والتفصيل كما يقول القائل للشيء إذا أمر بقطعه، افْرِضْه وفَصِّلْه ليقطعه.

وتأويل ؟ إن الذي فرض عليك القرآن ؟، هو أن الذي قطَّع تفريقا ما نزل من القرآن إليك، وذلك فهو الله الرحمن الرحيم، وما فرض: فهو كتابه المنزل الحكيم، وأي القولين اللذين ذكرنا، وبينا في ذلك وفسرنا، قيل به فتأويل، وأمر كبير جليل، كريمٌ ذكرُه، واجبٌ شكرُه.

(387/2)

وليلة القدر التي نزل فيها القرآن: فليلة من الليالي مباركة، تتنزل الملائكة فيها كما قال الله تبارك وتعالى الروح والملائكة ؛ لبركتها وقدرها، وما عظم الله من أمرها، ؟ بإذن ربهم من كل أمر ؟ من أمور الله بنازلة، وبركة لأهل الأرض كلهم شاملة، فليلة ذلك الوقت والخير والقدر، خير كما قال: ؟ خير من ألف شهر ؟، لما جعل الله جلَّ ثَنَاؤُهُ فيها من اليُمن والبركات، وما يمسك الله فيها عمن أجرم من النقم والهلكات، ولما نسب الله إليها، من الخير تنزلت الملائكة والروح فيها، من أعلى العلا، إلى الأرض السفلى.

(388/2)

يقول الله سبحانه: ؟ بإذن ربهم ؟، تأويل ذلك بإذن الله فيها لهم، وقد قال غيرنا في تأويل ؟ من كل أمر ؟: إنه من كل وجهة، وما قلنا به – والله أعلم – في نزولهم من أمر الله ورحمته بكل نازلة أشبه وأوجه، فهم ينزلون فيها من أمر الله وتقديره، وما جعل الله فيها من بركاته وخيره، إحداناً وزمرا وإرسالا، ببركتها وإعظاما لها وإجلالا، وإذ جعلها الله سبحانه لتنزيله ووحيه وقتا ومقدارا، وذكرها بما ذكرها به من القدر تشريفا لها وإكبارا، وليلة القدر ليلة جعلها الله من ليالي رمضان، ألا ترى كيف يقول سبحانه: ؟ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ؟ [البقرة: 185]، ويقول سبحانه بعد ذكره لشهرها، وما جعل الله فيها من بركتها ويمنها، ؟ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم، أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ؟ [الدخان: 3 – 6]، فهي ليلة بركة ورحمة، وسلامة وعصمة، وفيها ما يقول أرحم الراحمين، ورب السماوات والأرضين: ؟ سلام هي حتى مطلع الفجر ؟، وتأويل ؟ سلام ؟، فهي: سلامة هي حتى طلوع الفجر، فليلة القدر ليلة سالمة مسلمة، ليس فيها عذاب من الله تبارك وتعالى ولا نقمة، جعلها الله بفضله بركة وسلامة، ورحمة للعباد إلى الفجر دائمة، ولحقٍّ الليلة نزَّل الله فيها وحيه وقرآنه، وفرَّق برحمته فيها فضله وفرقانه، بالبركة والتفضيل، والإعظام والتجليل.

(389/2)

وتأويل ؟ ما أدراك ؟، فهو: ما يدريك، لولا ما نزلنا من البيان فيها عليك، ؟ ما ليلة القدر ؟ في القدر والكبر، وما يضاعف فيها لعامله من البر والأجر، فهي ليلة ؟ خير من ألف شهر ؟، جعلت لبركتها ويمنها، في التضعيف لها، والأضعاف كعشرة آلاف ليلة، وعشرة آلاف ليلة، وعشرة آلاف ليلة، فذلك ثلاثون ألف ليلة، ونحوها تامة، جعلت مقدارا مضاعفا لليلة القدر تشريفا لها وكرامة، وهي ليلة

مقدسة يضاعف فيها كل بر وعمل صالح لمن عمل به فيها من أهلها، فيزاد على تضعيفه من قبل ثلاثين ألف ضعف لقدرها وفضلها، ونحمد الله في ذلك وغيره رب العالمين، على ما أنعم به من ذلك الله خير المنعمين.

(390/2)

تفسير سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

سألت أبي رحمة الله عليه عن تفسير: ؟ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق ؟ ؟ فـ[قال:] تأويل ؟ اقرأ ؟، فهو أن يقرأ، وتأويل اسم ربه الذي أمر أن يقرأ به فهو بسم الله الرحمن الرحيم، الذي قدم له في تعليمه كل سورة عند الإقراء له والتعليم. وربه: فهو الله الذي خلق خلقه، فخلق الإنسان من علق إذا ما خلقه. والعلق: فهو الدم الأحمر المؤتلق، الذي يتلألأ لشدة حمرته ويبرق، فيما ذكره الله سبحانه من علق الدم، وخلق الناس كلهم غير آدم وحواء فإن حواء خلقت من آدم، وخلق آدم من تراب، فلم يخرج آدم وحواء من بين ترائب وأصلاب، كما خرج من بين الصلب والترائب غيرهما، ولكنه كان من الله سبحانه ابتداؤهما وتدبيرهما، من غير أصل مقدم، من أب ولا أم، وكان ما بين ذلك من التباين والفرق، في الصنع والفطرة والخلق ؛ إذ خلق آدم من تراب، وخلق نسله من علق من أعجب العجاب، وأدل الدلائل على قدرة الخالق، على ما خلق مما يشاء أن يخلقه جلَّ ثَنَاؤُهُ من الخلائق، وعلى أن قدرته سبحانه فيما يخلق من خليقته، واحدة غير ولا متشتتة متفرقة، على أقدار ما يرى من افتراق البدائع، والخِلَقِ المفطورة والصنائع، كما قال سبحانه: ؟ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ؟ [النحل: 40]، فأخبر سبحانه أنه لا يختلف عليه في قدرته البدائع والكون، وأن قدرته في ذلك كله لا تتفاوت، وإن تفاوت الخلق المبتدع المتفاوِت.

(391/2)

ثم أمر تبارك وتعالى رسوله بالقراءة باسمه أمرا مثنى، وكل ذلك فواحد في الإرادة والمعنى، إلا أن التكرير غير التفريد، في زيادة الأمر والتوكيد، والتكثير فأكثر في الرحمة، وفي زيادة المن و النعمة، بالعلم والتعليم، والأمر والتفهيم، وفي كل كلمة من كلمات الله تقل أو تكثر، بصائر جمة – بمن الله – لمن يعقل ويبصر، فليس في شيء من كلام الله جلَّ ثَنَاؤُهُ نقص ولا فضول، ولا يُشبهُ قولَ الله في الحكمة والبيان من أقوال القائلين قول، فقال سبحانه: ؟ اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم

الإنسان ما لم يعلم ؟ من كل ما علمه ببصر أو سمع أو فؤاد، وما كان مرضيا أو مسخطا لله من غي أو رشاد، كما قال سبحانه: ؟ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ؟ [النحل: 78]، فبما جعل الله لهم من الأفئدة يعقلون ويتفكرون، وبما سلم من السمع والبصر يسمعون ويبصرون، فتبارك الله أحسن الخالقين خلقا، وأوسع الرازقين في العلم وغيره رزقا.

فهو المعلم سبحانه بالقلم، وبغيره من وجوه العلم، التي ليست بخط ولا كتاب، من كل ما يعلمه أولوا الألباب، ما يعلمه أيضا سواهم، ممن لم يبلغ في العلم مداهم، وإن لم يكتب، وكان جاهلا بالكتب، مما يعلمه من صناعة، أو بِحَرفٍ أو بياعة، فالله معلمه ومفهمه، من ذلك أو يعلمه، فلولا قول الله سبحانه لم يظفر أبدا من علمه بما علم، ولم يفهم منه وفيه من يعلم ما فهم، وكذلك كل ملهم من طفل صغير، وكلما سوى ذلك من البهائم والطير، من ألهم علما في تَغَذّي، أو محاذرة لضر أو تَوَقّي، فالله عز وجل ملهمه معرفته، وتوقيه ومحاذرته.

(392/2)

وتأويل قوله سبحانه: ؟ ربك الأكرم ؟، فهو: ما بان به الله من الجود والكرم، فيما وصل به إليه من النعم، من مواهبه في العلم وغير العلم، وقد علّم الله رسوله عليه السلام من شرائعه ودينه، وإن لم يكتب بقلم أو بخط كتابا بيمينه، ما جعله الله به – فله الحمد – إماما لكل إمام، كان معه في حياته وبعد وفاته من الكتبة والعلام، فكان بمن الله لكلهم إماما ومعلما، وعلى جميعهم في العلم والحكمة مقدما، وفي ذلك وبيانه، ما يقول الله سبحانه في فرقانه : ؟ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ؟ [العنكبوت: 48]، فكفى بهذا والحمد لله بيانا وبرهانا لقوم يعقلون.

وتأويل: ؟ كلا ؟، فهو: نعم وبلى، ؟ إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى ؟ فتأويل يطغى، فهو العتاء والطغاء، وتأويل ؟ أن رآه استغنى ؟، فهو تَكَثُّره بالجدة والغنى، في كل ما رآه فيه من علم ومال، وما يراه مستغنيا به أو مستطيلا به من كل حال.

وتأويل ؟ إن إلى ربك الرجعى ؟، فهو: إلى الله المعاد في قيامة الموتى، ثم قال سبحانه لرسوله، صلَّى الله علَيهِ وعلى آلِه: ؟ أرأيت الذي ينهى، عبدا إذا صلى، أرأيت إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى ؟ تثبيتا له عليه السلام وتعريفا، وتبيينا أيضا لمن كفر به وتوقيفا، على ما يعرفون ولا ينكرون، وما هم به جميعا كلهم مُقِرّون، من أنه ليس لأحد أن ينهى عبدا من عباد الله عن الصلاة، والأمر بالتقوى لله.

(393/2)

فتأويل ؟ أرأيت ؟ فهو: أرأيت أنت ومن معك ممن يرى كما ترون وكلهم جميعا يرى، أن كل من صلى من خلق الله وأمر بما يحب الله ويرضى، مبتغيا بذلك رضوان الله، وطالبا بذلك لما عند الله، مصيبا لذلك في رشده وهداه، قد أصاب بذلك من الله طاعته ورضاه، أليس من نهاه عندهم عن ذلك وآذاه، فقد استوجب لعنة الله وإخزاه ؟ وكذلك كل عبد لله أمر بالتقوى والإجلال لله، كما كان يصلي محمد صلى الله عليه وآله لله ولمرضاته، ويأمر باتقاء الله جلَّ ثَنَاؤُهُ ومخافته، وكل ما كان فيه من ذلك كله عندهم فحميد، ومن يعمل لله بذلك فيهم فرشيد.

ثم قال سبحانه لرسوله، صلَّى الله علَيهِ وعلى آلِه: ؟ أرأيت إن كذب وتولى ؟، تأويل ما يقرأ من ذلك ويتلى. أفرأيت من كذب به بعد إقراره بما يصف، وتولى في ذلك عما يعرف، من أنه ليس له أن ينهى عبدا عن أن يصلي لله، ولكن أن يأمر بما هو الهدى عنده من تقوى الله.

؟ ألم يعلم ؟ من فعل ذلك ؟ بأن الله يرى ؟، فيخاف أن يؤاخذه الله بفعله ويجزى.

وتأويل رؤية الله فهو علم الله بنهي من ينهى، عبدا إذا صلى، فما بالهم ينهون محمدا صلَّى الله علَيهِ وآلِه، وأصحابه عن الصلاة، وعما لم يزل يأمر به من التقوى، أهل البر والرشد من الهدى، مع علم من ينهى عن ذلك ويقينه، بأن الله علم بنهيه عن ذلك وغيره، فلما أصر الناهي عن ذلك على ظلمه فيه وكُفره، مع ما أيقن به من علم الله بأمره، فيه كله وأقر، قال سبحانه: ؟ كلا لئن لم ينته ؟ عما هو فيه، وعما أصر من ظلمه عليه، ؟ لنسفعا ؟ وتأويل ؟ لنسفعا ؟ فهو: لنأخذن ؟ بالناصية ؟، والناصية: فهي مقدم الرأس العالية.

(394/2)

ثم قال سبحانه: ؟ ناصية كاذبة خاطئة ؟، إذ كانت عما لا يجوز النهي عنه عندها من الصلاة والتقوى لله ناهية، فكذبت قولها في ذلك بفعلها، وأخطأت بنهيها عنه فيه بجهلها، فهي كما قال الله سبحانه: ؟ كاذبة خاطئة ؟ وهي لله مخالفة في ذلك عاصية، يقول الله سبحانه فإذا أخذنا منه بالناصية، ؟ فليدع ؟ إن استجيب له حينئذ ؟ ناديه ؟، وناديه فهم عشيرته وأولياؤه، وأنصاره وجلساؤه، الذين كانوا يجلسون في مقامه وإليه، ويجتمعون لمجالسته ونصرته لديه، ؟ سندع الزبانية ؟، والزبانية فهم الملائكة المطهرة الزاكية، التي يأمرها الله سبحانه بأمره فتنفذ ما أمرها الله به مطيعة لله غير عاصية، وآخذة لما أمرها الله سبحانه بأخذه غير وانية، تأخذ بالغلظة والشدة، كل نفس عاتية متمردة، كما قال سبحانه: ؟ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟

[التحريم: 6].

ثم قال سبحانه لرسوله: ؟ كلا لا تطعه ؟ يقول سبحانه لرسوله، صلَّى الله علَيهِ وآلِه: لا تطع من نهى عن الصلاة والهدى، وعن الأمر لله بالتقوى، وكَذَبَ فعمل بالكذب، ولكن اسجد واقترب، بكل عمل صالح مقرِّب، من صلاة أو هدى، أو بر وتقوى، فكلهم يقر بأن الهدى والصلاة لله، والأمر باتقاء الله مقرِّب لمن فعله إلى الله، فليس لهم أن ينهوا عن شيء من ذلك، إذا كان عندهم كذلك، ومن يفعل ذلك أو عمل به فقد كذب فيه قوله بفعله، وصار إلى ما لا مرية فيه عنده من جهله، وتولى عما كان من الإقرار لله عليه، بتركه لما كان مقرا لله بالحق فيه، فتشهد عليه نفسه لله بكفره، وتثبت عليه فيه الحجة باعترافه وإقراره، فبان منه الكفر، وانقطع عنه العذر، فلا عذر له عند نفسه ولا اعتذار، ولا خفاء لكفره ولا استتار.

(395/2)